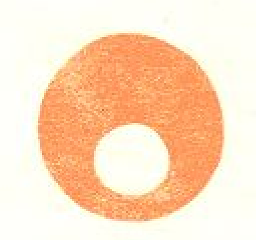


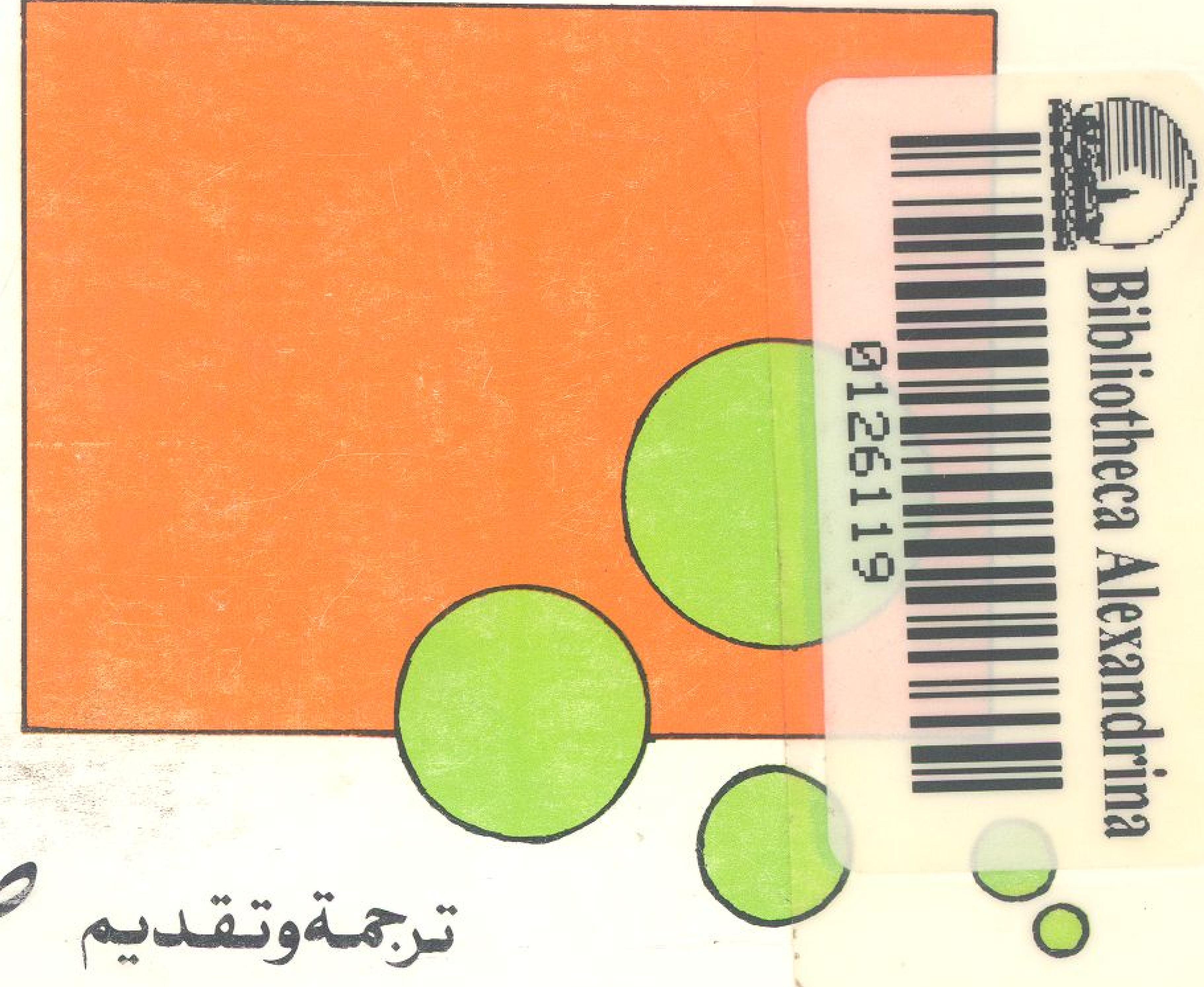


سلسلة ابحاث

في تاريخ

الدين والفلسفة

هاينريش هايني



ترجمة وتقديم صلاح حاتم

في تاريخ الدين والفلسفة

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

ZURGESCHICHTE DER RELIGION UNDPHILO-
SOPHIE
IN DEUTSCHLAND
VON
HE NRICH HEINE

★ هاينريش هايني : في تاريخ الدين والفلسفة
★ ترجمة وتقديم صلاح حاتم
★ الطبعة الأولى ١٩٨٨

★ الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية ـ اللاذقية ـ ص ب ١٠١٨ ـ هاتف ٢٢٣٣٩

هاينريش هايني

في تاريخ

الدين والفلسفة

ترجمة وتقديم صلاح حاتم

هاينريش هايني والفلسفة

بقلم المترجم

هاينريش هايني شاعر بكل مافي هذه الكلمة من معنى . فما أنجزه على صعيد الأدب ، ولاسيما الشعر ، يضعه في مصاف الشعراء العظام . ولو عدنا إلى أمّهات الكتب التي تؤرخ للفلسفة والفلاسفة لوجدنا أن فهارسها لا تشتمل على اسم هايني . ومع هذا فإننا لا نريد أن نحدد للشاعر مكاناً في تاريخ الفكر الفلسفي إذا كنا استهللنا كتابه هذا(*) بمقدمة تتناول علاقة الشاعر بالفلسفة . إنَّ غايتنا أن نعرّف به شاعراً يخوض ميداناً ليس سهلاً الخوض فيه ، وذلك ليقاسمنا بصدق واخلاص «هذه الكسرة من الخبز الروحي» التي ينتزعها من «مخازن القمح الموصدة لشعب لا يملك المفاتيح إليها»(١). وبكل تواضع يعترف أنه ليس «عالماً» ولا ينتمي إلى «حكماء ألمانيا السبعمائة»(٢). ومع هذا فإنَّ ما يعرضه لنا في هذا الكتاب باسلوبه الفكه الرشيق ليستحوذ على اهتمامنا ويستأثر بألبابنا بحيث إنَّ الأفكار والمواقف تبرز أمامنا واضحة حية . وجدير بالذكر أن اهتمام هايني بالفلسفة والفكر الفلسفي لم يكن نابعاً من إحساسه بأن هذا شرط لوجوده الشعري مع أن موقفه من مؤلفاته النظرية يبقى موقفاً غامضاً . فهو تارة يقول إن مؤلفاته النظرية والشعرية لم تنبثق

(*) وعنوانه الأصلي الكامل (حول تاريخ الدين والفلسفة في ألمانيا)

(١) هاينريش هايني : حول تاريخ الدين. والفلسفة في ألمانيا ، ص ١٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩

إلا من فكرة واحدة على حين يصرح تارة أخرى ساخراً متهكماً بأنه بحث عن موضوعات ممكنة لاعماله النثرية فلم يجدها إلا في الموضوعات الفلسفية . وإلى هذا فإنه ليخيل إلينا أيضاً أنه يقدّر أعماله النظرية اكثر مما يقدّر أعماله ومؤلفاته الشعرية لكأنه يرى فيها البديل عما يتخلل القصائد من نقاط ضعف .

ثم إنه ، فيما بعد وفي أواخر ايامه ، يبتعد من الفلسفة معترفاً بأنه لم يطمئن إلى أي مذهب فلسفي ولم ير في الفلسفة إلا ميدان رقص للفكر(٣) .

وإذا كان هايني جديراً بأن يحمل اسم شاعر كبير فإنه كان أيضاً كاتباً صحافياً واسع الثقافة والاطلاع ملماً بنتائج الفكر ووثيق الصلة بالتراث الفكري المعاصر اكثر من أي كاتب آخر من معاصريه .

وعلى هذا فإنه يتيح لنا أن نطلع على بعض الاتجاهات ذات الأهمية لوصف الموقف الفلسفي بعد موت هيجل .

والحق أن هايني يذكر في «اعترافاته»(٤) بأن المذاهب الفكرية كانت مألوفة لديه منذ أن كان طالباً في الثانوية إذ أن شالماير ، مدير الثانوية وصديق الأسرة ، كان يسمح له بحضور محاضراته في الفلسفة . على أن فترة الدراسة الجامعية التي امضاها في برلين من سنة ١٨٢١ وإلى سنة ١٨٢٤ كان لها الدور الأهم في تكوين فكر هايني الفلسفي وتطوره . إذ كان عرضة لتأثير هيجل ، استاذ الفلسفة في جامعة برلين . ولقد أثّر فيه هيجل من خلال المعاشرة الشخصية والاجتماعية اكثر مما أثر فيه من خلال مؤلفاته ومحاضراته .

ومع أن هايني أدرك دور الفلسفة الهيجلية وأهميتها لا للعصر الذي ظهرت فيه ، بل للأعصر اللاحقة أيضاً بما حملته من أفكار جديدة خضعت لتفسيرات عديدة فإنه لم يكن من اتباع هيجل من غير قيد أو شرط . فحين اهتدى إلى حظيرة الايمان رأى أن الرحمة المسيحية اكثر بهجة للانسانية المعذبة من الجدل الهيجلي(٥) .

---

(٣) هاينريش هايني : المؤلفات الكاملة ، مجلد ١٣، «اعترافات» ص ١٢٥ ، دار نشر كيندلر ١٩٦٤ .

(٤) انظر: «اعترافات» ، مجلد ١٣، ص ١٣٦

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٢٢

والجدير بالذكر أنه انصرف إلى دراسة فلسفة هيجل وهو في المهجر في باريس ، ليصورها للجمهور الفرنسي باسلوب يفهمه عامة الشعب[٦] ، غير أنه أتلف المخطوط حين ارتدَّ إلى عقيدة العهد القديم وبعد أن كان أمضى وقتاً طويلاً وهو يرعى الخنازير لدى اتباع الفلسفة الهيجلية ، على حد تعبير الشاعر[٧] .

وعلى أية حال فإنَّ الفلسفة المثالية الألمانية يصبح لها أهمية مركزية بالنسبة للصورة التي يكوّنها هايني عن عصره ، ولاسيما عن ألمانيا والألمان .

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا يعود تأليفه إلى عامي ١٨٣٣ ـ ١٨٣٤ ولقد نشر في بادىء الأمر على دفعات في المجلة الباريسية ريفو دو دي موند . وحين ظهر هذا الكتاب كان قد مضى ثلاث سنوات على وفاة هيجل . ولقد كتبه هايني ، كما هو بيّن واضح ، للقراء الفرنسيين بتأثير من انغاتين وشيافلييه زعيمي المدرسة السان سيمونية الطوباوية التي اجتذبت هايني بأفكارها الدينية . وكان هايني قد ألقى عصا الترحال في باريس عام ١٨٣٠ وذلك بعد اندلاع ثورة تموز ليكون مراسلاً لصحيفة اوغسبورغ العامة . على أن هذا الانتقال لم يكن إلا بداية لحياة مهجر طويلة الأمد .

إن الكتاب محاولة لتقديم تاريخ موجز للفلسفة باسلوب شعبي يفهمه القارىء البسيط . وفي بادىء الأمر لم يعرف هذا الكتاب في ألمانيا إلا بالصورة التي شوهتها الرقابة على نحو ماذكر هايني في مقدمة الطبعة الأولى .

والشيء الذي يهم هايني في كتابه هذا أن يساهم في النقاش الفرنسي حول ألمانيا ، إذ ساد الاعتقاد في فرنسا آنذاك بأن الفلسفة الألمانية دينية صوفية روحانية كما فهمتها وصورتها مدام دي شفال في كتابها «عن ألمانيا» . أما هايني فيسعى الى أن يظهر الطابع الفكري المجرد والنزعة الملحدة للفلسفة الألمانية التي يمكن وضعها بأي شيء آخر إلا أن تكون متميزة بطابع الخشية من الله والتقوى والورع الربانيين[٨] .

---

(٦) المصدر نفسه ، ص ١١٨، ١٢٠.

(٧) انظر كلمة الختام لديوان «رومانسيرو» مجلد ٣، ص ١٧٣

(٨) انظر «اعترافات»، مجلد ١٣، ص ١١١، ١١٢

ولا يقصر هايني نظرته على الدور الألماني في تاريخ الفكر الحديث . وإنما يتناول في كتابه ديكارت إلى جانب لايبنتز ولوك وسبينوزا إلى جانب فولف . غير أنه يركز اهتمامه على أهم الأحداث في تاريخ الفكر الألماني ، أي على الاصلاح الديني والثورة الفلسفية التي مهد لها الفيلسوف كانط . ويعالج الفلسفة الألمانية في علاقتها بالتقليد الديني ويذهب إلى أن الفلسفة الحديثة استمرار للبداية الدينية ونتيجة أخيرة لها . وينطبق هذا في المقام الأول على كانط والمثالية الألمانية . ويحاول أن يثبت أن في الفلسفة اتجاهاً إلحادياً يتصاعد باستمرار رغم صلات الفلسفة الحديثة الوضعية بالدين .

أما الأهمية التاريخية للوثر والاصلاح الديني فيراها هايني في أن ميلاد الحرية الفكرية قد تم على يدي لوثر حيث أنه منح العقل الانساني الحق في أن يفسر الانجيل بعيداً عن كل سلطة أو تأثير خارجي . كما أن الفلسفة الألمانية ليست إلا آخر ثمرة لهذه الحرية الفكرية المكتسبة(٩) . ويبلغ التطور ذروته في نقد كانط الذي يعد الاله مفهوماً حدياً أو شيئاً في ذاته . وتدحض فلسفة كانط كل الأدلة الممكنة على وجود إله فهم فهماً الحادياً . اما هيجل فيختتم هذا التطور، وتبين فلسفة الدين عند هيجل أن المسيحية تختلف عن غيرها من الأديان الأخرى في أن لها إلهاً . على أن هذا الاله مات . ثم إن فكرة المعرفة المطلقة التي طرحها هيجل تتضمن بأن الاله لا يصل إلى وعي ذاته إلا بالانسان . ولم يكن هايني الوحيد الذي فهم رأي هيجل بأنه تأليه ذاتي للانسان . فالله أصبح انساناً ، على حد تعبير هيجل . وهذا ماساهم ويساهم في دفع عجلة الالحاد وشجع عليه(١٠) . والحق أن الجوهر الحقيقي للمذهب الالحادي المعاصر لا ينحصر في نكران وجود الله ، بل إن الواقع هو أن العقل يعتمد على نفسه ويخوّل لنفسه الحق في أن يقرر في مثل هذه القضايا انطلاقاً من السيادة المطلقة التي يتمتع بها .

---

(٩) المصدبر السابق، ص ١٢٨

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١١٩، ١٢٧

فنقد كانط ، مثلاً ، يقدم البرهان على استحالة معرفة الاله الطبيعية ، وبذلك ينهار «مذهب التأليه ، مرتكز نظام الحكم الفكري القديم ،... وإنَّ الذي يتهيَّأ للموت هو يهوه القديم نفسه .. فالمرء يقدم القربان المقدس لاله يموت»(١١) .

وبذلك يبلغ عصر الاستنارة غايته وتتم القطيعة مع التقليد الديني اللاهوتي .

هذا وإن نقد العقل العملي لدى كانط قد توصل مرة أخرى إلى مفهوم إله وذلك من طريق غير مباشر مروراً بالقانون الخلقي . ويفهم هايني هذا على أنه تقلب وتراجع واستسلام امام البداية الأساسية ، كما يرى في ذلك مهزلة ، ذلك لأن كانط انساق إلى ذلك إما بدافع الشفقة على خادمه العجوز أو بسبب الشرطة(١٢) .

وفسّر هايني تطور كل من فيشته وشيللنغ بأنه أيضاً تقلب وارتداد وجبن أمام البداية الثورية التي بدأها الفيلسوفان(١٣) . بل إنه لم يتوانَ عن الهزء والسخرية من تصوف شيللنغ المزعوم الذي تجمّل به في آخر حياته(١٤) .

الحق أن هايني يرى في ظواهر التاريخ الاجتماعية والسياسية والظواهر الفكرية المماثلة شيئاً موحداً . فالتاريخ السياسي وتاريخ العادات والتقاليد والقيم والحق والفن والدين هذا كله يشكل وحدة تامة . وهذا يعني أنه يصور التحولات الاجتماعية والسياسية على أنها تحولات الحياة الفكرية في المقام الأول . وعلى هذا فإن فهم الفلسفة لا يمكن أن يكون انطلاقاً منها فحسب ، بل انطلاقاً من علائق سياسية أيضاً . فتاريخ الفلسفة مثله كمثل تاريخ الدين وهو أبداً عنصر التاريخ السياسي .

وإنَّ المثال الذي يصلح لربط السياسة بالفلسفة هو معالجة الثورة الفرنسية من جهة ثم معالجة التطور الفلسفي من كانط إلى هيجل من جهة أخرى . ويسمي

---

(١١) انظر: «حول تاريخ الدين والفلسفة في المانيا» ص ٩٨، ٩٩.

(١٢) انظر: «حول تاريخ الدين والفلسفة في ألمانيا»، ص ١١٢

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٣٥

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٤١

هايني الفلسفة الألمانية في ذلك الحين حلم الثورة الفرنسية . فالألماني تأملي ويميل بطبعه إلى الأحلام ، فلا يعيش في الحاضر ، بل في الماضي والمستقبل وهو محافظ غير ثوري . وبذلك فإنَّ للطبع الألماني صلته الخاصة بالسلوك النظري خلافاً لما يتميز به الفرنسي الذي يقرّ رأيه على الفعل والعمل . وعلى هذا يرى هايني أن المفتاح لفهم الطبع الألماني هو الفلسفة لا الأدب .

ويذهب هايني إلى أنَّ الفلسفة ، أية فلسفة كانت ، لها مدلول اجتماعي مباشر ونتائج اجتماعية . إنَّ صياغة فكرة مجردة يمكن أن تستحيل إلى واقعة مهمة من الناحية الاجتماعية والسياسية بحيث يتشكل من خلالها الوجود الفعلي . فالكون ، في نظر هايني ، هو علامة الكلمة ورمزها[١٥] . وبواسطة الكلمة يمكن تغيير الواقع . ولئن كانت الفلسفة تصوّر هذا الكون مجرد تصوير فهي جزء من هذا الكون . ويضع هايني هذا التداخل نصب عينيه حين يسأل عن مدلول الفلسفة الاجتماعية الذي هو معيار للحكم على هذا النوع من الفلسفة . وعلى هذا لم تكن الفلسفة بدءاً من كانط وحتى هيجل حلم الثورة الفرنسية فحسب ، بل مهدت أيضاً لثورة المانية على نحو مباشر سواء أكانت هذه النتيجة مقصودة أم لا . ولما أن المرء سيسير بالمذهب الالحادي في هذه الفلسفة إلى أبعد الحدود فلابد أن تكوّن الفلسفة وتخلق بالضرورة قوى ثورية تتفجر ذات يوم . وهنا سيعتمد الانسان الفرد على نفسه ويقرر مصيره بيده بحكم ذلك . ويؤكد هايني على أن الشعب الألماني شعب منهجي . إذ لابد أن يبدأ بالاصلاح الديني ثم ينتقل إلى الفلسفة . كما أن الثورة السياسية لن تندلع إلا بعد اكتمال الفلسفة . ويعلل هذا قائلاً : «إن الرؤوس التي استغلتها الفلسفة للتفكير والتأمل تستطيع الثورة أن تطيح بها فيما بعد لأغراض تريدها . على أن الفلسفة ماكان في وسعها أن تستخدم أبداً الرؤوس التي أطاحت بها الثورة لو أن الثورة سبقت الفلسفة»[١٦] .

إنه ، بذلك ، يرد على هيجل الذي يرى أن الألمان ليسوا بحاجة إلى ثورة كالفرنسيين لأنهم حققوا الاصلاح الديني . ويرد ايضاً على رأيه القائل إنه ليس في

(١٥) المصدر السابق، ص ١٠١

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٤٦

الامكان تغيير ماهو قائم وموجود معترضاً عليه بأن الثورة الألمانية يجب أن تحدث على نحو أعمق بكثير من الثورة الفرنسية ويجب أن تدوّي على نحوٍ لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم ذلك لأن نقد كانط وفلسفة فيشته والفلسفة الطبيعية سبقت هذه الثورة ومهدت لها .

وبحماسة مذهلة يتحدث هايني في آخر كتابه عن ثورة مقبلة في ألمانيا يهيؤها فهم الواقع الجديد للفلسفة الألمانية . إذ سيظهر اتباع كانط الجدد ليرفضوا كلَّ مذهب تقوي في عالم الظواهر وليقطعوا آخر الروابط التي تربطهم بالماضي . وسيأتي اتباع فيشته الجدد وهم اشدّاء الشكيمة أقوياء الارادة . أما فلاسفة الطبيعة الجدد فسيقحمون انفسهم في عملية التهديم التي تقوم بها الثورة الألمانية مسخِّرين الطبيعة وقوى الطبيعة لعملهم الجديد . ولا يتوانى هايني من أن يحذّر الفرنسيين من هذه الثورة التي لن تظهر ثورتهم أمامها إلا انشودة رعوية بسيطة هادئة(١٧) .

وإذا لم تكن نبوءة هايني قد تحققت بمفهومها الاجتماعي والسياسي والديمقراطي على النحو الذي كان قد ابتغاه فإنها تحققت ، من دون شك ، على الصعيد الفكري .

إن هايني حريص على أن يصوّر للجمهور الفرنسي تاريخ الفلسفة الألمانية تصويراً شعبياً مبسطاً إذ أنه يؤمن أن للفلسفة الشعبية الجماهيرية قوتها المكونة للوعي . ثم إن هذا الضرب من الفلسفة كثيراً ما يكون مصدراً للتأثيرات التاريخية ، وقد يكون ، في بعض الأحيان وسيطاً لمثل هذه التأثيرات .

فالشيء الذي يريده هايني ، إذاً ، هو أن يطلع الفرنسيين على حياة الألمان الفكرية . كما يهمه أيضاً أن يطلع الألمان على ممارسة الفرنسيين للعمل السياسي ممارسة عملية . إنه يؤكد على جبهات الصراع السياسية بين التقدم والرجعية كما تتمثل في تاريخ الفكر الانساني ويتتبع معالمها في مواضع عديدة بوضوح يبعث على الدهشة والاعجاب . وفي اثناء هذا كله يكشف عن الصلات الكامنة المستترة بين

---

(١٧) انظر: «حول تاريخ الدين والفلسفة في ألمانيا» ص ١٤٨

الصراع السياسي والحوار الفلسفي بحيث إننا نلمس تحيّزه للجانب التقدمي ودعوته إلى تحطيم روح النسك ونسف مذهب الفصل بين المادة والروح ونبذ مبدأ احتقار الجسد . كما يرسم على الأفق صورة ديمقراطية «لأرباب متساوين في السمو والعظمة والقداسة والغبطة»(١٨) .

إن هايني الذي ولد عام ١٧٩٧ لأبوين يهوديين في مدينة دوسلدورف بمنطقة الراين قد آمن بالتقدم الانساني وبمبدأ التآخي والتضامن الانساني . ونراه يقوّم المسيحية بناء على معايير سياسية واجتماعية وينظر إلى المسيح على أنه أطهر أبطال الحرية والإله الشعبي المتواضع ذو النزعة الديمقراطية(١٩) .

ومع أن هايني اعتنق المذهب المسيحي البروتستانتي في عام ١٨٢٥ فإن هذا لا يعني أنه تحرر نهائياً من التقليد اليهودي ، بل إن شيئاً ما من جوهر الحياة اليهودية والفكر اليهودي بقي فيه . على أننا نستطيع القول أيضاً إنه تجاوز هذا التقليد وذهب الى ماوراء اليهودية(٢٠) ويذهب أحد الذين ترجموا له إلى أن هايني ، رغم اعتناقه المسيحية ، لم يكن مسيحياً ولا ملحداً ولم يكن مؤمناً ولا كافراً..(٢١) . وهكذا ظل موزعاً بين المسيحية واليهودية ومكتفياً بأن يموت شاعراً لا حاجة له لا إلى الدين ولا إلى الفلسفة .

في سنة ١٨١٩ التحق بجامعة بون لدراسة القانون بعد أن أخفق في الأعمال التجارية والمصرفية التي اوكلها اليه عمه المصرفي سالمون هايني .

وفي بون اتيحت له الفرصة لأن يستمع إلى محاضرات اوغست فيلهلم شليغل ، أحد أقطاب المدرسة الرومانسية ، الذي شجّع هايني على الاستمرار في

---

(١٨) المصدر السابق، ص ٧٦

(١٩) انظر المؤلفات الكاملة، مجلد ٦، «شذرات انجليزية»، ص ١٢٨ ، ١٣٠

(٢٠) انظر: اسحق دويتشر. دراسات في المسألة اليهودية . ترجمة مصطفى الحسيني . دار الحقيقة ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٩

(٢١) انظر: لودفيغ ماركوزي دراسة في حياة هايني وأدبه (مونوغرافيا)، دار نشر روفولت. هامبورغ ١٩٦٠، ص ١٤٥

محاولاته الأدبية وكتابة الشعر . وفي سنة ١٨٢٠ انتقل إلى جامعة غوتنغين . وفي سنة ١٨٢١ انتقل إلى جامعة برلين حيث احتضنه نادي السيدة راحيل فارنهاجين الأدبي ومهدّ له الالتقاء بكبار رجال الأدب والفكر . واستمع أيضاً إلى محاضرات هيجل في الفلسفة .

وفي سنة ١٨٢٤ يعود إلى غوتنغين ويتقدم إلى امتحانات الدكتوراه في القانون بعد سنة واحدة .

وفي سنة ١٨٢٧ ينشر المجموعة الشعرية الأولى بعنوان «سفر الاناشيد» فتحظى باهتمام كبير في الأوساط الأدبية ، بل تحقق له شهرة واسعة إلى جانب كتابه «رحلة إلى جبال الهارتز» الذي نشره سنة ١٨٢٦ . وبدءاً من عام ١٨٣٠ نجد هايني في باريس . وفي سنة ١٨٣٥ يصدر مجلس النواب الألماني مرسوماً يمنع مؤلفات مجموعة من الكتاب الألمان الذين عرفوا باسم «ألمانيا الفتية» وفي مقدمتهم هايني . لكنَّ الحكومة الفرنسية تخصص منحة مالية للشاعر . ويستوطن هايني في باريس ويتعرف على مشاهير المعاصرين من الكتاب والشعراء من مثل دوماس وغوتييه وبلزاك وجورج صاند . وفي المهجر ينشر الشاعر مؤلفاته النثرية والشعرية . ونخصّ بالذكر «المدرسة الرومانسية» (١٨٣١ ـ ١٨٣٢) «وحول تاريخ الدين والفلسفة في ألمانيا» (١٨٣٤) .

وفي سنة ١٨٤٨ نجد الشاعر مريضاً بسل النخاع الشوكي . وينطرح في فراش الموت مشلولاً شبه أعمى مدة ثماني سنوات : «فالموت ليس مصنيبة . لكنّ المصيبة هي العذاب الذي يطول أعواماً قبل أن يظفر المرء بالموت» .

وعلى سرير الموت البطيء يكتب الشاعر آخر قصائده بعنوان «رومانسيرو» (١٨٥١) ، كما يكتب «الاعترافات» أيضاً . أما «مذكراته» التي دوّنها أيضاً في مرحلة المرض العضال فلم تصل إلينا لأن آل هايني الذين كان الشاعر على خلاف معهم بسبب ميراث اتلفوها بعد مماته .

وفي السابع عشر من شباط سنة ١٨٥٦ وافت المنية الشاعر وكانت آخر كلماته : «القرطاس .. والقلم» .

إذا كان هايني قد نظم الشعر في شبابه مثل أي شاعر رومانسي فإنه كان يتمتع بروح مغايرة لروح الرومانسي . إذ أن الرومانسية كانت هرباً إلى عالم الحلم والماضي على حين لم يكن هايني بعيداً من الواقع ، بل كان شديد الصلة بالحاضر .

إننا نقدم هايني لقراء العربية من خلال كتابه «حول تاريخ الدين والفلسفة» الذي كتبه هايني باسلوبه المتميز بروح السخرية والدعابة الشاعرية وبالروح العدوانية الذكية الفكهة بالاضافة الى روح البساطة الشعبية الواضحة المفهومة .

فالمؤلف، كما سنلتقي معه على هذه الصفحات ، مطبوع على الحديث إلى القارىء بطريقة لا غموض فيها ولا تعقيد مع أن هذا الحدث لا يخلو من التلميح والغمز والتعريض . وفي الوقت نفسه يقول له أشياء في غاية من الصعوبة والأهمية بحيث لا يجد القارىء كبير عناء في فهم هذا الصعب وإدراك أهميته .

«كل شيء هادىء هدوء ليلة شتائية تكاثفت ثلوجها . وليس هنـالك إلا تساقط قطرات خفيف رتيب . إنه الفوائد التي تصب على نحو مستمر في رؤوس الأموال التي تتضخم أبداً . ويسمع المرء تماماً كيف تنمو ثروات الأغنياء ويتخلل ذلك انتحاب الفقر . وأحياناً يصلصل شيء ما أشبه بسكين تشحذ» .

هذا هو هايني الشاعر الذي يرى أن الرسالة الكبرى في الحياة هي تحرير الشعوب وأن الشعراء والكتاب ناضلوا من أجل ذلك وتحملوا شتى ألوان الضيم والعذاب سواء في الوطن أو المهجر . إننا لن نجافي الصواب إذا ما عددنا هايني اعظم الوسطاء بين الحضارة الألمانية والحضارة الفرنسية . فهو لم يكن وسيطاً لكي يوفق بين شعبين فحسب ، بل ليوفق بين نقيضين يتوقف أحدهما على الآخر . وهذان القطبان المتضادان هما الحياة والروح أو الفكر والحياة .

اللاذقية في ١٩٨٦/٦/١

صلاح حاتم

مقدمة الطبعة الأولى

عليَّ أن ألفت بخاصةٍ نظر القارىء الألماني إلى أن هذه الصفحات كتبت في الأصل للمجلة الفرنسية ريفو دي دوموند[١] ولغاية محددة . فهي ، إذاً ، جزءٌ من نظرة عامة إلى أحداث فكرية ألمانية سبق لي أن قدمت للجمهور الفرنسي بعض أجزائها وظهرت أيضاً باللغة الألمانية في هيئة مقالات بعنوان (حول تاريخ الأدب الحديث في ألمانيا)[٢] .

إن مطالب الطباعة الدورية وعيوباً في اقتصاد الطباعة نفسها ونواقص في وسائل علمية وتصوراً فرنسياً وقانوناً حول مطبوعات أجنبية[٣] صدر حديثاً في ألمانيا ولم يطبّق إلا عليَّ أنا ، وغير ذلك من الروادع والقيود ، هذا كله لم يتح لي أن أنقل مختلف أجزاء تلك النظرة العامة في تسلسلٍ مرتب ترتيباً زمنياً وبوسيلة عامة شاملة .

على أن هذا الكتاب الحالي ، رغم وحدته الداخلية وشكله الخارجي التام ، ليس إلا شذرةً من كل أعظم .

وإني لأحيي الوطن أصدق تحية .

كتب في باريس في شهر كانون الأول ١٨٣٤

هاينريش هايني

مقدمة الطبعة الثانية

حين غادرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب المطبعة واستلمت نسخة من الطبعة نفسها ذُعرتُ ذعراً كبيراً بسبب التشويهات التي تركت آثارها في كل مكان . ففي بعض الأماكن كانت هناك صفة ناقصة أو جملة اعتراضية وحذفت مواضع بكاملها دونما مراعاة للمقاطع بحيث إنَّ المعنى لم يختفِ وحده فحسب ، بل إنَّ الروح نفسه اختفى في بعض الأحيان . أو قلْ إنَّ مخافة القيصر[٤] هي التي قادت اليد في أثناء هذه التشويهات أكثر مما قادتها مخافة الله على حين حذفت في شيء من القلق والتخوّف ماهو محرجٌ سياسياً وأبقت هي نفسها على ماهو في غاية من الريبة والخطر وما له علاقته بالدين . وبهذا ضاع اتجاه هذا الكتاب الذي كان اتجاهاً ديمقراطياً وطنياً وظهر أمامي روحٌ غريب كلّ الغرابة ذكّرني بالمماحكات اللاهوتية المدرسية الأمر الذي تعافه طبيعتي الانسانية المتسامحة لمناقضته إياها مناقضةً عميقة .

وفي بادىء الأمر منّيت نفسي بأنَّ ثغرات هذا الكتاب يمكن أن تسدَّ في الطبعة الثانية . على أن أيَّ إصلاح من هذا القبيل هو محالٌ الآن ذلك لأنَّ المخطوط الأصلي[٥] قد ضاع في بيت الناشر في أثناء الحريق الكبير بمدينة هامبورغ . كما أن ذاكرتي ضعيفة جداً بحيث استطيع أن استعين بها . وفضلاً عن ذلك فإن

بصري ، كما هو عليه الآن ، لا يسمح لي بمراجعة دقيقة للكتاب ، فأكتفي بأن اعتمد النسخة الفرنسية وأعيد ترجمة بعض المواضع الكبيرة المحذوفة وادخلها من جديد .

وأحد هذه المواضع التي طبعتها صحف فرنسية كثيرة وناقشتها كما ناقشها الكونت موليه(٦) ، أحد أعظم رجالات الدولة الفرنسيين في مجلس النواب الفرنسي في العام الماضي ، هو ذلك الموضوع الموجود في آخر هذه الطبعة الجديدة . ولعله يشير إلى حقيقة تصغير ألمانيا والحط من شأنها حيث إني ، وكما أكد لي ناسٌ شرفاء ، اقترفت ذنباً بذلك أمام البلد الأجنبي .

فإذا كنت عبّرت في حالة السخط والاستياء عن ألمانيا الرسمية القديمة ، أرضِ محدودي الأفق المتعفنة التي لم تنجب واحداً مثل جوليات ولم تنجب رجلاً واحداً عظيماً ، فقد صار في مقدور المرء أن يصوّر ماقلت تصويراً دقيقاً لكأنما ألمانيا الحقيقية هي محور الحديث ، ألمانيا العظيمة الغامضة ، وبمعنى أوسع ، ألمانيا بلد الألمان المجهولة الاسم ، بلد العاهل النائم الذي يلعب بصولجانه وتاجه قرودٌ طوال الذيول(٧) .

إن مثل هذا الغمز أو التعريض قد سهل على الناس الشرفاء المخلصين بأن كل إعلان عن موقفي الحقيقي ورأيي كان أمراً مستحيلاً لي خلال مدة طويلة ، ولاسيما حين ظهرت مراسيم(٨) مجلس النواب ضد «ألمانيا الفتية» ، وهي مراسيم كانت موجهة في الأساس ضدي أنا ووضعتني في موقف نادرٍ في حتميته وإحكامه ولم يسبق له مثيل في سجلات تاريخ عبودية الصحافة .

ولمّا تمكنت فيما بعد من أن أرفع الكمامة بعض الشيء بقيت الأفكار ، مع ذلك ، مقيدة مكبلة .

فهذا الكتاب الذي بين أيديكم هو شذرة ويجب أن يبقى شذرة . وبصدق وصراحة فإني أود لو أن هذا الكتاب لم يطبع . إذ أن آرائي في بعض الأشياء ولاسيما في الأمور الإلهية قد تبدلت تبدلاً خطيراً منذ صدور هذا الكتاب ، وبعض الأشياء التي ادعيتها تناقض الآن أفضل ماعندي من عقيدة واقتناع . على أن

السهم لم يعد يخص الرامي حالما ينطلق من وتر القوس ، والكلمة لم تعد تخص المتكلم حالما تنبثق من بين شفتيه وتنسخ في المطبعة .

وفضلاً عن ذلك سيعترض سبيلي بعض اصحاب النفوذ الأجانب باحتجاج مقنع لو أني تركت هذا الكتاب من دون طباعة ولم أدخله في عداد مؤلفاتي الكاملة . ومثلما يفعل بعض الكتاب في مثل تلك الأحوال ربما استطعت أن ألجأ إلى تخفيف التعابير وتلطيفها وإلى الاخفاء بواسطة العبارات . على أني اكره في اعماق نفسي التعابير الغامضة التي تحتمل اكثر من معنى وأكره الزهور المنافقة وأوراق التين الجبانة .

ولكن بالنسبة لرجل أمين مستقيم ، ومهما كانت الأسباب ، يبقى له الحق الثابت بأن يقر ويعترف بخطأه بصراحة . ولسوف أقوم هنا بذلك دون حياء أو خجل . وأعترف بصراحة صريحة بأن كل ماله علاقة في هذا الكتاب بمسألة الاله هو خطأ وطيش في آن واحد . كما أنه خطأ وطيش هو الزعم الذي زعمته المدرسة[٩] وردّدته أنا وهو أن مذهب التأليه[١٠] قد انهار نظرياً ولم يعد يحيا إلا في عالم الظواهر حياة ضنكاً .كلّا ، ليس بصحيح أن نقد العقل الذي هدم الادلة على وجود الاله كما عرفناها منذ انسيلم فون كانتربري[١١] قد وضع أيضاً نهاية لوجود الإله . فمذهب التأليه يعيش ويحيا حياةً أكثر نشاطاً وحيوية ، فهو لم يمت ، وأقل ما يمكن فقد أماتته الفلسفة الألمانية الحديثة . فهذا الجدل البرليني[١٢] الذي هو أشبه بشباك العنكبوت لا يستطيع أن يجذب كلباً من فوهة الفرن ولا يستطيع أن يقتل قطة فكيف بإله . ولقد جرّبت هذا بنفسي وخبرت أن ما يقوم به هذا الجدل من قتلٍ ليس على جانب كبير من الخطر . فهو يقتل أبداً ويبقى الناس في أثناء ذلك أحياء . إن روجي[١٣] المتجهم العبوس ، بوّاب المدرسة الهيجلية ، زعم ذات مرة بصلابة وتأكيد ، أو بالأحرى بتأكيد وعزم وصلابة ، أنه قضى عليَّ ضرباً بعصاه البوابية في «تقاويم مدينة هاله» وفي الوقت نفسه تجوّلت في البوليفار بباريس بنشاط وصحة وعلى نحو اكثر حيوية من ذي قبل .

يالروجي الشجاع المسكين ! فهو نفسه لم يستطع أن يمسك فيما بعد عن أصدق أنواع الضحك لمّا اعترفت له في باريس أنَّ عينيَّ لم تقعا أبداً على الصحف

القاتلة الرهيبة المسماة «تقاويم مدينة هاله» ، كما أن وجنتي المتلئتين المتوردتين وشهيتي الطيبة التي ازدردتُ بها المحار أقنعته بأنني لا أستحق كثيراً إسم جثة . والحق أنني كنت آنذاك صحيح الجسم وبديناً وكنت في أوج سمنتي كما كنت على نحو من الجذل والغرور أشبه بالملك نبوخذ نصر قبل سقوطه المفاجىء .

وا أسفاه ! إذ أنه ، فيما بعد ولبضع سنوات خلت ، ظهر تبدّلٌ جسماني وعقلي . وكثيراً ما تذكرت منذ ذلك الحين تاريخ هذا الملك البابلي الذي خال نفسه إلهاً ؛ لكنّه هوى فجأة من علياء زهوه وخيلائه على نحوٍ يدعو للشفقة وزحف على الأرض كحيوان والتهم العشب[١٤]ـ (ولعلّه كان خسّاً) . هذه الاسطورة الموجودة في سفر دانيال الرائع لا أنصح بقراءتها السيد المحترم روجي فحسب ، بل أيضاً صديقي الأكثر عناداً ماركس والسادة فويرباخ[١٥] وداومر[١٦] وبرونو باور[١٧] وهينجستينبيرغ[١٨] ، هؤلاء الالهة بأنفسهم الناكرين الاله أنصح بأن يقرأوا الاسطورة من أجل الاعتبار الذي يشرح الصدر . وفي الكتاب المقدس أيضاً قصص اكثر جمالاً وغرابة وجديرة بالاعتبار . وعلى سبيل المثال فإننا لنجد في البداية قصة الشجرة المحرمة في الجنة وقصة الحية ، هذه المدرّسة المحاضرة الصغيرة التي حاضرت في فلسفة هيجل كلها قبل مولد هيجل بستة آلاف سنة . وهذه المرأة العالمة التي لا أقدام لها تبين بذكاء ثاقب كيف ينحصر المطلق في هوية[١٩] الوجود والمعرفة وتطابقهما أو كيف يتوصل الاله في الانسان إلى الوعي بذاته . وإن عبارة «إذا أكلتم من شجرة المعرفة صرتم كالاله» ليست واضحة وضوح العبارات الأصلية الأولى . ولم تفهم السيدة حواء من هذا العرض والايضاح كله إلا شيئاً واحداً ليس غير وهو أن الثمر محرّمٌ ، ولما كان محرّماً فقد أكلت منه الإمرأة الصالحة . ولكنها ما إن أكلت من التفاح المغري حتى فقدت براءتها ومباشرتها البسيطة ووجدت أنها على جانب كبير من العري بالنسبة لشخص من طبقتها ، وهي الأم الأولى لكثيرين ممن سيصبحون فيما بعد قياصرة وملوكاً . وطلبت ثوباً . وطبيعي أنه لم يكن إلا ثوباً من أوراق التين ، ليس غير ، لأنه لم يكن آنذاك قد ولد بعد اصحاب مصانع الحرير بمدينة ليون ولأنه لم يكن يوجد بعد في الجنة صانعات القبّعات ولا تاجرات الأزياء .. أيتها الجنة ! الغريب أن أول

ما فكّرت هذه المرأة لحظة وعيها بذاتها المفكرة فكرتْ بثوب جديد . فهذه القصة من الكتاب المقدس ، وعلى الأخص حديث الحية ، لا تبرح ذهني وأود أن أضعها شعاراً لهذا الكتاب على نحو ما يرى المرء من لافتات أمام حدائق الأمراء تحمل التحذير التالي : «هنا تكون الشرك والفخاخ» .

وسبق أن تكلمت في أحدث ما ألفت من كتب ، أي في ديوان القصائد «رومانسيرو»[٢٠] ، على التحوّل الذي طرأ على تفكيري وما له علاقته بالقضايا الالهية .

ولقد وجّهت إلي منذ ذلك الحين استفسارات كثيرة تلح عليَّ بإلحاح مسيحي لمعرفة الطريق الذي استنرت عليه أفضل استنارة . ويبدو أن نفوساً صالحة تصبو إلى أن أكذب عليها بأن معجزة حدثت ، وتود هذه النفوس أن تعرف ما إذا كنت قد أبصرت كما أبصر شاول[٢١] نوراً وهو في طريقه الى دمشق أو إذا كنت ركبت كما ركب بلعام بن بور حمارة حروناً فتحت فاها على حين غرة وراحت تتكلم[٢٢] كما يتكلم إنسان .

كلا ، أيتها النفوس الصالحة ، إنني لم أسافر قط إلى دمشق ولا أعرف شيئاً البتة عن دمشق ، وكل ما أعرفه عن دمشق هو أن يهود تلك البلد[٢٣] قد اتهموا منذ زمن غير بعيد بأنهم أكلوا رهباناً كبوشيين شيوخاً ؛ كما أنني أكاد أجهل اسم هذه المدينة لو لم أقرأ نشيد الإنشاد الذي يشبّه فيه الملك سليمان أنف حبيبته[٢٤] ببرج يطلّ على دمشق . كما أنني لم أرَ أبداً حماراً من ذوات الأربع تكلم كما يتكلم البشر على حين قابلت الكفاية من البشر الذين إذا فتحوا أفواههم تكلموا كالحمير .

والحق أنه لا توهم ولا غيبوبة ولا نشوة ملائكية ولا صوت من السماء ولا حلم غريب أو شبح عجيب قادني على طريق الخير والفلاح ، وببساطة تامة أدين باستنارتي لقراءة كتاب ـ أهو كتاب ؟ أجل ، إنه كتاب قديم وبسيط ، بسيط بساطة الطبيعة وطبيعي كهذه الطبيعة ؛ إنه كتاب يبدو عملياً ومتواضعاً ، فهو كالشمس التي تدفئنا وكالخبز الذي يغذينا . إنه كتاب يطالعنا بنظرات الانس واللطف والطيبة والبركة ، مثله مثل جدة عجوز تقرأ كل يوم في الكتاب بالشفتين الحلوتين

المرتجفتين وبالنظارة فوق الأنف ؛ ويدعى هذا الكتاب بكل بساطة كتاب الكتب أو كما يسميه الناس بحق الكتاب المقدس . فمن أضاع إلهه استطاع أن يجده مرة أخرى في هذا الكتاب . ومَنْ لم يعرفه أبداً لفحه روح الكلمة الالهية . فاليهود الذين يجيدون التعامل بالنفائس عرفوا جيداً ما فعلوه حين تخلوا في أثناء حريق الهيكل الثاني[٢٥] عن الأواني والأطباق الذهبية والفضية وعن الشمعدانات والمصابيح وتخلوا أيضاً عن صدار كبير الكهنة المزركش بالأحجار الكريمة الكبيرة ولم ينقذوا سوى الكتاب المقدس الذي كان الكنز الحقيقي للهيكل . وبحمد الله فإن النيران لم تلتهمه ولم يصبح نهباً للوغد الزنيم تيطوس فيسباسيانوس الذي انتهى نهاية سيئة للغاية على نحو ما يروي الأحبار .

ثم إن كاهناً يهودياً يدعى يوشوا بين سيراز بن إليازر عاش بالقدس قبل مائتي عام من حدوث حريق الهيكل الثاني وفي أثناء الفترة الذهبية من حكم بطليموس فيلاديلفوس[٢٦]؛ وقد عبَّر هذا الكاهن عن فكرة عصره بخصوص الكتاب المقدس في «ميثاليم» ، مجموعة حكم وأقوال مأثورة[٢٧] . وسأسوق هنا كلماته الجميلة . فهي رهيبة رهبة الكهنوت ولكنها في الوقت نفسه منعشةٌ إلى حد الإمتاع والراحة ، لكأنها انبثقت أمس من صدر انساني حي وهي : «هذا كله هو في الحقيقة كتاب الاتحاد المعقود مع الاله الأعظم ، أي الشريعة التي سنها موسى على آل يعقوب لتكون الكنز . ومنها تنساب الحكمة انسياب ماء بيسون حين يكون عظيماً وكانسياب ماء دجلة حين ينتقل إلى ربيع الماء والأمطار . وينساب منها العقل انسياب الفرات حين يكون عظيماً وكانسياب الأردن في وقت الحصاد . ومن الشريعة نفسها ينبثق الأدب والتربية كالنور وكما النيل في الخريف . فما كان أبداً مَنْ أنهى بها مرحلة التعلم ولن يكون أبداً مَنْ أراد سبر غورها . إذ أن معناها أغنى ، فهي ليست ببحر ، وكلمتها أعمق إذ لا قرار لها» .

كتبت بباريس في أيار ١٨٥٢

هاينريش هايني

السفر الأول

ظن الفرنسيون في الآونة الأخيرة أنهم توصلوا إلى فهم المانيا[1] حين تعرفوا على آثار أدبنا . على أنهم انتقلوا بذلك من حالة الجهل الكامل إلى السطحية ، ليس غير . ذلك لأن آثار أدبنا لا تبقى في نظرهم إلا وروداً صماء ، وتبقى الفكرة الألمانية كلها في نظرهم لغزاً فارغاً عقيماً مادام الفرنسيون لا يعرفون معنى الدين والفلسفة في المانيا .

وعلى حين أحاول أن أقدم بعض المعلومات التي توضح كل من الدين والفلسفة أظن أنني أقوم بعمل ذي نفع . ثم إن هذا ليس بمهمة سهلة عليَّ . وبادىء ذي بدء ينبغي تفادي تعابير لغة مدرسية[2] يجهلها الفرنسيون جهلاً تاماً . على أني لم أسبر دقائق اللاهوت ولا دقائق علم مابعد الطبيعة[3] سبراً عميقاً بحيث استطيع أن أصوغ مثل هذه الأشياء على نحو سهل ومقتضب يلائم حاجات الجمهور الفرنسي ويلبيها . وعلى هذا فلن أتناول إلا المسائل الكبيرة التي تطرقت إليها الفلسفة واللاهوت في ألمانيا ، ولن أوضح إلا أهميتها الاجتماعية وسأراعي باستمرار محدودية وسائل الايضاح الخاصة بي كما سأراعي قدرة القارىء الفرنسي على الفهم والادراك .

وإذا صادف أن اطّلع فلاسفة المان كبار على هذه الأوراق فسيهزون اكتافهم في كبرياء مصطنعة استخفافاً بالشكل المتواضع لكل ما أقدمه هنا . ولكن ليعتبر

هؤلاء ، إن شاؤوا ذلك ، بأن الشيء القليل الذي أقوله هنا عبّرت عنه بوضوح وجلاء ، أما مؤلفاتهم فهي شاملة شمولاً محكماً لا حدود له وعميقة جداً إلى حد الدهشة ، لكنها ، مع ذلك ، غامضة أيضاً . فما نفع مخازن القمح الموصدة لشعب لا يملك المفاتيح إليها ؟ فالشعب توّاقٌ إلى المعرفة ، وإنه ليشكرني على هذه الكسرة من الخبز الروحي التي اتقاسمها معه في صدق واخلاص .

.وأعتقد أن الشيء الذي يحول بين معظم العلماء الألمان وبين التعبير عن الدين والفلسفة تعبيراً شعبياً جماهيرياً لا يعزى إلى انعدام الموهبة ، بل إن هذا ليعزى إلى التهيب من نتائج تفكيرهم التي لا يجرؤون على إعلام الشعب بها . أمّا أنا فليس لديَّ هذا التهيب ، إذ أنني لست عالماً ، أنا نفسي شعب . لست عالماً ولا أنتمي إلى حكماء ألمانيا السبعمائة . إنني أقف مع عامة الشعب أمام بوابات حكمتهم . وإذا ما تسللت حقيقة ما ووصلت إليَّ فإنها تكون قد ابتعدت عندئذ بما يكفيها : ـ سأكتبها بحروف جميلة وأدفع بها إلى صفّاف الحروف لينضد الحروف المطبعية ، ومن ثم يدفع بها إلى الطبّاع ، فيطبعها هذا وتصبح بعد ذلك ملكاً للعالم كله .

إن الدين الذي نعتنقه في ألمانيا هو المسيحية . وسيكون عليَّ ، إذاً ، أن أتحدث عن ماهيـة المسيحية وكيف استحالت إلى كاثوليكية رومانية وكيف انبثقت البروتستانتية عن الكاثوليكية ثم كيف انبثقت الفلسفة الألمانية عن البروتستانتية .

وعلى حين أبدا الحديث عن الدين فإني أرجو سلفاً كل الاتقياء الورعين ألا يقلقوا أبداً . فلا تخافي شيئاً أيتها النفوس التقية الورعة . فلن تخدش مسامعك أية دعابات مدنسة قذرة . وعلى أية حال فإن هذه الدعابات لا تزال مفيدة في ألمانيا حيث ينبغي إبطال سلطة الدين حالياً وجعلها محايدة . إذ أننا نجد أنفسنا هنا في نفس الموقف الذي كنتم أنتم فيه قبل الثورة لمّا كانت المسيحية تحالف نظام الحكم القديم على نحو وثيق . ولم يكن في الإمكان القضاء على نظام الحكم هذا في الوقت الذي كانت المسيحية لاتزال تمارس فيه تأثيرها في الجماهير . وكان على فولتير(٤) أن يضجّ بالضحك اللاذع قبل أن يتمكن سانزون(٥) من إسقاط فأسه . على أنه لم يتم البرهان على أي شيء لا من خلال تلك الفأس ولا من خلال ذلك الضحك ، بل

أحدث هذا شيئاً ما ، ليس غير . إن فولتير لم يستطع أن يجرح إلا جسد المسيحية . فكل دعاباته التي استمدها من تاريخ الكنيسة وكل نكاته عن علم العقيدة والعبادة وعن الكتاب المقدس الذي هو أقدس كتب الانسانية وعن مريم العذراء التي هي أجمل ورود الشعر ومعجم السهام الفلسفية[6] التي اطلقها على القساوسة والرهبان ، هذا كله لم يجرح إلا جسد المسيحية الفاني ولم يمس جوهرها أو عقلها الباطني أو روحها الأزلية . إذ أنَّ المسيحية فكرة . ولمّا كانت فكرة فلا يمكن تحطيمها أو افناؤها مثلها مثل أية فكرة . ولكن ماهي هذه الفكرة ؟

ولما أن المرء لم يفهم بعد هذه الفكرة فهماً واضحاً ويخال الأشياء الظاهرية شيئاً أساسياً فليس هنالك بعدُ تاريخ للمسيحية . وإنَّ فريقين متضادين يكتبان تاريخ الكنيسة، ويناقضان بعضهما على نحو دائم . على أن أحدهما لن يعبر بالتأكيد في أي وقت كان إلا بقدر ما يعبر الفريق الآخر عما تعني تلك الفكرة التي هي للمسيحية مركز وتسعى لأن تتجلى في رموز المسيحية وفي معتقداتها وعباداتها وتاريخها كله وفي حياة الشعوب المسيحية وواقعها !

فلا بارونيوس[7] الكاردينال الكاثوليكي ولا المستشار البروتستانتي شروك[8] يكشفان لنا عمّا تعني تلك الفكرة . وإذا ما تصفحتم كل الكتب الضخمة التي تشتمل عليها مجموعة مانسي الكنسية[9] وكل مجموعات الطقوس الدينية التي جمعها آسيماني[10] وكل التاريخ الكنسي لمؤلفه ساكاراللي[11] فلن يتبين لكم ، مع هذا ، ماذا كانت تعني في الحقيقة فكرة المسيحية .

فما الشيء الذي ترونه ، إذاً ، في تواريخ الكنائس الشرقية والغربية ؟ لا يوجد في تاريخ الكنيسة الشرقية إلا مماحكات عقائدية يتجلى فيها من جديد مذهب السفسطة اليوناني القديم[12] . أما في تاريخ الكنيسة الغربية فلا تجدون إلا منازعات وخصومات عنيفة تتعلق بالنظام والمصالح الكنسية على حين يؤكد نفسه كل من مبدأ القضايا الفردية القانونية[13] وفن الحكم عند الرومان بصيغ جديدة ووسائل إكراه وعسف جديدة . والحق أنَّ الجدل في القسطنطينية حول الكلمة (اللوجوس) مثله مثل الجدل في روما حول علاقة السلطة العلمانية بالسلطة

الدينية . وكما أنّ الناس تنازعوا في القسطنطينية حول فكرة الجوهر الواحد لكل من الاله والمسيح فإنهم تنازعوا أيضاً في روما حول تنصيب رجال الدين . أما الأسئلة البيزنطية عما إذا كان الكلمة (اللوجوس)[١٤] أي المسيح مشابه في جوهره للاله الأب وعما إذا كان ينبغي أن تدعى مريم والدة الاله أم والدة الانسان وعما إذا كان على المسيح أن يصوم ويجوع بسبب نقص في الطعام أو لأنه أراد أن يصوم ، ليس غير ، هذه الأسئلة كلّها لا تخفي وراءها إلا مكائد ودسائس قصر يتوقف حلها على ما يتهامس به الناس في مقصورات القصر المقدس ، كأنْ يتهامسون عما إذا كانت أويدوقسيا ستسقط أم بولخيريا ذلك لأن بولخيريا تكره نيسطوريوس الذي أفشى سر مشاجراتها الغرامية على حين تكره الأخرى ، أي اويدوقسيا ، كوريلوس الذي تسانده بولخيريا ، وهذا كله له علاقته في النهاية بهذر النساء والخصيان ، وفي الواقع يتم اضطهاد الرجل في العقيدة أو تتم مساندته أو يضطهد في الرجل حزبٌ أو يساند ويشجع . وكذلك هي الحال في الغرب . فلقد ارادت روما أن تسيطر وتسود ، «وحين سقطت كتائبها بعثت بالعقائد إلى الأقاليم»[١٥] فالشقاقات المذهبية كلها كانت السبب في اغتصابات العرش الرومانية ، لقد كان عليها أن تدعم سلطة الاسقف الروماني العليا . وكان هذا دائماً متسامحاً جداً في نقاط مذهبية صحيحة ، ولكنه كان ينفث ناراً ولهباً حين كانت تمس حقوق الكنيسة . فهو لم يجادل كثيراً في الاشخاص في المسيح وانما جادل في نتائج قرارات ومراسيم ازيدور[١٦] . وجمع السلطة في يده بواسطة حق قانوني كنسي ومن طريق تنصيب الاساقفة وتحقير سلطة الأمراء ومن طريق جمعيات رهبان دينية وبالتبتل وغير ذلك .
ولكنْ هل كان هذا كله المسيحية ؟ هل تتجلى لنا فكرة المسيحية من قراءة هذه القصص ؟ فما هي هذه الفكرة ؟ إن الكيفية التي تشكلت بها هذه الفكرة تاريخياً وتجلت في عالم الظواهر يمكن إيجادها في القرون الأولى بعد ميلاد المسيح ، ولاسيما إذا بحثنا في تاريخ المانويين والغنوصيين[١٧] من دون تحيز أو تغرض . ومع أن المانويين زنادقة ملحدون وأن الغنوصيين سيئو السمعة وأن الكنيسة لعنتهم فقد بقي تأثيرهم في العقيدة ، ونشأ الفن الكاثوليكي من عالم رموزهم وتخلل تفكيرهم حياة الشعوب المسيحية .

ووفقاً لآخر دوافعهم وأعمقها فإن المانويين لا يختلفون كثيراً من الغنوصيين . فتعاليم المبدأين كليهما ، مبدأ الخير ومبدأ الشر اللذين يتصارعان هي من خواص المانوية والغنوصية . فالمانويون أخذوا هذه التعاليم عن الدين الفارسي القديم حيث كان النور (اورموند) ضداً للظلمة (أهريمان) . أما الآخرون ، أي الغنوصيون الحقيقيون، فقد اعتقدوا بالوجود القبلي لمبدأ الخير(١٨) وفسروا نشوء مبدأ الشر من خلال الفيض وتعاقب الدهور ، وبقدر ما تبتعد هذه الدهور عن منشئها وصانعها تسوء على نحو شديد القتامة .

وفي رأي كيرينتوس لم يكن خالق عالمنا الاله الأعظم أبداً ، وإنما فيض الاله الأعظم ، فيض دهر من الدهر ، ليس غير ، أي الصانع الحقيقي الذي يخرج عن أصله وطبعه شيئاً فشيئاًويحرضُنفسه تدريجياً ويقف الآن في هيئة مبدأ . الشر من مبدأ الخير أو اللوجوس المنبثق مباشرة عن الاله الأعظم موقف الضد . هذه النظرة الوجودية الغنوصية هي هندية الأصل ولقد حملت معها مذهب تجسّد الاله وإماتة الجسد والاستبطان الروحي وأوجدت حياة الرهبنة الزاهد ، المتأملة التي هي أنقى زهور الفكرة المسيحية . ولم يكن في إمكان هذه الفكرة إلا أن تضطرب اضطراباً شديداً في تعاليم العقيدة والدين وتفصح عن نفسها في العبادات على نحو شديد القتامة . على أننا نرى أنَّ تعاليم المبدأين كليهما تظهر في كل مكان . فالمسيح الخيِّر الطاهر يقف من الشيطان الخبيث الشرير موقف الضد . ويتمثل عالم الروح بالمسيح ، اما عالم المادة فيمثله الشيطان . ثم إنَّ روحنا ملك للمسيح على حين إنَّ جسدنا ملك للشيطان . وعالم الظواهر كله ، أي الطبيعة ، هو في الأصل ، وتبعاً لذلك ، شرير وأنَّ الشيطان ، أمير الظلمة ، سيوقعنا بذلك في التهلكة ، ولابد من الزهد في كل متاع الدنيا وملذاتها ويجب تعذيب جسدنا الذي هو إقطاعة الشيطان وذلك لكي تحلّق الروح عالياً على نحو رائع عظيم في السماء المضيئة ، في مملكة المسيح الساطعة المنيرة .

هذه النظرة الوجودية التي هي الفكرة الجوهرية للمسيحية كانت قد انتشرت على نحو سريع بعيد التصور في ارجاء الامبراطورية الرومانية كلها مثلها مثل مرض مُعْدٍ ، وفي العصور الوسطى كلها استمرت الآلام ، فهي تارة هيجان محموم وتارة

اعياء واسترخاء . ونحن المحدثون لا نزال نحس أبداً بتشنجات ووهن في الأعضاء . وإذا ما شفي أحدنا فإنه لن يستطيع ، مع ذلك ، أن يهرب من جو المستشفى العام وسيشعر بالتعاسة ذلك أنه وحده السليم المعافى بين السقام . وفي يوم من الأيام وحين تستعيد الانسانية كامل صحتها وحين يعود السلام بين الجسد والروح ويسود الوفاق والانسجام بينهما ، عندها لن يتمكن المرء من فهم النزاع المصطنع الذي أثارته المسيحية بين الروح والجسد . وإنَّ الأجيال الأكثر سعادة وجمالاً والتي انجبها العناق الاختياري الحر وتزدهر وترقى في دين المسرّة والفرح لسوف تبتسم بكآبة من أسلافهم المساكين الذين أمسكوا عن متع هذه الدنيا الجميلة وملاذّها في اكتئاب واضمحلوا تقريباً إلى أشباح باردة وذلك بإماتة الحسية الدافئة الملونة !

أجل ، إني سأقول مؤكداً بأنَّ ذريتنا ستكون أسعد وأجمل منا ، إذ أنني أؤمن بالتقدم واعتقد أنه مقدّر على الانسانية أن تكون سعيدة ، ولديَّ ، إذاً ، رأيٌ في الاله أعظمُ مما هو لدى اولئك الناس الأتقياء الذين يظنون بأن الله لم يخلق الانسان إلا للألم والمعاناة ، وهنا وعلى هذه الأرض أود أن أؤسس هذه السعادة(١٩) ببركة منشآت صناعية سياسية حرة ، تلك السعادة التي يذهب الأتقياء الورعون إلى أنها لن تكون إلا في السماء ، يوم القيامة . ولعل هذا وذاك أملٌ سخيف أخرق ، ولن يكون هنالك أي بعث للانسانية ، لا في المفهوم الأخلاقي السياسي ولا بالمفهوم الكاثوليكي الرسولي .

ولربما كُتب الشقاء الأزلي على الانسانية ، ولعل الشعوب ملعونة إلى الأبد يسحقها الطغاة ويستغلها شركاء الطغاة في الجريمة ويستهين بها التابعون المتذللون .

والحق انه ان كان على المرء أن يسعى في هذه الحال لأن يحافظ على المسيحية حتى لو أدرك أنها خطأ وكان عليه أن يسير في ارجاء أوربا حافي القدمين وفي مِسْح الرهبان ويبشر بفناء حطام الدنيا كله ويدعو إلى الزهد ويرفع الصليب المواسي أمام الناس المهانين المعذبين واعداً اياهم بعد الموت ، هناك فوق ، بالسبع سماوات .

وربما لأن عظماء هذه الأرض متأكدون من سلطتهم العليا ولأنهم عقدوا العزم على أن يسيئوا استعمالها أبداً لسوء حظنا وتعاستنا فإنهم مقتنعون بضرورة المسيحية لشعوبهم . وإنه في الحقيقة لشعور انساني رقيق أنهم يبذلون قصارى جهودهم للحفاظ على هذا الدين ! إن المصير النهائي للمسيحية وقف ، إذاً ، على ما إذا كنا نحن لا نزال بحاجة إلى المسيحية . وهذا الدين كان نعمة وبركة للانسانية المعذبة خلال ثمانية عشر قرناً . فلقد كان مقرراً من لدن العناية الالهية وكان إلهياً ومقدساً . ولئن كان أفاد المدينة والحضارة بأنه روض الأقوياء وقوّى الودعاء وربط الشعوب باحساس واحد ولغة واحدة وغير ذلك مما لا يزال حماته والذوادون عنه يعتزون به ويفخرون فإن هذا كله لا يزال تافه الشأن بالقياس إلى ذلك العزاء الكبير الذي يمنحونه للانسان من لدنهم انفسهم . والمجد الأزلي الخالد لرمز ذلك الاله الذي يعاني ويتعذب ، لمنقذ العباد صاحب اكليل الشوك ، المجد الخالد للمسيح المصلوب الذي كان دمه أقرب ما يكون إلى البلسم الشافي الذي انساب في جراح الانسانية . فالشاعر ، على وجه الخصوص ، سيعترف بعظمة هذا الرمز المخيفة بكل تهيّب ورهبة . وإنّ نظام الرموز التي تظهر في فن العصور الوسطى وحياتها ستثير على مر الأزمان اعجاب الشعراء . وبالفعل ، فيا للنتيجة الهائلة في الفن المسيحي ، لاسيما الفن المعماري ! ويا لهذه الكنائس الغوطية وهي تنتصب في وفاق وانسجام مع العبادات وتتجلى فيها فكرة الكنيسة نفسها ! كل شيء يشمخ هنا عالياً ويتحول بذاته : فالحجر يتفرع إلى أغصان وأوراق ويستحيل إلى شجرة . وحبة العنب والسنبلة تستحيل إلى دم ولحم . ويستحيل الانسان إلى روح خالص . فالحياة المسيحية في العصور الوسطى هي في نظر الشعراء عادةٌ غنيةٌ مثمرة نفيسة لا تنضب نفاستها . بواسطة المسيحية وحدها كان في الامكان أن تنشأ أحوال انطوت على تناقضات في غاية من الجرأة وانطوت على آلام في غاية من التنوع وعلى جمال في غاية من الوهم والخيال بحيث إنَّ المرء مضطر إلى القول إنَّ مثل هذا لا وجود له في لواقع وإن هذا كله هذيان حمّي هائل ، والطبيعة نفسها بدت آنذاك مقنّعة بالوهم والخيال . وفي اثناء ذلك ومع أنَّ الانسان الذي هو أسير التأملات المجردة قد انصرف عنها بَرِماً فإنها كانت توقظه في بعض الأحيان بصوت

حلو رقيق فيه من الحلاوة ما يخيف ومن الرقة ما يرعب ، صوت فيه قوة سحرية كبيرة بحيث إنَّ الانسان أصاخ السمع بلا شعور وابتسم وارتاع ومرض مرضاً شديداً شارف فيه على الموت . وهنا ، وفي هذا الصدد ، تحضرني قصة عندليب مدينة بازل[٣٠] . ولما كنتم لا تعرفونها فإني سأرويها لكم . في أيار سنة ١٤٣٣ وفي عهد المجمع الكنسي[٣١] قامت مجموعة من رجال الدين بنزهة إلى إحدى الغابات التابعة لمدينة بازل وقد اشتملت هذه المجموعة على اساقفة ودكاترة ورهبان من كل الأصناف والألوان وتناقشوا في موضوع الخلافات اللاهوتية وميزوا وتحاجوا أو اختلفوا في الضريبة التي يسددها رجل الدين الكاثوليكي للبابا لقاء منحه منصباً واختلفوا في الترشيحات والتحفظات أو أنهم تناقشوا فيما إذا كان توماس الاكويني[٣٢] فيلسوفاً أعظم من بونافينتورا[٣٣] وغير ذلك من الأمور التي لا بداية لها ولا نهاية . ولكنهم فجأة وبينما هم في وسط نقاشهم العقائدي المجرد أمسكوا عن الكلام وجمدوا في أماكنهم أمام شجرة زيزفون مزهرة حطَّ عليها عندليب ترنّم بأرق الألحان وأعذبها . وفي أثناء ذلك شعر السادة العلماء بالروعة ، فقد نفذت أنغام الربيع الدافئة إلى أعماق قلوبهم التي ضاقت بالتحفظات المدرسية واستيقظت أحاسيسهم من نوم شتائي عميق . وتبادلوا النظر في بهجة ودهشة . وأخيراً أبدى أحدهم ملاحظة ذكية وهي أنَّ في مثل هذا شيئاً غريباً وأنَّ هذا العندليب قد يكون شيطاناً وأن هذا الشيطان أراد أن يصرفهم عن أحاديثهم الدينية بأنغامه العذبة النقية ويغريهم باللذة والآثام الحلوة الأخرى فراح يعزّم بالصيغة المألوفة آنذاك : إني لأعوذ منك بالذي سوف يأتي ليحق الحق بين الأحياء والأموات .. الخ .. الخ . ويقال إنَّ الطائر أجاب في أثناء هذه التعويذة : «أجل، إني روح شريرة» ثم طار ضاحكاً . وقيل إنَّ الآخرين الذين سمعوا صداحه مرضوا في نفس اليوم وما لبثوا أن ماتوا إثر ذلك .

هذه القصة لا تحتاج الى تعليق . إنها تحمل الطابع المرعب لعصر وسم كل شيء حلو وجميل بالشيطانية . حتى إن العندليب شوهت سمعته ، وكان المرء يصلّب كلما غنى . فالمسيحي الحقيقي كان يتجوّل في أرجاء الطبيعة المزهرة بحواس مغلقة من الخوف مثله مثل شبح مجرد . وقد أعالج علاقة المسيحي هذه

بالطبيعة في فصل آخر معالجةً مستفيضة حين أكون مضطراً إلى البحث مفصّلاً في الايمان الشعبي الالماني من أجل فهم الأدب الرومانسي الجديد .

ولا يسعني في الوقت الحاضر إلا أن أقول إنَّ كتاباً فرنسيين ضلّلتهم سلطات ألمانية ليعمهون في ضلال كبير حين يظنون بأن الايمان الشعبي كان في أثناء العصور الوسطى على شاكلة واحدة في سائر انحاء أوروبا . على أن الناس لم يجمعوا على رأي واحد إلا في مسألة مبدأ الخير ، أي مملكة المسيح ، ليس غير . وعلى ذلك قامت الكنيسة الرومانية . فمن انحرف هنا عن الرأي المفروض كان هرطقياً ملحداً . أما بخصوص مبدأ الشر ، أي مملكة الشيطان . فقد سادت آراء مختلفة في مختلف البلدان . وكان للناس في الشمال الجرماني تصوراتهم عن مثل هذه الأمور ؛ لكنها كانت تصورات تتمايز كل التمايز من تصورات أهل الجنوب الروماني . ولقد نشأ هذا عن أن رجال الدين لم يرفضوا الالهة القدامى الموجودين بصفتهم اضغاث احلام فارغة ، بل إنهم منحوهم وجوداً حقيقياً ؛ لكنهم زعموا في أثناء ذلك أن هؤلاء الآلهة ليسوا إلا شياطين وشيطانات فقدوا سلطانهم على الناس بانتصار المسيح عليهم ويريدون الآن أن يغووا البشر إلى الإثم باللذة والحيلة . فالاولمب كله استحال الآن إلى جحيم ضبابي غائم . وإذا ما تغنى أحد شعراء العصور الوسطى بتاريخ الالهة اليونان على نحو جميل فإنَّ المسيحي الورع لم ير في ذلك إلا شبحاً أو شيطاناً . فوهم الرهبان القاتم اصاب فينوس المسكينة أشد إصابة . وفينوس هذه ، بصورة خاصة ، اعتبرت ابنة للشيطان ؛ حتى إنَّ الفارس الهمام طانهيوزر خاطبها قائلاً :

أي، فينوس ، ياحسنائي الجميلة
أنت شيطانة ![٢٤]

وكانت فينوس قد أغرته في ذلك الكهف العجيب الذي سمي جبل فينوس . ومن هناك نشأت الاسطورة القائلة إن الإلهة الجميلة عاشت هناك مع فتياتها وقرنائهن حياة خليعة بين اللهو والرقص . حتى إن ديانا المسكينة ، رغم عفتها

وطهارتها ، لم تسلم من المصير نفسه ؛ فما كان من المرء إلا أن جعلها تجتاز الغابات ليلاً مع حورياتها .

ومن هنا جاءت اسطورة الجيش الغضبان وحيد الضواري .

وهنا تظهر تماماً وجهة النظر الغنوصية بأن ماهو إلهي يزداد سوءاً . وفي هذا التبديل للايمان الشعبي القديم(٢٥) تتجلى فكرة المسيحية على نحو شديد العمق . فالايمان الشعبي في أوربا ، في الشمال وفي الجنوب بخاصة ، كان يقول بوحدة الوجود . فأسراره ورموزه كانت تعود إلى خدمة الطبيعة . وفي كل عنصر كان المرء يقدس كائنات غريبة عجيبة . وفي كل شجرة كانت تتنفس الالوهية . وعالم الظواهر كله كانت تتخلله الروح الالهية . وقلبت المسيحية هذه النظرة . واستبدلت الطبيعة التي يتخللها روح الاله بالطبيعة التي يتخللها روح الشيطان . فصور الاسطورة اليونانية المشرقة التي اضفى عليها الفن جمالاً وسادت في الجنوب في حضارة الرومان لم يستطع المرء أن يحوّلها في سهولة ويسر إلى أقنعة شيطانية قبيحة مخيفة مثل شخوص الالهة الجرمانية حيث إنه لم يتشكل على غرارها أي ذوق فني متميز على حين كانت فيما مضى على غاية من الاستياء والقتامة كما هي الحال في الشمال نفسه . وعلى هذا لم يكن في الامكان أن يتكون لديكم في فرنسا مفهوم شيطنة مرعب ومخيف كما تكون لدينا ، حتى إنَّ المخلوقات السحرية والأشباح نفسها اتخذت لديكم شكلاً خفيفاً مرحاً . فكم هي جميلة وواضحة وغنية بالألوان اساطيركم الشعبية بالقياس إلى اساطيرنا التي هي مخلوقات مشوّهة مكونة من لحم وضباب تكشر فينا تكشيراً شديد القتامة والقسوة .

ولقد أضفى شعراؤنا في العصور الوسطى على أعمالهم أقصى ما استطاعوا ، وربما عن عمد ، من ذلك الروح الفرنسي القديم المتسم بالصفاء والبشاشة(٢٦) ، وذلك في اثناء اختيارهم في أغلب الأحيان لمواد كنتم أنتم في بريتانيا وفي النورماندي تخيلتموها أو عالجتموها في بادىء الأمر . أما في آدابنا القومية وفي أساطيرنا الشعبية الشفوية فقد بقي ذلك الروح الشمالي القاتم الذي لا تعرفون عنه أي شيء . ولديكم كما لدينا نحن أنواعُ منوّعة من الأرواح العنصرية(٢٧) ؛ على أن الأرواح لديكم تتمايز من الأرواح لدينا أشدّ التمايز كما

يتمايز ألماني من فرنسي . فالجن في اشعاركم القصصية المسلية وفي روايات السحر تتسم بالألوان الصافية وهي وضيئة بصورة خاصة إذا ما قيست بما عندنا من الأرواح الغوغاء القاتمة التي كثيراً ما تكون جدّ فاحشة وبذيئة .

وإن جنياتكم وأرواحكم العنصرية سواء أأتيتم بها من كورن ويلز أم من بلاد العرب[٢٨] هي ، مع هذا ، تأقلمت كل التأقلم . وإن روحاً فرنسياً ليتميز من روح الماني كما يتميز شخص شديد التأنق يمشي الهوينى بقفازين أصفرين من الجلد المصقول في شارع بوليفار كوبلنز من حمّال الماني بدين . وإن جنياتكم البحرية من مثل ميلوزين ليتمايزن أيضاً من جنياتنا كما تتمايز أميرة من غسّالة . فالحورية مورجانا[٢٩] سوف ترتاع لو قابلت ساحرة ألمانية تمتطي عصا مكنسة إلى جبل البروكين وهي عارية مدهونة بالمرهم . وهذا الجبل ليس آفالون ، الجزيرة المشرفة ، وإنما هوملتقى كل ماهو أجرد وقبيح. فعلى قمة الجبل يجلس ابليس في هيئة تيس أسود . فكل ساحرة تقترب منه وتحمل في يدها شمعة تقبّله في الخلف حيث ينتهي الظهر ! وبعدئذ ترقص هذه المجموعة من الأخوات الفاسدات الخليعات من حوله وتغني : «دونديريموس ، يادونديريموس!» ويثغو التيس ويضجّ القوم فرحاً برقص جهنمي متوحش . وإنه لنذير سوء للساحرة حين تفقد نعلها في اثناء الرقص . وهذا يعني أنها ستحرق في العام نفسه . على أن كل الخوف المتوقع يخمد الموسيقا السبتية الصاخبة التي هي صورة خالصة عن موسيقا بيرليوز[٣٠] . وحين تستيقظ الساحرة المسكينة من سكرتها في الصباح فإنها تجد نفسها في الرماد قرب الموقد عارية منهكة القوى .

ويجد المرء أفضل المعلومات عن الساحرات في كتاب «علم الجن والشياطين»[٣١] للعلامة المحترم الدكتور نيكولاي ريميجي الحاكم الجنائي لسمو دوق اللورين . فهذا الرجل اللوذعي انتهز في الحقيقة أفضل الفرص ليتعرف على تصرفات الساحرات وأعمالهن ؛ إذ أنه كان مطّلعاً على قضاياهن وشهد هو نفسه حرق ثمانمئة امرأة في اللورين بعد أن أدرجن في عداد الساحرات . وكثيراً ما انحصر تقديم الاثبات في أنَّ المرء كان يربط أيديهن وأرجلهن ويرميهن في الماء .

فإذا غصن في الماء وغرقن كنَّ بريئات . أما إذا طفن على سطح الماء كنَّ مذنبات وكان مصيرهن الحرق . هكذا كان منطق ذلك العصر .

ومن السمات البارزة التي كنّا نراها في طبع الجن الألمان هي أنها جُرّدت من كل ماهو مثالي وأنَّ ما في داخلها هو مزيج من الخبث والحقارة والسفالة كلها ومن البشاعة والشناعة كلها . وعلى قدر ما تقترب منا على نحو حميم يكون تأثيرها مفزعاً ورهيباً . فلا شيء يبعث على الرعب والهلع اكثر من أشباحنا الضاجة وعفاريتنا الصغيرة واقزامنا . وفي هذا الصدد يضمّن بريتوريوس كتابه «انتروبوديموس»[٢٢] موضعاً أورده هنا معتمداً دوبينيك : «لم ير القدامى في الأشباح الضاجة شيئاً إلا أنها يجب أن تكون بشراً صالحين مثلها مثل أطفال صغار يرتدون سترة صغيرة ملونة أو ثوباً صغيراً . ويضيف الجميع بأنَّ على بعضهم أن يحمل سكيناً في الظهر وأنَّ للبعض شكلاً آخر أو شكلاً شنيعاً مفزعاً . ومن ثم فإنهم يقتلون بهذه الأداة أو بغيرها قبل الأوان . إذ أن الذين يؤمنون بالخرافات يظنون أن الناس الذين قتلوا في المنزل قبل الأوان يمكن أن يكونوا أرواحاً. ويثرثرون بقصص كثيرة وهي أن العفاريت حين يقدمون للخادمات والطباخات في البيت فترة من الزمن خدمات جليلة ويكسبون محبتهن ومودتهن عندها تـشعر بعض المستهترات الفاسقات لقاء ذلك بمثل هذا الميل والعاطفة نحو العفاريت ويتمنين من أعماقهن أن يشاهدوا مثل هؤلاء الخدم الصغار ويتقن اليهم على حين لن ترضى الأشباح الضاجة ولن تقبل بمثل ذلك أبداً متذرعة بأن المرء لا يستطيع أن يراها من دون أن يرتعد خوفاً من جراء ذلك . ولكن مع هذا إذا لم تستطع الفتيات الشهوانيات أن يمسكن عن ذلك فيسمي العفاريت لهؤلاء مكاناً ما في المنزل حيث تريد المثول بلحمها ودمها . على أن المرء يجب أن يصطحب معه في الوقت نفسه سطلاً من الماء البارد . إذ أنه حدث ذات مرة أن عفريتاً كان ملقى على الأرض في داخل وسادة وكان عارياً وفي ظهره سكين كبير مغروز . وعلى هذا ذعرت بعض الخادمات ذعراً إيّ ذعر بحيث إنه أغمي عليهن . وعلى هذا سرعان ما انتفض هذا العفريت وتناول الماء وصبّه على المرأة المستهترة المغشي عليها كي تعود إلى وعيها . ولذلك كانت الخادمات يفقدن لذتهن ورغبتهن ويتمنين ألا يرين أبداً «يواكيم» العزيز . والحق إن العفاريت كلهم يجب أن يكون لهم أيضاً أسماء خاصة ، على أنها تدعى في السر «كيم» .

كما أنه ينبغي عليهم أن ينجزوا العمل المنزلي كله للعبيد والخدم الذين يخضع لهم هؤلاء العفاريت : كأن تحسّ الخيول وتقدم لها العلف وتنظف الاصطبل وكل شيء وتحافظ على نظافة المطبخ وغير ذلك من أعمال ينبغي القيام بها في المنزل كالانتباه الشديد وزيادة الانعام وتربيتها ومن أجل ذلك يجب أن يلاطف الخدم العفاريت بأن لا يؤذونهم لا في كثير ولا في قليل ، لا بالسخرية والاستهزاء ولا بالتواني في تقديم الطعام . وإذا ما استعانت احدى الطباخات سرياً بأحد هؤلاء العفاريت في منزلها فعليها ، إذاً ، أن تضع يومياً في وقت ومكان محددين زبديته الجاهزة مملوءة بالطعام الجيد ثم تمضي في حال سبيلها . وفي وسعها أن تتكاسل بعد ذلك بصورة دائمة وأن تأوي إلى النوم مبكراً . ومع هذا ستجد عملها في الصباح الباكر مديراً ومرتباً .

ولكنها إذا نسيت واجبها مرة ، كأنْ تهمل الطعام وتتوانى فيه ، فإن عملها يبقى متروكاً لها من دون انجاز وعليها أن تنجزه وحدها وتمنى بقدر من سوء الحظ كأنْ تحرق نفسها بالماء الساخن أو تكسر القدور والاطباق أو تكب الطعام أو تسقط وغير ذلك ؛ وأنها ، بذلك ، لابد أن تلقى الزجر والتأنيب عقاباً لها من ربة البيت أو رب البيت .

ويقال إن المرء كثيراً ما سمع العفريت يضحك أو يقهقه من ذلك . وإن عفريتاً كهذا يجب ان يمكث أبداً في المنزل ، حتى لو تغير الخدم . بل إن خادمة راحلة كان عليها أن تعهد به إلى الخادمة التي خلفتها ، وتوصيها به خيراً وبأنها تنتظره أيضاً . وإذا ما رفضت الخادمة الجديدة فإن سوء الحظ والنكد الدائمين لن يعوزاها وسيكون عليها أن تغادر المنزل في وقت مبكر جداً» .

ومن القصص الأكثر رعباً وهولاً قد تكون القصة القصيرة التالية :[٣٣] كان لخادمة عفريت غير مرئي وكانت قد أجلسته عندها على الموقد أعواماً طوالاً وخصصت له هناك مكاناً صغيراً . وفي الليالي الشتائية الطويلة كانا يتسامران . وذات مرة رجت الخادمة عفريتها الذي سمته هاينز الصغير أن يمثل أمامها مرة واحدة في صورته التي فطر عليها .

على أن هاينز الصغير رفض ذلك . لكنه وافق أخيراً وقال إنّ عليها أن تنزل إلى القبو وعليها أن تراه هناك . وما كان من الخادمة إلا أن حملت شمعة ونزلت الى القبو . وهناك ، وفي برميل مفتوح ، شاهدت طفلاً صغيراً ميتاً يسبح في دمه . وكانت الخادمة قد أنجبت منذ سنين خلت طفلاً غير شرعي وكانت قد قتلته وألقته في برميل .

على أن الألمان بطبيعتهم التي فطروا عليها كثيراً ما يبحثون عن أفضل انواع المزاح والتسلية في الخوف نفسه . وفي بعض الأحيان تكون الأساطير الشعبية عن العفاريت عامرة بالسمات والملامح البهيجة المضحكة . فما هو مسلٍّ على نحو خاص هو الحكايات التي تدور عن العفريت هو ديكين الذي عاث فساداً في هيلديزهايم في القرن الثاني عشر الميلادي والذي يكثر الحديث عنه لدينا في حجرات الغزل وروايات الأشباح . وسنقبس من كتاب أخبار قديم(٣٤) موضعاً طبع مراراً وتكراراً ويزودنا بالمعلومات التالية : في سنة ١١٣٢م ظهر شبح ، خبيث لناس كثيرين في اسقفية هيلديزهايم في هيئة فلاح يعتمر قبعة . وعلى هذا سماه الفلاحون بلغتهم الساكسونية هوديكين . ولقد وجد الشبح مسرة ولهواً في مخالطة الناس ومعاشرتهم ، فتارة يظهر لهم وتارة يحتجب عنهم وسرّه أيضاً أن يطرح عليهم أسئلة ويجيب عنها . وما أهان أحداً من دون سبب . أما إذا ما سخر منه الناس أو سبوه فإنه كان يقابل هذا الظلم الذي لاقاه ويرده بالصاع نفسه دون نقصان . ولما كان الجراف هيرمان فون فيزينبورغ قد قتل الجراف بورشارد دي لوقا وصارت بلاد القاتل في خطر من أن تصبح نهباً للمنتقمين فإن الشبح هو ديكين ايقظ الاسقف بيرنارد فون هيلديزهايم من نومه وتكلم معه الكلمات التالية : انهض أيها الأصلع ! إن بلاد الجراف فيزينبورغ صارت مهجورة بسبب القتل وقضي عليها وفي إمكانك أن تستولي عليها بسهولة!» . وسرعان ما جمع الأسقف محاربيه ودخل بلاد الجراف المذنب وضمها بموافقة القيصر إلى وقفه . وكثيراً ما أنذر هذا الشبح الاسقف المذكور من دون دعوة من اخطار مقبلة تتهدده ، وكثيراً ما ظهر ، لاسيما في مطبخ السراي حيث كان يتكلم مع الطباخين ويقدم لهمْ شتى الخدمات . ولما كان المرء ألف الشبح هوديكين تدريجياً فقد جرؤ أحد الطباخين الشباب من أن يمازحه

ويلاعبه كلما ظهر ، حتى إنه كان يسكب الماء القذر عليه . وطلب الشبح من كبير الطباخين أنه يود أن يردع الشاب الشقي غير المؤدب عن عبثه . وأجاب كبير الطباخين : «إنك شبح وتخاف من صبي!» ورد هوديكين الشبح على ذلك مهدداً : «ولما كنت ترفض أن تعاقب الصبي فإني سأريك في أيام قلائل مدى خوفي منه» . وبُعَيْدَ ذلك كان الصبي الذي أهان الشبح ينام وحده في المطبخ . وبينما كان نائماً قبض عليه الشبح وخنقه وقطعه إرباً إرباً ووضعه في قدور على النار . ولما أن الطاهي قد اكتشف هذه الفعلة فقد لعن الشبح . وفي اليوم التالي أفسد الشبح هوديكين كل الشواء الموجود على السفود بالسم وبدم السلاحف الذي صبّه فوق الشواء .

ودفع الانتقام بالطاهي إلى شتائم جديدة . فما كان من الشبح إلا أن قذف به من فوق جسر غير حقيقي ومسحور في حفرة عميقة ، وفي الوقت نفسه قام بجولته طوال الليل فوق الأسوار والأبراج وأجبر الحراس على اليقظة الدائمة . وكان لرجل امرأة خائنة . وذات مرة ، ولما أراد هذا الرجل السفر ، قال للشبح هوديكين مازحاً : «أيها الصديق الطيب ، إني أوصيك بامرأتي فاحرسها بعناية» . وما إن نأت المسافات بالرجل حتى سمحت المرأة الخائنة لعشاقها بالمجيء واحداً بعد الآخر . على أن الشبح هوديكين وحده لم يترك أحداً منهم يدنو منها ، بل إنه قذف بهم كلهم من فوق السرير على الأرض . وحين عاد الرجل من سفره لاقاه الشبح وقال للعائد : «لشد ما تسرني عودتك لأنني سأخلص من المهمة الصعبة التي ألقيتها على عاتقي . فلقد صنت زوجتك بشق النفس وحلت بينها وبين خيانة زوجية حقيقية . لكنني ارجوك بألا توصيني بها ثانية . وإنه لخير لي أن أرعى الخنازير كلها في مقاطعة ساكسونيا من أن أرعى امرأة تسعى لأن تسلم نفسها لعشاقها بالمكائد والحيل» .

وابتغاء للدقة لابد لي من القول إن غطاء الرأس عند هوديكين يختلف من الزي العادي للأشباح والعفاريت . فالعفاريت يرتدون في أغلب الأحيان ثياباً رمادية ويعتمدون قلنسوات صغيرة حمراء . وإن المرء ليرى هذا على الأقل في ماهو دانماركي حيث ينبغي أن يكثر عددهم في هذه الأيام على نحو شديد . ولقد كان رأيي من قبل أن العفاريت آثروا العيش في الدانمرك لأنهم فضلوا أكل الجريش على

أي شيء آخر . على أن السيد اندرسون[٣٥] ، الشاعر الدانمركي الشاب الذي سرني لقاؤه هذا الصيف في باريس ، أكد لي بأن العفاريت يفضلون أن يأكلوا «العصيدة» . وإذا استقر العفاريت في منزل ما فإنهم لا يميلون إلى مغادرته على الفور . على أنهم لا يأتون على غير موعد . وإذا أرادوا أن يسكنوا في مكان ما فإنهم يعلمون رب البيت بذلك على النحو التالي : كأن يحملون ليلاً إلى المنزل شتى أنواع نشارة الخشب وينثرون في براميل الحليب روث البقر . فإذا لم يرمِ رب البيت بنشارة الخشب مرة اخرى وشرب هو واسرته من ذلك الحليب الملوث فإن العفاريت تقيم عنده إلى الأبد . ولقد بات هذا في نظر البعض أمراً مزعجاً وكريهاً . وأخيراً حسّ أحد سكان منطقة يوتلاند بالضيق والانزعاج من عشرة مثل هذه العفاريت بحيث إنه هو نفسه أراد أن يتخلى عن منزله وحمل متاعه في عربة ومضى بها إلى القرية المجاورة لكي يقيم هناك . على أنه في الطريق ولما التفت لمح رأس العفريت الذي كان يعتمر قلنسوة حمراء وكان ينظر من أحد البراميل الفارغة ويناديه بأدب ولطف : «إننا راحلون» .

ولعلي توقفت طويلاً عند هذا الجني الصغير . وآن لي أن أنتقل إلى المسائل الكبرى . على أن هذه القصص كلها تصوّر ايمان الشعب الالماني وطبعه ، ذلك الايمان الذي كان في القرون المنصرمة قوياً مثله كمثل الايمان الكنسي . ولمّا أنهى الدكتور العلامة ريميجي كتابه العظيم عن الساحرات اعتقد أنه عرف مضمونه بحيث إنه تصوّر أنه يستطيع الآن أن يمارس السحر . وأن رجلاً دقيقاً وأميناً على شاكلته لم يفته أن يدّعي أمام القضاء أنه ساحر ومشعوذ أو معلم في السحر والشعوذة . وتبعاً لهذا الادعاء فقد أحرق على أنه استاذ في السحر والشعوذة .

هذه الأشياء المرعبة البغيضة لم تنشأ مباشرة بواسطة الكنيسة المسيحية ، وإنما من طريق غير مباشر وهو أن الكنيسة قلبت وحولت ديانة الشعوب الجرمانية القديمة على نحو ماكر بحيث إنّها حوّلت نظرة الألمان القائلة بوحدة الوجود إلى نظرة جهنمية ترى أن للأرواح والأشباح الشريرة فعلها وتأثيرها في كل مكان وأنها حوّلت مقدسات الشعب القديمة إلى عمل شيطاني خبيث وكريه . على أن الانسان لا يعدل

عن طيبة خاطر عما كان غالياً وعزيزاً عليه وعلى آبائه وأجداده ، وتتثبت مشاعره بذلك سرعاً حتى لو أفسد المرء ذلك أو شوهه . وعلى هذا قد يبقى ذلك الايمان الشعبي الخاطىء المقلوب زمناً أطول مما ستبقى المسيحية في ألمانيا ، هذه المسيحية التي لم تضرب جذورها في تربة الوطن كما ضرب الايمان الشعبي جذوره . وفي عصر الاصلاح الديني سرعان مازال الايمان بقصص القديسين الكاثوليكية . على أن الايمان بالسحر والشعوذة لم يزُل ولم ينعدم اطلاقاً .

إن لوثر لم يعد يؤمن بالمعاجز الكاثوليكية ، على أنه لايزال يؤمن بالجن والشياطين . «فخطب المائدة» عنده حافلة بالقصص الغريبة عن حيل ابليس وعن العفاريت والساحرات . وهو نفسه في ضائقاته ومتاعبه اعتقد في بعض الأحيان أنه يصارع الشيطان بجسده وروحه . وفي فارتبورغ حيث ترجم لوثر الكتاب المقدس ضايقه الشيطان كثيراً بحيث إنه قذفه بالمحبرة على رأسه ، ومنذ ذلك الحين والشيطان يشعر بتهيّب كبير من الحبر ، لا بل إنه يشعر بمزيد من التهيب من سواد المطابع . وفي «خطب المائدة» المذكورة مقاطع عديدة ممتعة تتحدث عن مكر الشيطان ودهائه ؛ ولا يسعني إلا أن أنقل أحد هذه المقاطع .

«روى الدكتور مارتين لوثر أن رفاقاً طيبين جلسوا معاً في محفل شرب . وكان بينهم صبي مستوحش كان قد قال : «لو أن أحداً جاد علي بحساب الخمر لبعته روحي مقابل ذلك» .

وعلى هذا دخل شخص ما الحجرات وتقدم إليه وجلس بجانبه وشرب معه الخمر وتحدث مع الآخرين إلى ذلك الذي كان قد تجرأ كثيراً : «أما سبق لك أن قلت إنك ستبيع روحك لمن يقدم لك الشراب على حسابه؟» .

عندها تكلم الصبي مرة أخرى : «بلى ، وإني لفاعل ذلك ، دعني اليوم أسرف في الطعام والشراب وانعم بأشياء طيبة» .

ووافق الرجل الذي لم يكن إلا الشيطان . ثم لم يلبث أن انسحب خلسة ، ولما انبسط المتلذذ اليوم ، كل اليوم ، وسكر في النهاية ، عندها عاد الرجل السالف الذكر وجلس إليه وسأل الندامى الآخرين وتكلم : «أيها السادة الاعزاء ، ماذا يخيل لكم حين يشتري شخص ما فرساً ؛ ألا يدخل في عداد ذلك السرج واللجام ؟»

وذعر الجميع . على أن الرجل قـال أخيراً : «هيا قولوا ذلك على الفور!» عندئذ اعترفوا وقالوا : نعم ، السرج واللجام يدخلان في عملية البيع هذه!» عندها أمسك الشيطان بالصبي الفظ المتوحش وسار به عبر السقف وما عرف أحدٌ إلى أين سارا» .

ومع أني أكنّ أعظم الاحترام لمعلمنا الكبير مارتين لوثر فإنه ، مع هذا ، ليبدو لي وكأنما أخطأ في تقدير طبع الشيطان كل الخطأ . فالشيطان لا يفكر بالجسد بمثل هذا الاستخفاف كما ذكر هنا . ومهما روى المرء عن شرور الشيطان فإنه ، مع ذلك ، لم يستطع أن يقول عنه أبداً إنه من أتباع مذهب الروحية .

ولئن أخطأ مارتين لوثر في تقدير خلق الشيطان فإنه اخطأ اكثر وأكثر في تقدير خلق البابا والكنيسة الكاثوليكية . وفي ضوء حيادي وعدم تحزبي الصارم لابد لي من أن أحامي عنهما كليهما امام الرجل البالغ الجد والحماسة . ولو سئلت عن رأيي لاعترفت بأن البابا ليو العاشر[٣٦] هو اكثر تعقلاً من لوثر وأن لوثر لم يفهم البواعث أو الدوافع الأخيرة والعميقة للكنيسة الكاثوليكية . إذ أن لوثر لم يكن قد فهم أن فكرة المسيحية التي هي القضاء على الحسية كانت تتعارض أيما تعارض مع الطبيعة الانسانية على أن يكون تحقيقها ممكناً في أي وقت في الحياة . فهو لم يكن قد فهم أن الكاثوليكية هي أقرب ما تكون إلى الاتفاق بين الاله والشيطان وهذا يعني بين العقل والمادة ، الأمر الذي يتم به الاعراب عن سلطة العقل المطلقة نظرياً ؛ أما المادة فقد تهيّأ لها أن تمارس عملياً كل الحقوق الملغاة أو المعطلة . وعلى هذا كان مبدأ الاعترافات الذكي الذي أوجدته الكنيسة لصالح الحسية مع أنه كان دائماً في ظل صور واشكال تفضح كل حالة من حالات الحسية وتحتج على اغتصابات العقل التهكمية الساخرة ، وإنه ليحق لك أن تصغي إلى ميول القلب الرقيقة وأن تعانق فتاة ، ولكن عليك أن تعترف أن هذا كان إثماً فظيعاً وعليك أن تكفّر عن هذا الاثم . ولما كان في الامكان التكفير بالمال فقد كان هذا عمل خير للانسانية وذا نفع للكنيسة على سواء . فالكنيسة سمحت بدفع ما يسمى بالدية لقاء كل متعة حسية ؛ وعند ذلك نشأت ضريبة لكل انواع الآثام والذنوب ، وكان هنالك باعة جوالة قديسون ؛ وكان تيتسيل[٣٧] واحداً من هؤلاء الذين كان يجوبون البلاد ويعرضون باسم الكنيسة

الرومانية صكوك الغفران للبيع لقاء كل إثم مقدّر ، وهذا ما جابهه لوثر في بادىء الأمر . ويذهب مؤرخونا إلى أن هذا الاحتجاج ضد تجارة صكوك الغفران كان حدثاً تافهاً . أما الذي دفع بلوثر إلى أن يهاجم السلطة الكنسية كلها في أعلى ذروتها لم يكن إلا العناد الروماني ؛ إذ أن لوثر لم يندد في بادىء الأمر إلا باستغلال الكنيسة السيء . على أن هذا خطأ . فتجارة صكوك الغفران لم تكن استغلالاً أو سوء استعمال ، بل كان نتيجة لنظام الكنيسة كله . وعلى حين هاجمه لوثر فإنه يكون قد هاجم الكنيسة نفسها . وكان لابد للكنيسة من أن تلعنه على أنه هرطقي ملحد . أما ليو العاشر الفلورنسي اللطيف وتلميذ بوليسيانو وصديق رافائيل(٣٨) والفيلسوف اليوناني صاحب التاج البابوي المثلث الذي خوّله مجمع الكرادلة لانتخاب البابا ربما لأنه كان يعاني من مرض لم ينشأ أبداً عن تقشف مسيحي ، وكان لايزال آنذاك مرضاً خطيراً جداً .. فكم كان على ليو الميديتشي هذا أن يبتسم ساخراً من الراهب الطاهر الساذج المسكين لأنه ظن أن الانجيل هو وثيقة المسيحية ودستورها ؛ وهذه الوثيقة الدستورية يجب أن تكون حقيقة . ولعله لم ينتبه إلى ما أراده لوثر على حين كان آنذاك مشغولاً جداً ببناء كنيسة القديس بطرس الذي غطّت تكاليفه أموال صكوك الغفران بحيث إن الخطيئة جادت في الحقيقة بالمال لبناء هذه الكنيسة التي اصبحت بذلك أقرب ما يكون إلى نصب ملذات حسية مثلها كمثل ذلك الهرم الذي شادته احدى البغايا المصريات بالمال الذي كانت تكسبه من طريق البغاء(٣٩) . وكان في وسع المرء أن يقول عن بيت العبادة هذا اكثر مما يقول عن كنيسة كولونيا إنها شيدت من طريق الشيطان . فالمرء في الشمال الألماني لم يفهم انتصار الروحانية هذا وهو أنه كان لزاماً على الحسية نفسها أن تبني أجمل المعابد وأنه من اجل عدد من الاعترافات التي صرح بها المرء للجسد فقد توصل المرء الى الوسائل ليمجد العقل . إذ أن الامكانية لممارسة ومزاولة المسيحية التي تقدم للحسية أقل ما يمكن من الاعترافات كانت متوافرة هنا في الشمال الالماني اكثر مما كانت عليه تحت سماء ايطاليا الوهاجة ، ونحن أبناء الشمال هادئون بطبعنا ولا نطلب من صكوك الغفران لقاء معاصٍ جسدية اكثر مما كان قد أرسله إلينا ليو المشفق إشفاق الاب . ولقد سهل علينا المناخ ممارسة الفضائل المسيحية . وفي

الواحد والثلاثين من شهر تشرين الأول سنة ١٥١٧ ولمّا علّق لوثر دعاويه ضد الغفران على باب كنيسة اوغسطين كان خندق مدينة فيتينبرغ متجمداً وكان في وسع المرء أن يتزحلق على الجليد على حين كان هذا التزحلق متعة باردة جداً ولم يكن إثماً أو معصية .

ولربما اصطنعت أعلاه مراراً وتكراراً لفظي الروحية والحسية[٤٠] . على أن هذين اللفظين لا يتعلقان هنا ، كما هي الحال لدى الفلاسفة الفرنسيين ، بمصدري معارفنا المختلفين؛ بل إنني استعملهما ، كما يتبين أبداً من كلامي ، للدلالة على طريقتي التفكير المختلفتين كلتيهما حيث إنّ احداهما ترمي إلى تعظيم العقل من خلال سعيها إلى تدمير المادة على حين ترمي الأخرى إلى أن تطالب بالحقوق الطبيعية للمادة حيال اغتصابات العقل .

كما أنه لابد لي من أن ألفت الانتباه إلى بدايات الاصلاح الديني اللوثري بخاصة ، هذه البدايات التي تكشف عن روح الاصلاح نفسه ذلك لأن الناس في فرنسا لا يزالون يحملون عن الاصلاح المفاهيم القديمة الخاطئة التي نشرها بوسويه[٤١] بكتابه «تاريخ تغييرات الكنيسة البروتستانتية» فباتت واضحة ملموسة لدى الكتاب المعاصرين . فالفرنسيون لم يفهموا إلا الجانب السلبي من الاصلاح الديني ، فلم يروا فيه إلا كفاحاً ضد الكاثوليكية واعتقدوا في بعض الأحيان أن هذا الكفاح الذي كافحه المرء فيما وراء نهر الراين يعود إلى نفس الاسباب التي انبثق عنها الكفاح في فرنسا . على أن الاسباب كانت في المانيا مختلفة كل الاختلاف مما كانت عليه في فرنسا . لقد كانت متناقضة ومتضاربة مع بعضها البعض . فلم يكن الكفاح ضد الكاثوليكية في المانيا إلا حرباً بدأها مذهب الروحية لمّا تبين له أنها لا تحمل إلا عنوان السلطة والسيادة ولم تسيطر إلا من الناحية القانونية على حين مارس مذهب الحسية السيادة الحقيقية وسيطر سيطرة فعلية وذلك من طريق اختلاس موروث:ـ فتجار الغفران تمّ طردهم وتم استبدال محظيات الكهنة بزوجات باردات وتم تحطيم صور مريم العذراء الرائعة ، ونشأت هنا وهناك البوريتانية أو التزمت المعادي للشهوات ، أما الصراع ضد الكاثوليكية في فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد كان حرباً بدأته الحسية لمّا تبين لها أنها الحاكم

المطلق . ومع هذا فإن مذهب الروحية الذي زعم أنه الحاكم القانوني كان يزدري كل عمل من أعمال سيادة المذهب الحسي على أنه عمل غير شرعي وكان يفضحه على نحو ملحوظ جداً وشديد الحدة . وعوض من أن يقاتل المرء ويكافح في ألمانيا بجدية طاهرة فإن المرء كافح في فرنسا بمزاح خليع . وعوض من أن يجادل المرء في ألمانيا جدلاً لاهوتياً فإن المرء في فرنسا نظم هجاء مضحكاً . وكان على موضوع الاهجوة الفرنسية أن يظهر عادة التناقض الذي يقع المرء فيه مع نفسه إذا ما أراد أن يكون روحاً وعقلاً . عندئذ ازدهرت أمتع القصص عن رجال اتقياء ورعين يستسلمون بلا إرادة لطبيعتهم البهيمية ؛ وبعدئذ يريدون أن ينقذوا مظهر قداستهم فيلجأون الى النفاق والمراءاة . حتى إن ملكة نافارا[٤٢] وصفت في قصصها مثل هذه الأوضاع البائسة ، ثم إن علاقة الرهبان بالنساء هي موضوعها العادي . وهي لا تريد أن تجعلنا نغرب في الضحك فحسب ، بل إنها تريد ايضاً أن تهز عالم الرهبان . وإن أخبث زهرة من مثل هذا الهجوم الساخر العنيف هي مسرحية «طرطوف»[٤٣] لموليير بلا منازع . إذ أن طرطوف هذا ليس موجهاً ضد جزويت عصره فحسب ، بل ضد المسيحية ذاتها ، لا بل ضد فكرة المسيحية أي الروحانية . فمن خلال الخوف البائن من صدر دورين العاري ومن خلال العبارة القائلة إن «السماء تحظّر شتى الاشياء ، على أن المرء يعرف كيف يقبل بها» فإن المسرحية لا تسخر في الحقيقة من الرياء المألوف في الدين فحسب ، بل تسخر من الاكذوبة المألوفة التي تنشأ بالضرورة من استحالة تحقيق الفكرة المسيحية . كما أن المسرحية تسخر ايضاً من نظام الامتيازات التي كان على الروحانية أن توجدها للحسية . وفي الحقيقة أنه كان للجنسينية من المسوغات والبواعث للشعور بالاهانة من خلال تصوير «طرطوف» اكثر بكثير مما كان لليسوعية (الجزويت)[٤٥] من الدوافع إلى ذلك . وليس بمستبعد أن يثير موليير استياء المنهجيين المعاصرين[٤٦] بصورة دائمة كما أثار استياء التابعين الصاغرين من كاثوليكي عصره . وعلى هذا فإن موليير عظيم جداً ذلك لأنه ، مثله كمثل أريستوفانيس وسيرفانتيس ، لم يسخر من العرضيات الدنيوية الزائلة فحسب ، بل مما هو يدعو إلى الضحك الدائم والسخرية الابدية ، أي من هنات البشرية ومعايبها الاصلية . أما فولتير الذي لم

يهاجم إلا ماهو زمني دنيوي وتافه سخيف فيجب أن يأتي بعده في هذا الصدد .

على أن ذلك الهجاء ، هجاء فولتير الساخر ، قد حقق رسالته في فرنسا . ومن أراد أن يواصل هذه المهمة سلك مسلكاً غير مساير أو مطابق لروح العصر وتصرف عن غير حكمة وتعقل . لأنه لو اجتث المرء آخر بقايا الكاثوليكية الظاهرة لحدث بسهولة أن فكرة الكاثوليكية نفسها ستفزع إلى شكل جديد أو ما يسمى بجسد جديد ؛ بل إنها ستتخلى عن اسم المسيحية ، وربما ضايقتنا في هذا التحويل على نحو أكثر ازعاجاً مما هو عليه في شكلها الحالي المحطم الحزب والمشوه السمعة بصورة عامة . والحق أنه لمن الخير أن يتمثل المذهب الروحي بدين أو برجال دين حيث إنّ الدين فقد افضل قواه على حين يقف رجال الدين من التحمس الكامل للحرية في عصرنا موقف المعارضة المباشرة .

ولكن لمَ هي الروحية بغيضة إلى نفوسنا ؟ هل هي شيء كريه ورديء ؟ ليس هي كذلك على الاطلاق . إن عطْر الورد شيء نفيس ، وإن زجاجة منه لتنعش وتريح إذا ما اضطر المرء إلى أن يقضي أيامه حزيناً في حجرات الحريم المغلقة . على أننا لا نريد ، مع هذا ، أن يدوس المرء ويحطم كل ورود هذه الحياة لكي يحصل على بضع قطرات من عطر الورد ، حتى لو كان لهذه القطرات أثرها المريح في النفس . بل إننا أشبه بالعنادل التي تستمتع أيما استمتاع بالوردة نفسها وتسعد كذلك بمرآها الوردي الزاهر كما تسعد بعطرها الخفي .

ولقد أوضحت أعلاه أن المذهب الروحي (الروحية) كان في الحقيقة ذلك الذي هاجم الكاثوليكية عندنا . على أن هذا لا ينطبق إلا على الاصلاح الديني في بدايته . وحين أحدث المذهب الروحي صدعاً في بناء الكنيسة القديم اندفع المذهب الحسي بكل ما لديه من حماسة كانت حبيسة زمناً طويلاً ، وصارت ألمانيا اكثر الملاعب صخباً لنشوة الحرية والمتع والملذات . وكان الفلاحون المضطهدون وجدوا في التعاليم الجديدة سلاحاً دينياً استطاعوا أن يشنوا به حرباً على الارستقراطية . فالرغبة في حرب كهذه كانت موجودة منذ قرن ونصف القرن . فالمذهب الحسي طاف شوارع مدينة مونستر عارياً في هيئة يان فان لا يدن[٤٧] ورقد مع زوجاته الاثنتي عشرة في ذلك السرير الذي لايزال موجوداً الى الآن في دار البلدية .

وانفتحت بوابات الاديرة في كل مكان وارتمت الراهبات في آحضان الرهبان وقبلوا بعضهم . أجل ، إن التاريخ الظاهري لذلك العصر يكاد يتكون من فتن ومشاغبات حسية ، ليس غير . وسنرى فيما بعد ماتبقى من نتائج قليلة تمخضت عن ذلك وسنرى كيف اضطهد المذهب الروحي اولئك المشاغبين من جديد وكيف دعم حكمه وسيطرته شيئاً فشيئاً في الشمال ؛ ولكنه أصيب بجراح بليغة على يد عدوٍّ ربّاه هو في حضنه ، وهذا العدو هو الفلسفة . وإنَّ هذا التاريخ معقد وشائك جداً . ومن الصعب حلُّ مشاكله . وسيكون سهلاً على الحزب الكاثوليكي أن يظهر على هواه أسوأ الدوافع ؛ وحين يسمعه المرء يتكلم فليست المسألة إلا أن يثبت شرعية المذهب الحسي البالغ الصفاقة وأن ينهب ممتلكات الكنيسة . وطبيعي أنه ينبغي على الاهتمامات والمصالح العقلية أن تتحالف دائماً وأبداً مع المصالح المادية لكي تنتصر . على أن الشيطان كان خلط أوراق اللعب خلطاً عجيباً فتعذر على المرء أن يقول شيئاً محدداً عن النيات .

ولا يستبعد أن يكون الناس المحترمون الذين اجتمعوا سنة ١٥٢١ في الصالة الملكية في مدينة فورمز(٤٨) قد حملوا في نفوسهم شتى الأفكار التي تتعارض مع الأقوال . فهنالك جلس قيصر شاب وقد تلفّع ، وهو في لذة الحكم القوية ، بردائه الارجواني الجديد وسرّ في أعماقه بأن الروماني الصلب الذي نكّل بأسلافه في الامبراطورية كثيراً ولم يتخل بعد عن تكبره لقي الآن الانتهار البالغ الأثر . ثم إن ممثل ذلك الروماني قد شعر بدوره بالسرور الخفي أن انقساماً نشأ بين أولئك الالمان الذين كثيراً ما أغاروا على ايطاليا الجميلة ونهبوها وسلبوها كما يفعل البرابرة السكارى ولا يزالون يهددونها بغارات جديدة وبالسلب والنهب من جديد . وسر الأمراء العلمانيون أنه صار في وسعهم أن يستولوا في الوقت نفسه على أموال الكنيسة واملاكها بفضل المذهب الجديد . ولقد فكر كبار الأحبار إذا ماكان في مقدورهم أن يتزوجوا بخادماتهم وأن يورثوا انجالهم مقاطعاتهم وأسقفياتهم وأديرتهم . وسرّ مندوبو المدن انهم وسّعوا استقلالهم توسيعاً جديداً . وهنا كان على كل واحد أن يحصل على شيء معين وفكر في سره بمنافع دنيوية . على أنه كان هنالك رجل ايقنت به أنه لم يفكر بنفسه وإنما فكر فقط بالمصالح الالهية

التي كان لزاماً عليه أن يمثلها وينادي بها . ولم يكن هذا الرجل إلا مارتين لوثر[٤٩] الراهب الفقير الذي اصطفته العناية الالهية ليحطم تلك الدولة الرومانية العظمى التي حاربها أقوى القياصرة وأشجع الحكماء من غير طائل . على أن العناية الالهية تعرف حق المعرفة على أية اكتاف تلقي بأثقالها . وهنا لم تدع الحاجة إلى قوة عقلية فحسب ، بل إلى قوة جسدية أيضاً . وكانت الحاجة ماسة الى جسم قوته منذ حداثة السن صرامة الرهبنة وخشونتها وعفتها لكي يتحمل مشقات مثل هذا المنصب . وكان معلمنا العزيز آنذاك لا يزال نحيلاً وبدا شديد الشحوب بحيث إن السادة المتوردين البدن الذين تغذّوا تغذية حسنة ، السادة اعضاء مجلس التشريع الامبراطوري ، نظروا إلى الرجل الفقير في المسح الاسود من علٍ وبشيء من الشفقة تقريباً . لكنه كان في كامل صحته وكانت اعصابه قوية جداً بحيث إن الشغب الباهر لم يخفه في كثير أو قليل ؛ حتى إن رئتيه لابد أن تكونا قويتين . إذ أنه بعد أن تلا دفاعه الطويل كان عليه أن يعيده باللغة اللاتينية لأن القيصر لم يكن يفهم اللغة الالمانية الفصيحة ؛ وإني لامتعض كلما خطر هذا ببالي . إذ أن معلمنا الغالي كان يقف قرب نافذة مفتوحة عرضة لتيار الهواء على حين كان العرق يتصبب من جبينه . وليس بمستبعد أن يكون طول الكلام قد أجهده كثيراً وأن يكون حلقه جفّ بعض الشيء . ولاشك في أن دوق براوينشفايغ فكر في ذات نفسه أن لوثر «لابد أن يكون الآن في عطش شديد» . وعلى الأقل فإننا نقرأ أنه أرسل لمارتين لوثر ثلاثة أباريق من أفضل أصناف بيرة آيمبيكر الى النزل . ولن أنسى لآل براوينشفايغ هذا الصنيع .

ومثلما كان للمرء في فرنسا تصوراته وافكاره الخاطئة عن الاصلاح الديني كانت له أيضاً افكاره وتصوراته الخاطئة جداً عن أبطال هذا الاصلاح . وإن أقرب سبب لسوء الفهم هذا يكمن في أن لوثر ليس أعظم رجل في تاريخنا ، بل هو اكثر الرجال ألمانيةً . وإن طبعه ليجمع على نحو فريد كل فضائل الألمان ونقائصهم وأنه ليمثل ايضاً ألمانيا العجيبة. ثم إن له خصائصه التي قلما نجدها موجودة أو نجدها عادةً متناقضات متضادة . والحق أنه كان في الوقت نفسه متصوفاً حالماً ورجلاً عملياً . فلم يكن لافكاره اجنحة فحسب ، بل كان لها أيدٍ أيضاً . لقد كان يتكلم ويفعل . ولم يكن لسان عصره فحسب ، بل كان سيفه أيضاً . وفي الوقت نفسه كان

ايضاً سفسطائياً مدرسياً بارداً وكان نبياً متحمساً ورعاً تقياً . وحين كان يجهد نفسه طوال النهار في تمييزاته العقائدية ، عندها كان يلجأ إلى الناي في المساء ويرقب النجوم ويذوب في الأنغام والعبادة . فالرجل الذي كان في وسعه أن يسبَّ سُباباً سوقياً هو نفسه الرجل الذي كان في وسعه أن يكون رقيقاً مثل عذراء رقيقة . وكان في بعض الأحيان عنيفاً كالعاصفة التي تقتلع شجرة البلوط . ثم كان يعود إلى رقته ونعومته مثله كمثل النسيم العليل الذي يداعب الزنابق . وكان صدره مفعماً بتقوى الله البالغة الرهبة والخشوع ومفعماً بالتضحية إجلالاً للروح القدس . وكان في مقدوره أن يستغرق كلياً في دنيا الروح والعقل . ومع ذلك عرف حق المعرفة روعة هذه الدنيا وعرف كيف يقدرها حق قدرها وهو نفسه نطق بالشعار الذائع الصيت : «إن مَنْ لا يحب الخمر والنساء والغناء يبقى طوال حياته أحمق» . فلقد كان إنساناً كاملاً ، وأود أن أقول ، إنه كان انساناً مطلقاً وحدّ في أعماقه الروح والمادة . وإنه لعين الخطأ ان نسميه روحياً من اتباع المذهب الروحي أو نسميه حسياً من اتباع المذهب الحسي . وأنّى لي التعبير ، فلقد كان يمتلك على شيء أصيل وغامض وعجيب ، شيء نجده لدى كل الرجال الذين اختارتهم العناية الالهية ، كأنْ يكون شيئاً بسيطاً ورهيباً ، شيئاً حكيماً وأخرق ، شيئاً شيطانياً لا يقهر .

كان أبو لوثر عامل منجم في مدينة مانسفيلد . وكثيراً ماكان الصبي عند أبيه في المنجم تحت الأرض حيث كانت المعادن الضخمة تبرز وتنساب الينابيع القوية . ولعل القلب الغض امتص بعفوية خفايا القوى الطبيعية أو لعل ارواح الطبيعة وأشباحها فتنته . وعلى ذلك فمن الجائز أن يكون بقي عالقاً فيه الكثير من التراب والكثير من خبث العواطف كما يعيبه الناس من اجل ذلك بما فيه الكفاية . لكن المرء على خطأ . فلولا ذلك الخليط الأرضي لما استطاع أن يكون رجل الفعل والعمل . فالعقول الخالصة لا تستطيع أن تعمل وتتصرف . على أننا نعرف من علم الأرواح عند يونغ شتيلينغ(٥٠) أن الأرواح تستطيع أن تظهر في ألوان وأشكال وعلى نحو محدد وأنها تعرف كيف تسير وتمشي وترقص وتقوم بشتى الحركات الممكنة مثلها

كمثل سائر البشر الأحياء ؛ لكنها لا تستطيع ان تحرك شيئاً مادياً من مكانه ، حتى ولا أصغر انواع الحلوى .

فالمجد للوثر ! المجد الدائم للرجل العزيز الذي ندين له بانقاذ أغلى وأنفس ما لدينا من ممتلكات ولا نزال نعيش إلى الآن من جمائله !

ويليق بنا بعض الشيء أن نشكو من آرائه الضيقة المحدودة . وطبيعي أن القزم الذي يقف على كتفي العملاق لا يستطيع أن يرى شيئاً آخر غير العملاق ، ولاسيما إذا كان يضع نظارة على عينيه . على أن النظرة العالية الرفيعة تفتقر إلى الإحساس الرفيع وإلى القلب الكبير الذي لا نستطيع أن نستحوذ عليه . ويليق بنا على نحو أقل أن نحكم على اخطائه حكماً قاسياً ومريراً . فهذه الأخطاء أفادتنا اكثر من فضائل الآلاف من الناس الآخرين . إن رقة ايراسموس(٥١) ولطف ميلانكتون(٥٢) لم توصلا بنا أبداً إلى ما وصلت بنا أحياناً قسوة الأخ مارتين الالهية . نعم ، إنَّ الخطأ الخاص المتعلق بالبداية كما نوهت أعلاه ، قد أتى أغلى الثمر الذي تنتعش به الانسانية كلها . وبدءاً من المجلس النيابي حيث أنكر لوثر سلطة البابا وأعلن جهاراً «أن على المرء أن يفنّد ويدحض مذهبه وتعاليمه من خلال آيات الانجيل نفسه أو بأسباب معقولة!» وهنا بدأ عصر جديد في المانيا . فالسلسلة التي قيد بها بونيفاس(٥٣) المقدس الكنيسة الألمانية إلى روما تتحطم . وهذه الكنيسة التي سبق أن شكلت جزءاً لا يتجزأ من السلطة الكبيرة تتحلل إلى ديمقراطيات دينية . والدين نفسه يتحول إلى دين آخر . فالعنصر الهندي الغنوصي يختفي منه . وإننا لنرى كيف يظهر فيه من جديد العنصر التأليهي اليهودي . وتنشأ المسيحية الانجيلية . فمطالب المادة الضرورية والأكثر ضرورة لا تؤخذ بعين الاعتبار فحسب ، بل تثبت شرعيتها وتسوَّغ . وبهذا يصبح الدين حقيقة من جديد . ويصبح الراهب انساناً يتزوج وينجب اطفالاً كما أمر الله . وخلافاً لذلك فإن الاله نفسه يصبح من جديد عازباً سماوياً بلا أسرة . وتصبح شرعية الابن موضعاً للجدال ، ويعين القديسون ويعزلون . وتنقصُّ اجنحة الملائكة وتفقد أم الاله كل حقوقها في التاج السماوي ويحظّر عليها أن تصنع المعجزات . ومن الآن وصاعداً ،

ولاسيما منذ أن تقدمت العلوم الطبيعية تقدماً كبيراً تنتهي المعجزات وتزول . وسواء أإنزعج الرب الكريم الآن من أن الفيزيائيين صاروا ينظرون إليه بعين الريبة وسواء أرفض أن يتنافس مع بوسكو[٥٤] فإنه رفض حتى في الايام الأخيرة وحين كان الدين مهدداً على نحو شديد الخطورة أن يشد من أزر هذا الدين من خلال معجزة خارقة. وربما لن يعمد من الآن وصاعداً إلى الحيل المقدسة في كل الأديان التي سيأتي بها على هذه الأرض ، بل إنه سيبرهن أبداً عن حقيقة التعاليم والمذاهب الجديدة بالعقل ، وهذا هو عين الصواب . وعلى الأقل عند السان سيمونية[٥٥] التي هي أحدث المذاهب لم تقع أية معجزة اطلاقاً ، اللهم إلا أن حساباً قديماً لاحد الخياطين لم يسدده سان سيمون في حياته فسدده تلامذته بعد موته بعشر سنوات . ولا أزال أرى كيف وقف المصرفي بيير أولاند[٥٦] في قاعة تيبو[٥٧] متحمساً وأبرز للنظارة المشدوهين ورقة الحساب المدفوعة . ودهش شباب محدودو الأفق من مثل هذه الوثيقة فوق الطبيعية . على أن الخياطين بدأوا يؤمنون ! أما إذا كانت البروتستانتية عندنا في ألمانيا قد سببت ضياع شعر آخر كثير إلى جانب المعجزات القديمة فإننا ، مع ذلك ، حصلنا على تعويض متنوع . فالناس باتوا اكثر عفة واستقامة واكثر نبلاً وشهامة . ولقد كان للبروتستانتية أحسن الأثر في نقاوة العادات وتلك الصرامة في ممارسة الواجبات التي نسميها عادة الأخلاق . والحق أن البروتستانتية سلكت في بعض الأماكن اتجاهاً يجعلها تضعف هي وهذه الأخلاق في النهاية ويبقى الانجيل صالحاً كقصة رمزية تعليمية جميلة ، ليس غير . وإننا لنرى بخاصة الآن تغييراً ساراً في حياة رجال الدين . فبالعزوبة زال فجور الاتقياء الورعين ورذائل الرهبان . ولا يندر أن نجد بين رجال الدين البروتستانت اناساً صالحين مستقيمين يحترمهم الرواقيون القدامى[٥٨] انفسهم . ويجب أن يجوب المرء شمال ألمانيا ماشياً كطالب فقير ليعرف كم من الفضائل البروتستانتية يمكن أن توجد أحياناً في بيت كبيت قس مظلم . وكم مرة في أماسي الشتاء استُقْبِلت هناك وأكرِمْتُ أنا الغريب الذي لم يحمل معه أية توصية أخرى إلا أنني كنت جائعاً ومتعباً . وبعد أن اكون أكلت وشبعت ونمت نوماً جيداً ونويت الرحيل في الصباح كان القس العجوز يأتي لابساً معطفه المنزلي الصباحي ويمنحني البركات

التي لم تجلب لي سوى الحظ . أما السيدة زوجة القس التي كانت كثيرة الكلام عن طيبة قلب فقد كانت تدس لي في جيبي بعض شرائح الخبز المغطاة بالزبدة ولم يكن إنعاشها لي بأقل من غيرها . وعلى بعْدٍ كله الصمت والهدوء كانت تقف بنات القس الجميلات بخدودهن الوردية وعيونهن البنفسجية التي مازلت أذكر وهجها الحيي الذي غمر قلبي بدفئه يوماً شتائياً كاملاً .

وعلى حين نطق لوثر بالعبارة القائلة إن المرء يجب أن يفنّد تعاليمه وعظاته من خلال الكتاب المقدس نفسه أو باسباب معقولة فقد خوّل العقل الانساني أن يفسر الكتاب المقدس ويشرحه . ولقد تمّ الاعتراف بالعقل على أنه القاضي الاعلى في كل المسائل الدينية التي اختُلِف فيها . وبذلك نشأ في المانيا ما يسمى بحرية العقل أو كما يسميها الناس ايضاً الحرية الفكرية . واصبح التفكير حقاً . وباتت حقوق العقل وتخويلاته مشروعة مسوغة . والحق أن المرء كان استطاع أن يفكر ويتكلم بحرية إلى حد ما منذ بضعة قرون . وجادل المدرسيون في أشياء لا نكاد نفهم منها كيف حق للمرء أن ينطق بها في العصور الوسطى مجرد نطق ، ليس غير . على أن هذا حدث بواسطة التمييز الذي قام به المرء بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة اللاهوتية ؛ وإنه لتمييز احتج به المرء احتجاجاً صريحاً على الهرطقة والالحاد . ولم يحدث هذا أيضاً إلا في داخل القاعات الجامعية وبلغة لاتينية عويصة وغامضة غموض الغوطية . على أن الشعب لم يستطع أن يفهم أي شيء بحيث إنه لم يكن ثمة ما يخشاه المرء من ضرر كبير على الكنيسة. ومع هذا فإن الكنيسة لم تكن لتسمح أبداً بمثل هذا التصرف . وبين الحين والحين كانت تحرق أيضاً فيلسوفاً مدرسياً مسكيناً . أما الآن وابتداء من لوثر فلم يعد يميز المرء بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة اللاهوتية . وكان المرء يجادل في الميادين العامة باللغة الالمانية القومية من دون خوف أو وجل .

ثم إن الأمراء الذين قبلوا بحركة الاصلاح الديني واعتنقوها اثبتوا شرعية الحرية الفكرية . ولقد ازهرت هذه الحرية الفكرية زهرة مهمة ذات اهمية للدنياهي الفلسفة الالمانية .

والحق ان العقل الانساني لم يتسن له أن يعبر حتى في اليونان على هذا النحو من الحرية كما هي الحال عندنا في المانيا وذلك بدءاً من منتصف القرن

الماضي وحتى الغزو الفرنسي[٥٩] . ولقد سادت في بروسيا بخاصة حرية فكرية لا حدود لها . وقد كان أدرك المركيز فون براندينبورغ[٦٠] أنه كان لزاماً عليه أن يحافظ على الحرية الفكرية البروتستانتية ايضاً وهو الذي لم يستطع أن يصبح ملكاً شرعياً لبروسيا إلا بواسطة المبدأ البروتستانتي .

والحق أن الأشياء تغيرت منذ ذلك الحين . فحامي حريتنا الفكرية البروتستانتية[٦١] والوصي الطبيعي عليها اتفق مع الحزب المؤيد لسيادة البابا المطلقة ليضطهد هذه الحرية . وكثيراً ما يستخدم من اجل ذلك السلاح الذي ابتكرته البابوية واستخدمته في بادئ الأمر ضدنا : ألا وهو الرقابة .

ويا للغرابة والعجب ! فنحن الألمان أقوى الشعوب وأحكمها . فأسر امرائنا وسلالاتهم تتربع على عروش أوربا كلها . كما أن آل روتشيلد[٦٢] يسيطرون على كل أسواق النقد العالمية ، وعلماؤنا يوجهون العلوم كلها ، فنحن اخترعنا البارود والمطبعة ،ـ ومع هذا فإن الشخص الذي يطلق عندنا مسدساً يدفع غرامة قدرها ثلاث قطع فضية (طالارات) . وحين نريد أن نطبع في صحيفة «هامبورغر كوريسبوندنيت» : «إن زوجتي العزيزة وضعت طفلة جميلة جمال الحرية» عندها يتناول السيد الدكتور هوفمان[٦٣] قلم الحبر ويشطب كلمة «الحرية» . هل يمكن أن يستمر حدوث هذا الشيء زمناً طويلاً ؟ لست أدري . لكنني أعرف أن مسألة حرية الصحافة التي يتناقش فيها الناس الآن في ألمانيا نقاشاً عنيفاً ترتبط على نحو مهم بالنظرات والتأملات اعلاه . وأظن أن حلها ليس صعباً إذا لم ينسَ المرء أن حرية الصحافة ليست شيئاً آخر إلا نتيجة للحرية الفكرية ، وبالتالي فهي حق بروتستانتي . ومن أجل هذا النوع من الحقوق بذل الألماني أغلى دمائه . والأرجح أن الأمر أودى به إلى أن يدخل معترك القتال مرة أخرى .

وفي الامكان ان ينطبق الشيء نفسه على مسألة الحرية الاكاديمية التي تحرك الآن عواطف الناس في ألمانيا وتثير حماستهم . ومنذ أن اعتقد المرء أنه اكتشف أن اكثر ما يسود الجامعات هو الاضطرابات السياسية ، أي حب الحرية . ومنذ ذلك الحين أوحي إلى الحكام وهمس إليهم من جميع الجهات بأن على

المرء أن يضطهد هذه المؤسسات أو أن يحولها على الأقل إلى معاهد تعليمية . عندئذ راح المرء يدبر الخطط ويناقش مالها وما عليها ، على أن أعداء الجامعات العلنيين والمدافعين العلنيين عن الجامعات الذين استنطقناهم إلى الآن ، لم يفهموا ، كما يبدو ، بواعث السؤال الأخيرة ومسوغاته . فالخصوم لم يفهموا أن الشباب في كل مكان وفي ظل كل النظم سوف يتحمس لمصالح الحرية(٦٤) وأن هذا الشباب المتوثب سيعبر عن نفسه على نحو بالغ الفعالية والنشاط في غير هذا المكان وعند اتصاله بشبيبة الطبقة العاملة والحرفيين على أرجح وجه . أما المدافعون فإنهم يحاولون أن يبرهنوا فقط على أن دمار الجامعات هو أيضاً دمار لازدهار العلم الألماني ، وأن الحرية الأكاديمية هي أيضاً مفيدة جداً للدراسات والبحوث بحيث إنَّ الشباب سيجد بذلك الفرصة الرائعة لكي يتثقف ثقافة واسعة شاملة ، لكأن الأمر متوقف هنا في كثير أو قليل على بضع كلمات يونانية !

وما قيمة العلوم كلها والدراسات أو الثقافة في نظر الأمراء إذا كان أمن عروشهم المقدس مهدداً ! فلقد كانوا ابطالاً بما يكفي لأن يضحوا بتلك الممتلكات النسبية كلها من أجل حكمهم المطلق . إذ أن الله أوكل اليهم هذه السيادة وخوّلهم إياها ؛ وحيثما تقضي السماء ينبغي أن تتراجع وتزول كل الاعتبارات الدنيوية .

وثمة سوء تفاهم سواء أكان هذا من ناحية اساتذة الجامعة المساكين الذين يمثلون الجامعات علانية أم من ناحية موظفي الحكومة ، اعداء هذه الجامعات علانية . فالدعاوة الكاثوليكية في المانيا تفهم وحدها أهمية الجامعات ، وأعداء التنوير الورعون الاتقياء هؤلاء هم أخطر أعداء نظام الجامعات لدينا ؛ ويظهر هؤلاء بمظهر المخادعين المخاتلين الكذابين الغدارين . وحتى إذا ظهر أحدهم بمظهر العطوف الودود كأن يريد أن يدافع عن الجامعات ، انكشفت المكيدة الجزويتية . على أن هؤلاء المنافقين يعرفون حق المعرفة الشيء الذي يتم الرهان عليه من أجل كسبه . إذ أن سقوط الجامعات هو سقوط للكنيسة البروتستانتية التي لا ترتبط إلا بتلك الجامعات منذ حركة الاصلاح الديني على نحو عميق الجذور بحيث إن تاريخ الكنيسة البروتستانتية كله لا يتكون في القرون الأخيرة إلا من الخلافات والخصومات اللاهوتية التي قامت بين علماء الجامعات في فيتنبيرغ ولايبزيغ

وتوبينغين وهاله . وما مجامع الكرادلة إلا انعكاس خافت ضعيف للكلية اللاهوتية وفقد هذه المجامع بالاضافة الى هذه الكلية كل ثبات وسند وصفة وطبع وتسقط في تبعية مجدبة للوزارات والشرطة ايضاً .

ولكن لنحدَّ من نطاق مثل هذه النظرات التشاؤمية ، لاسيما أننا لا نزال ملزمين هنا بالكلام على الرجل الذي عيّنته العناية الالهية ، وبواسطته حدثت أشياء عظيمة جداً بالنسبة للشعب الألماني . ولقد بيّنت أعلاه كيف توصلنا بواسطته إلى أعظم انواع الحرية الفكرية . على آن هذا الانسان مارتين لوثر لم يمنحنا حرية الحركة فحسب ، بل وسيلة الحركة ايضاً . لقد أوجد اللغة الألمانية . وحدث هذا على حين ترجم هو الكتاب المقدس .

والحق أنه يبدو أن المؤلف الرباني لهذا الكتاب قد عرف مثلما عرفنا نحن أيضاً أنه ليهمنا مَنْ هو المترجم فاختار المؤلف نفسه مترجمه ومنحه القوة العجيبة ليترجم من لغة ميتة كانت إلى حد ما مدفونة إلى لغة أخرى لم تكن موجودة بعد .

صحيح أن المرء كان يمتلك على الفولكاتا(٦٥) التي كان يفهمها ، كما أنه كان يمتلك على الترجمة السبعينية اليونانية للعهد القديم التي استطاع أن يفهمها : لكنَّ معرفة العبرية انعدمت كلياً في العالم المسيحي . فاليهود الذين اختبأوا في كل مكان في زاوية ما من زوايا هذا العالم بقوا وحدهم محافظين على تقاليد هذه اللغة وكما يحمي شبح ما كنزاً إئتُمِن عليه في الحياة في وقت مضى فإن هذا الشعب المقتول ، هذا الشعب الشبحي ، جلس هكذا في احيائه المظلمة وحافظ هناك على الكتاب المقدس العبري . وشاهد المرء العلماء الألمان ينزلون سراً إلى هذه المخابىء السيئة السمعة لكي يستخرجوا الكنز ويتعلموا اللغة العبرية . وحين لاحظت الكنيسة الكاثوليكية أن خطراً ما يحدق بها من هذه الناحية وأن هذا الشعب استطاع أن يتوصل على هذا الطريق الجانبي إلى كلمة الله الحقيقية وأن يكتشف التزويرات الرومانية ، عندها ودَّ المرء أيضاً أن يقمع التقاليد اليهودية وعزم على أن يدمر الكتب العبرية كلها . وبدأت على الراين ملاحقة الكتب التي حاربها الدكتور الفاضل رويشلين(٦٦) محاربة ناجحة .

أما علماء اللاهوت في مدينة كولونيا الذين كانوا يعملون آنذاك ولاسيما هوغشتريتين[٦٧] ، لم يكونوا أبداً محدودي الافق كما وصفهم رفيق رويشلين في الكفاح الفارس الشجاع أولريش فون هوتين[٦٨] في «رسائله عن أعداء التنوير» . وكانت المسألة مسألة قمع اللغة العبرية والقضاء عليها . وحين انتصر رويشلين استطاع لوثر أن يشرع في مؤلفه . وفي رسالة كتبها آنذاك إلى رويشلين يظهر أنه يحس مدى أهمية هذا النصر الذي أحرزه رويشلين وهو في وضع خاضع لصعوبات كثيرة على حين كان هو الراهب الاوغسطيني مستقلاً كل الاستقلال . ويقول ببساطة شديدة في تلك الرسالة : «إنني لا أخاف من شيء ذلك لأني لا أملك شيئاً»[٦٩] .

على أنني حتى هذه اللحظة لا أفهم كيف اهتدى لوثر إلى اللغة التي ترجم بها الكتاب المقدس . فاللهجة السوابية القديمة كانت قد اندثرت كل الاندثار مع شعر الفروسية في عصر القيصر الشتاوفي . أما اللهجة الساكسونية القديمة فلم تسد إلا في جزء من شمال ألمانيا . ورغم كل المحاولات التي قام بها المرء فلم يشأ لها أن تصلح أبداً لأغراض أدبية .

فإذا ما اصطنع لوثر لترجمة الكتاب المقدس اللغة التي كان الناس يتكلمونها في ساكسونيا الحالية[٧٠] فإن من حق آديلونغ أن يزعم أن اللهجة الساكسونية أو لهجة ما يسن هي في الأصل لغتنا الألمانية الفصحى وهذا يعني لغة الكتابة . على أن هذا الرأي دحض منذ زمن طويل . ولابد من ذكر ذلك على نحو أدق ذلك لأن مثل هذا الخطأ لا يزال موجوداً وسائداً إلى الآن في فرنسا . فاللهجة الساكسونية الحالية لم تكن أبداً لهجة الشعب الالماني مثلها في ذلك كمثل اللهجة السيليزية . إذ أن اللهجة الساكسونية نشأت كاللهجة السيليزية مصبوغة بصبغة سلافية ، وعلى هذا اعترف بصراحة أنني لا أعرف كيف نشأت اللغة التي نجدها في الكتاب المقدس اللوثري . على أني أعرف أنه بواسطة هذا الكتاب المقدس الذي رمت منه الطباعة الحديثة أو الفن الأسود آلاف النسخ في أحضان الشعب قد انتشرت لغة لوثر في غضون سنوات قليلة في سائر انحاء المانيا وصارت لغة الكتابة المتداولة .

ولا تزال لغة الكتابة هذه تسود ألمانيا وتضفي على هذا البلد المزق سياسياً ودينياً وحدة أدبية . إن خدمة كهذه لا تقدر بثمن يمكنها أن تعوّض لنا عند هذه اللغة عن أنها في تكوينها الحالي تفتقر إلى شيء من تلك الحرارة التي اعتدنا أن نجدها لدى لغات تكونت من لهجة واحدة . على أن اللغة في انجيل لوثر لا تفتقر أبداً إلى مثل تلك الحرارة . وإن هذا الكتاب القديم هو بالنسبة للغتنا منهلُ أزلي للتجديد واسترجاع الحيوية والشباب . وإن كل التعابير والعبارات الموجودة في انجيل لوثر هي ألمانية . وعلى أية حال يحق للكاتب أن يستعملها . ولما كان هذا الكتاب في متناول أيدي أفقر الناس فإن هؤلاء لا يحتاجون ، إذاً إلى إرشاد أو توجيه خاص من لدن العلماء لكي يتمكنوا من التعبير عن أنفسهم تعبيراً أدبياً .

وهذه الحال سوف تؤدي إلى ظواهر غريبة جداً ، هذا إذا اندلعت عندنا ثورة سياسية . وسيكون في وسع الحرية أن تتكلم في كل مكان وستكون لغتها لغة الكتاب المقدس .

وفضلاً عن ذلك فإنَّ مؤلفات لوثر الاصلية قد ساهمت أيضاً في ترسيخ اللغة الألمانية . ونفذت هذه المؤلفات بعمق إلى روح العصر بفضل روحها الجدلية المتقدة عاطفة وحماسة وإنَّ نغمتها أو لهجتها ليست دائماً نظيفة . على أن المرء لا يشعل أيضاً ثورة دينية بزهرة البرتقال . وفي بعض الأحيان يتطلب الوخم الغليظ إسفيناً غليظاً . وبدافع الرهبة من روح الاله الحاضر فإن لغة لوثر في الكتاب المقدس هي أبداً مقيدة بنوع من الوقار . على أنه في مناظراته يستسلم لفظاظة عامية مبتذلة وكثيراً ما تكون شنيعة مقيتة وبديعة فخمة في آن واحد . ومن ثم فإنَّ تعابيره وصوره لتشبه تلك التماثيل الحجرية الضخمة التي نشاهدها في مقابر المعبد الهندية أو المصرية فننفر من ألوانها الزاهية وبشاعتها الغريبة كما ننشدُّ إليها في الوقت نفسه . وبهذا الاسلوب الصخري الباروكي يظهر الراهب الجريء أحياناً بمظهر دانتون الديني أو بمظهر خطيب الجبل[٧١] الذي يقذف من فوق قمة هذا الجبل بكلماته المتعددة للألوان على رؤوس خصومه .

أما قصائد لوثر وأناشيده فهي أغرب وأهم من مؤلفاته النثرية هذه . وتشبه أحياناً زهرة تنمو على صخرة ، وأحياناً تشبه شعاع القمر يتراقص على بحر مضطرب . ولقد أحبّ لوثر الموسيقا ؛ بل إنه كتب مقالة في الفن ؛ وعلى هذا فإنَّ أناشيده على جانب عظيم من الايقاع الموسيقي . ومن هذه الناحية أيضاً فإنه جدير بأن يسمى تمَّ مدينة آيس ليبين[٧٢] . ولكنه لم يكن أبداً تمّاً رقيق الطبع في بعض أناشيده التي يستثير بها روح الشجاعة في نفوس أبناء جلدته ويحضّ نفسه فيها على حب القتال في أعنف صوره . فنشيد المعركة كان ذلك النشيد الجريء الذي دخل به هو وصحبه إلى مدينة فورمس . وارتجت الكنيسة القديمة لهذه الأنغام الجديدة وذعرت الغربان في أعشاشها المظلمة في الأبراج . ذلك النشيد الذي هو نشيد المارسيليز لحركة الاصلاح الديني قد حافظ إلى يومنا هذا على قوته التي تهتز لها النفوس :

إلهنا قلعة حصينة
وسلاح جيّد
ينقذنا من كل ضيق ، من كل شدة
نزلت بنا الآن .
والشيطان العدو الخبيث
صادق الآن في عزمه
سلاحه الوحشي
قوة كبيرة وحيلٌ كثيرة
لاشيء يضاهيه على الأرض.
قوتنا ليست بكافية.
وإننا لهالكون في القريب العاجل
فالرجل المناسب يخاصم من أجلنا
والله نفسه اصطفاه .
أتسأل من هو؟
اسمه عيسى المسيح

الاله يهوه ،
ولا إله غيره ،
يجب أن ينتصر ويظفر ببغيته .
لو كانت الدنيا مليئة بالشياطين
وأرادوا أن يبتلعونا
فلن يكون خوفنا كبيراً ،
بل سيكون النجاح حليفنا
فالشيطان [أمير هذه الدنيا]
لكم يتظاهر بالأشياء والجهامة ،
فلن يضيرنا بشيء
ذلك لأنه مدان .
وكلمة صغيرة تستطيع أن تسقطه .
يجب ألا يمحوا الكلمة أو يطمسوها
ولا شكر لهم على ذلك ،
إنها مرسومة عندنا
بروحها وعطاياها
فإن يسلبونا جسدنا
متاعنا وشرفنا ، طفلنا وزوجنا
ولنمتْ ،
فلا مكسب لهم في ذلك ،
ولابدَّ أن يبقى لنا الملكوت .

لقد أوضحت كم نحن مدينون لدكتورنا الغالي مارتين لوثر بالحرية الفكرية التي كان الأدب الحديث في حاجة إليها من أجل بقائه واستمراره . كما بيّنت كيف أوجد لنا أيضاً اللغة التي استطاع هذا الأدب أن يعبِّر بها عن ذاته . وبقي عليَّ الآن أن أضيف أنه نفسه أيضاً افتتح هذا الأدب وأنَّ هذا الأدب ، لاسيما الأدب

الجميل ، يبدأ بلوثر وأن أناشيده الدينية برهنت على أنها أولى ظاهرات هذا الأدب وتثبيت الطابع المحدد لهذا الأدب . فمن يريد الكلام على الأدب الألماني الحديث يجب أن يبدأ بلوثر وليس بهانز ساكس(٧٤) ، ابن مدينة نورينبيرغ الضيق الأفق ، كما فعل بعض الأدباء الرومانسيين عن سوء نية ماكرة . وإنَّ هانز ساكس ، تروبادور رابطة الاسكافيين الشريفة ، لم تكن قصائده إلا تقليداً هزلياً تافهاً لأغاني العشق القديمة ؛ ولم تكن مسرحياته إلا محاكاةً مضحكة خرقاء للتمثيليات الدينية القديمة(٧٥)؛ فهذا المهرج المتحذلق الذي يحاكي في جزع بساطة العصور الوسطى الحرة يمكن أن يعدَّ أبداً أول شاعر من شعراء العصر الحديث . وبهذا الصدد فلن تكون هنالك حاجة إلى أي برهان آخر إلّا أن أناقش مخالفة أدبنا الحديث للأدب القديم بعبارات محددة . وعلى هذا فإننا إذا نظرنا إلى الأدب الألماني الذي نما وازدهر قبل لوثر وجدنا أن :

١ ـ مادته ، مثلها مثل حياة العصور الوسطى نفسها ، مزيج من عنصرين غير متجانسين اشتبكا في مبارزة طويلة اشتباكاً عنيفاً بحيث إنهما اندمجا معاً في نهاية المطاف . وهذان العنصران هما القومية الجرمانية والمسيحية الغنوصية الهندية أو ما يطلق عليها المسيحية الكاثوليكية .

٢ ـ فالمعالجة أو بالأحرى روح المعالجة في الأدب القديم رومانسية . وعلى نحو تعسفي خاطىء يقول المرء الشيء نفسه عن مادة ذلك الأدب ، أي عن كل ظواهر العصور الوسطى التي نشأت من طريق انصهار العنصرين الآنفي الذكر ، عنصر القومية الجرمانية والمسيحية الكاثوليكية .

ومثلما عالج بعض شعراء العصور الوسطى التاريخ اليوناني والأساطير اليونانية معالجة رومانسية تامة ففي وسع المرء أن يصور أيضاً عادات العصور الوسطى وأساطيرها الدينية في صيغة كلاسيكية . فالتعبيران «كلاسيكي» و «رومانسي» لايتعلقان ، إذاً ، إلا بروح المعالجة . فالمعالجة تكون كلاسيكية حين يكون شكل الشيء المصور مطابقاً تمام المطابقة لفكرة الشيء الذي يجب عرضه ، كما هي الحال في الأعمال الفنية اليونانية إذ أنه يمكننا أن نجد هناك وفي هذه

المطابقة أعظم توافق وانسجام بين الشكل والفكرة ، بين الشكل والمضمون . وتكون المعالجة رومانسية حين لا يُظهرُ الشكلُ الفكرة من طريق المطابقة بل يجعلنا نحزر هذه الفكرة من طريق مثل تشبيهي . وإني لأفضّل أن اصطنع هنا لفظ «تشبيهي تمثيلي Parabolisch» عوض من لفظ «رمزي» . فالاسطورة اليونانية كان لها طائفة من اشكال الالهة . وكان في إمكان كل شكل من هذه الأشكال أن يحظى بمدلول رمزي رغم كل مطابقة بين الشكل والفكرة . على أن الشكل الالهي وحده كان محدداً في هذا المذهب اليوناني ، وماعدا ذلك ، سواءٌ أكان هذا حياتهم أم تصرفاتهم وأعمالهم ، فإنه كان متروكاً لتعسف الشاعر لكي يعالجه على هواه . على أنه لا يوجد في الديانة المسيحية أشكال آلهة من هذا القبيل، وانما هنالك حقائق معينة أو وقائع وأعمال مقدسة محددة . وهنا استطاع روح الانسان الشاعر أن يضفي عليها معاني رمزية تشبيهية . ويذهب المرء إلى أن هومير هو الذي أوجد الهة اليونان واخترعهم . وليس هذا بصحيح . فهي موجودة من قبل بملامح معينة ؛ لكنه اخترع قصصهم . على أن فناني العصور الوسطى لم يجرؤوا أبداً أن يبتدعوا شيئاً على الاطلاق في الجانب التاريخي من دينهم . فالخطيئة وتجسّد المسيح والتعميد والصلب وغير ذلك كانت وقائع وحقائق مقدسة ولم يكن مسموحاً بصياغتها ، ولكنه كان في امكان روح الانسان الشاعر أن يضفي عليها مدلول الامثولة أو الحكاية التعليمية . وبهذا الروح التشبيهي الرمزي عولجت أيضاً كل الفنون في العصور الوسطى . وهذه المعالجة هي رومانسية . ومن هنا جاء ذلك الجمهور من المتصوفة في شعر العصور الوسطى . فالاشكال هي في غاية من عدم الوضوح . وما تقوم به هذه الأشكال هو في منتهى الغموض . وكل شيء فيها جدّ أغبش كأنما يضيئها ضوء قمر متغير . فالتلميح عن الفكرة في الشكل ليس إلا كالتلميح عن لغز . وهنا نرى شكلاً مبهماً غامضاً على نحو ما كان يليق بأدب روحي . فلا وجود هنا لما هو موجود لدى اليونان وهو الانسجام الواضح بين الشكل والفكرة ؛ بل إنَّ الفكرة تفوق الشكل المعطى في بعض الأحيان . ويحاول هذا الشكل يائساً أن يدرك الفكرة ؛ وهنا نجد عظمة غريبة عجيبة : وأحياناً يغلب الشكل على الفكرة فتكون الفكرة دونه . فإذا بها فكرة ضئيلة هزيلة إلى حد السخافة تجرجر نفسها في شكل

ضخم هائل ، وإذا بنا نرى مسرحيةً هزليةً غريبة على نحو بشع مضحك . ونكاد نرى دائماً ماهو طبيعي وبعيد عن التكلف .

٣ ـ أما الطابع العام لذلك الأدب فهو أن ذلك الايمان الثابت الأكيد قد ظهر وبان في مؤلفات هذا الأدب كلها على حين كان هذا الايمان سائداً آنذاك في الأشياء الدنيوية والدينية كلها على سواء . ولقد ارتكزت آراء العصر كلها على اصحاب النفوذ والسلطة . وتمشى الشاعر بثقة بغل على طول مهاوي الشك ، ويسود مؤلفاته هدوء محفوف بالمخاطر أو طمأنينة هادئة صارت فيما بعد مستحيلة لما تهاوت سلطة البابا وانكسرت شوكته ولحقه الآخرون كلهم ، أصحاب السلطة والنفوذ . وعلى هذا كان لقصائد العصور الوسطى الطابع نفسه ، لكأنّ مؤلف هذه القصائد لم يكن انساناً واحداً ، بل الشعب كله ؛ فهي قصائد موضوعية ملحمية بسيطة .

أما في الأدب الذي نما مع لوثر وتطور فإننا نجد العكس تماماً :

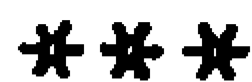
١ ـ فمادته التي ينبغي معالجتها هي صراع مصالح الاصلاح الديني وآرائه مع نظام الأشياء القديم . فذلك الايمان الخليط الذي نشأ من العنصرين المذكورين ، عنصر القومية الجرمانية والمسيحية الهندية الغنوصية مناقض كل التناقض لروح العصر الجديد . وتبدو المسيحية الهندية الغنوصية لروح العصر الجديد أنها تقوم بخدمة الاوثان التي ينبغي أن يحل محلها المذهب الحق ، مذهب الانجيل التأليهي الموسوي . ويتكون نظام جديد للأشياء ويخترع العقل اختراعات تشجع ازدهار المادة وتعزز نجاحها . وبنمو الصناعة وازدهارها ومن طريق الفلسفة يتم التشهير بسمعة المذهب الروحي . وتنهض الطبقة الثالثة وترتفع وتدوي الثورة في النفوس والأذهان . وما يحس به الزمن ويفكر به ويحتاج إليه ويريده يتم التعبير عنه . وهذه هي مادة الأدب الحديث .

٢ ـ إن روح المعالجة لم يعد رومانسياً ، وإنما كلاسيكي . وباحياء الأدب القديم عمّت أوربا كلها حماسةٌ سارة للكتاب اليونان والرومان . والعلماء الوحيدون الذين كانوا يكتبون آنذاك حاولوا أن يتبنوا روح العصر الكلاسيكي القديم أو أن

يقلدوا الصيغ الفنية الكلاسيكية في كتاباتهم على الأقل .

ولما لم يتأتَّ لهم أن يتوصلوا ، كما توصل اليونان ، إلى توافق وانسجام بين الشكل والفكرة فإنهم التزموا على نحو بالغ الصرامة بالشكل الظاهري للمعالجة اليونانية . ففصلوا ، وفق التعليمات والقواعد اليونانية ، بين الأجناس الأدبية وأمسكوا عن كل غلو رومانسي ؛ وبهذا ، ومن هذه الناحية ، نسمّيهم كلاسيكيين .

٣ ـ يكمن الطابع العام للأدب الحديث في أن الفردية والشك يسودان الآن . فأصحاب السلطة والنفوذ انهاروا . والعقل وحده هو الآن المصباح الوحيد للانسان ، وضميره هو الصولجان الوحيد في متاهات الحياة المظلمة . فالانسان يواجه الآن خالقه وحيداً ويغني له قصائده . وعلى هذا يبدأ الأدب بالأناشيد الدينية . ولكن فيما بعد وحين يصبح الأدب علمانياً دنيوياً يسود فيه الوعي الذاتي أو الشعور بالشخصية . فالشعر لم يعد الآن موضوعياً ملحمياً بسيطاً وإنما هو ذاتي وغنائي وتأملي .



السفر الثاني

لقد عالجنا في السفر السابق الثورة الدينية الكبرى التي مثلها مارتين لوثر في ألمانيا . وعلينا أن نتكلم الآن على الثورة الفلسفية التي انبثقت عن الثورة الدينية ولم تكن في الحقيقة إلا آخر نتائج البروتستانتية ، ليس غير . ولكن قبل أن نتحدث عن كيفية نشوب الثورة على يد عمانوئيل كانط لابد لنا من أن نذكر الأحداث الفلسفية في الخارج ونذكر أهمية سبينوزا ومصير فلسفة لايبنتز والعلاقات المتبادلة بين هذه الفلسفة والدين وخلافاتهما ثم القطيعة بينهما وغير ذلك . لكننا لن ننسى تلك الأسئلة الفلسفية التي نعلّق عليها أهمية اجتماعية وتنافس الدين من أجل حلها .

والسؤال الآن هو السؤال عن طبيعة الإله . ويقول المؤمنون في خشوعهم وتواضعهم : «إن الله هو أول وآخر كل حكمة» . ويجب على الفيلسوف ، وهو معتز كل الاعتزاز بعلمه ، أن يوافق على هذا القول المتدين . ليس باكون[١] ، كما اعتاد المرء أن يعلّم ، أبا الفلسفة الجديدة ، بل رينيه ديكارت[٢] وسنبيّن إلى أي حد نشأت عنه الفلسفة الألمانية .

إن رينيه ديكارت فرنسي . وإن فرنسا العظمى لجديرة هنا أيضاً بمجد الاقدام والمبادرة . على أن فرنسا الكبرى ، بلد الفرنسيين الصاخب المضطرب

المهزار ، لم تكن أبداً تربة صالحة[٣] للفلسفة التي قد لا تنمو أبداً على هذه الأرض ؛ وهذا ما شعر به رينيه ديكارت الذي توجه إلى هولندا ، بلد الهولنديين وزوارق الحمولة الهادىء الصامت : وهناك كتب ديكارت مؤلفاته الفلسفية . وهناك فقط استطاع أن يحرر عقله من الشكلية التقليدية وأن ينبي فلسفة كاملة من أفكار خالصة غير مستعارة لا من العقيدة ولا من التجربة الحسية كما سيطلب منذ ذلك الوقت من كل فلسفة حقيقية . وهناك فقط استطاع أن يغوص في أغوار الفكر ومهاويه ويقبض على ناحيته في اغوار الوعي الذاتي واستطاع من طريق الفكر أن يثبت ويؤكد الوعي الذاتي في عبارته الذائعة الصيت : «أنا أفكر ، إذاً ، أنا موجود»[٤] .

وربما لم يستطع ديكارت أن يجرؤ إلا في هولندا على أن يعلّم فلسفةً حاربت كل تقاليد الماضي محاربة علنية مكشوفة . ويشرّف ديكارت أنه بنى استقلال الفلسفة التي لم تعد بحاجة إلى أن تستجدي علم اللاهوت ليسمح لها بالتفكير[٥] : وحقّ لها الآن أن تقف إلى جانب علم اللاهوت كعلم مستقل بذاته ، ولا أقول : أن تعارض علم اللاهوت ، إذ أن المبدأ المعمول به آنذاك هو أن الحقائق التي نتوصل إليها من طريق الفلسفة هي في النهاية الحقائق نفسها التي نقلها إلينا أيضاً الدين . وكما سبق أن نوّهت فإن الفلاسفة المدرسيين لم يمنحوا الدين حق السيادة على الفلسفة فحسب ، بل إنهم أعلنوا أن الفلسفة لهوٌ تافهٌ ولعبٌ بالألفاظ فارغٌ . وذلك حين تتعارض الفلسفة مع العقائد الدينية . ولم يكن يهم المدرسيون إلا أن يعبروا عن افكارهم ، سواءٌ أكانت الشروط ملائمة أم لا . ولقد قالوا إنَّ ضرب واحد بواحد هو واحد وبرهنوا على ذلك ، لكنهم أضافوا إلى ذلك مبتسمين إنه لخطأ آخر للعقل الانساني الذي يخطىء أبداً حين يعارض مقررات المجامع الكنسية المسكونية . وإنَّ حاصل ضرب واحد بواحد هو ثلاثة[٦] ، وهذا هو عين الحقيقة كما تجلت لنا منذ زمن طويل وهي باسم الآب والابن والروح القدس ! وشكل علماء اللاهوت المدرسيون في السر معارضة فلسفية[٧] ضد الكنيسة . على أنهم كانوا يتظاهرون أمام الملأ بالخضوع الشديد ، حتى إنهم كانوا يدافعون في كثير من الأحوال عن الكنيسة . وفي أثناء المواكب كانوا يمشون في معية الكنيسة ، مثلهم

مثل نواب المعارضة الفرنسيين في أثناء احتفالات إعادة الملكية . ودامت كوميديا الفلاسفة المدرسيين اكثر من ستة قرون . وكانت تزداد ابتذالاً وتفاهة . وعلى حين حطّم ديكارت المذهب المدرسي (السكولاستي) حطم هو أيضاً معارضة العصور الوسطى التي تقادم العهد عليها . فالمكانس القديمة اهترأت من التكنيس الطويل وعلق بها الكثير من الكناسة ، وتطلب العصر الجديد مكانس جديدة . وبعد كل ثورة يجب على المعارضة الموجودة حتى الآن أن تتنازل وتستقيل ، وإلا حصلت حماقات كبيرة . ولقد شهدنا هذا الشيء . فأعداء الكنيسة الكاثوليكية القدامى ، ساقة المدرسيين الذين ناهضوا في البداية الفلسفة الديكارتية[٨] كانوا اكثر مناهضة للفلسفة الديكارتية من الكنيسة الكاثوليكية حيث إن البابا لم يمنعها إلا في سنة ١٦٦٣م .

وأجيز لنفسي أن اشترط على الفرنسيين معرفة كافية واضحة لفلسفة ابن بلدهم ديكارت العظيم . ولست هنا في حاجة إلى أن أبين كيف استطاعت المذاهب المتناقضة أن تقتبس من هذه الفلسفة المادة الضرورية واقصد هنا المذهبين : المذهب المثالي والمذهب المادي .

ولما كان المرء ، ولاسيما في فرنسا يطلق على هذين المذهبين إسمي المذهب الروحي والمذهب الحسي ولما كنت اصطنع كلتا التسميتين على نحو آخر فيجب عليَّ ، إذاً ، أن أناقش المصطلحين أعلاه بالتفصيل لكي نتلاف أي اضطراب أو بلبلة في المفاهيم .

فمنذ أقدم العصور توجد آراء متضاربة حول طبيعة التفكير الانساني ؛ وهذا يعني حول آخر اسباب المعرفة العقلية أو نشوء الأفكار . فالبعض يزعم بأننا لا نحصل على أفكارنا إلا من الخارج وأنَّ عقلنا ليس إلا وعاءً فارغاً تتحول فيه انطباعاتنا وتصوراتنا التي تلتقطها حواسنا كما تتحول الأطعمة التي تناولناها في معدتنا . ولكي نستعمل صورة أفضل فإن هؤلاء الناس ينظرون إلى العقل على أنه لوح أملس[٩] تسطر عليه التجربة فيما بعد شيئاً جديداً كل يوم وفق أحكام وأصول محددة للكتابة .

أما الآخرون المعارضون للفريق الأول فيزعمون بأن الانسان فطر على الأفكار وأن العقل هو محط الأفكار وأن العالم الخارجي والتجربة والحواس التي تقوم بدور الوسيط لا تقودنا إلا إلى معرفة ما كان موجوداً من قبل في عقلنا ، إنها توقظ هنا الأفكار الراقدة ، ليس غير .

ولقد أطلق المرء على الرأي الأول اسم المذهب الحسي ، ودعي أحياناً أخرى بالمذهب الاختباري التجريبي . أما الرأي الثاني فقد دعاه المرء بالمذهب الروحي ، وسماه أحياناً أخرى المذهب العقلي . على أنه من السهولة أن ينشأ بذلك سوء فهم ذلك لأننا نرمز منذ عهد غير بعيد ، وكما ذكرت في القسم الأول من هذا الكتاب ، بهذين الاسمين إلى النظامين الاجتماعيين اللذين يتجليان في كل مظاهر الحياة ، وعلى هذا فإننا نترك اسم المذهب الروحي لتلك العجرفة المنكرة للعقل الذي يطمح إلى تمجيدها وتعظيمها ويرمي إلى سحق المادة أو على الأقل إلى أن يدينها ويلعنها . أما اسم المذهب الحسي فإننا نتركه لتلك المعارضة التي تندد بذلك وترمي إلى إعادة اعتبار المادة وتطالب للحواس بحقوقها دون نكران حقوق العقل أو دون نكران سيادته . على أنني أفضّل أن أنعت الآراء الفلسفية في طبيعة معرفتنا باسم المذهب المثالي والمذهب المادي . وأعني بالتسمية الأولى ذلك المذهب الذي يقول إنَّ الأفكار جبلية فطرية ، أي أن الأفكار أولية قبلية ؛ وأقصد بالتسمية الأخرى المذهب الذي يقول إن المعرفة العقلية تتم بواسطة التجربة أو الحواس ، أي المذهب الذي يقول إن الأفكار بعدية لاحقة (a posteriori) والمهم هو أن الجانب المثالي للفلسفة الديكارتية لم يُرِدْ أبداً أن يجرب حظه وينجح في فرنسا . فالكثيرون من مشاهير اتباع الجنسينية[١٠] اتبعوا هذا الاتجاه فترة من الزمن ؛ لكنهم سرعان ماغابوا وتلاشوا في المذهب الروحي المسيحي . وربما كان هذا هو الوضع الذي أساء إلى سمعة المثالية في فرنسا . فالشعوب تحس احساساً غريزياً بما تفتقر إليه لكي تحقق رسالتها . وكان الفرنسيون في طريقهم إلى تلك الثورة السياسية التي نشبت في نهاية القرن الثامن عشر ؛ ومن أجل ذلك فهم في حاجة إلى فأس وإلى فلسفة مادية عنيفة . ووقف المذهب الروحي المسيحي يُناضل في صفوف اعدائه . وعلى هذا صار المذهب الحسي حليفه الطبيعي . ولما كان اتباع المذهب الحسي الفرنسيون

عادةً ماديين فقد نشأ الخطأ بأن المذهب الحسي لم ينبثق إلا عن المادية . كلا ، إن في إمكان المذهب الحسي أن يظهر أيضاً على أنه نتيجة لمذهب وحدة الوجود[١١] . وعندئذ يكون مظهره جميلاً ورائعاً . على أننا لا نريد أبداً أن ننكر على المادية الفرنسية خدماتها وافضالها . فالمادية الفرنسية كانت سماً ناجعاً ضد آفة الماضي وعقاراً ميئوساً منه في مرض ميئوس منه وزئبقاً[١٢] لشعب أصيب بمرض مُعْدٍ ، واختار الفلاسفة الفرنسيون جون لوك استاذاً لهم . فلقد كان المنقذ المخلص الذي كانوا في حاجة إليه . فمقالته «في الفهم الانساني» اصبحت انجيلهم الذي به حلفوا الايمان . وكان جون لوك[١٣] تلميذاً في مدرسة ديكارت ، ومن ديكارت كان تعلّم كل شيء يستطيع أن يتعلمه انجليزي :ـ تعلّم الميكانيكا والكيمياء والتركيب والتحليل والحساب . شيء واحد فقط لم يستطع أن يفهمه وهو الأفكار الجبلية الفطرية . وعلى هذا فقد أكمل المذهب القائل إننا نحصل على معارفنا من الخارج وبواسطة الاختبار والتجربة وجعل من العقل الانساني نوعاً من صندوق حساب ، وأصبح الانسان آلة انجليزية . كما أن هذا ينطبق على الانسان كما ركّبه تلامذة لوك ، سواءٌ أأرادوا أن يتمايزوا من بعضهم بتسميات مختلفة أم لا . وكلهم يشعرون بالخوف من آخر نتائج مبدئهم الأعلى . ويرتاع المريد كوندياك[١٤] حين يصنّفه المرء مع ألفيتوس[١٥] Helvétius أو مع هولباخ[١٦] أو ربما مع لاميتري[١٧] Lamettrie ؛ ومع هذا لابد من ذلك . وعلى هذا يحق لي أن أنعت كل الفلاسفة الفرنسيين وأتباعهم كلهم في الوقت الحاضر بأنهم ماديون . ثم إن كتاب «الانسان آلة» هو اكثر كتب الفلسفة الفرنسية منطقية وإحكاماً ؛ كما أن العنوان نفسه ينم على الكلمة الأخيرة لوجهة نظرهم الوجودية كلها .

كما أن هؤلاء الماديين كانوا في كثير من الأحيان من أتباع المذهب التأليهي[١٨] ؛ إذ أن آلة ما تتطلب ميكانيكياً . ومن ضمن الكمال الأعظم لهذه الآلة أنها تعرف كيف تفهم وتقدر المعلومات الفنية لفنان كهذا ، تارة من خلال تركيبها بالذات وتارة من خلال بقية أعمال الفنان .

ولقد حققت المادية رسالتها في فرنسا . ويحتمل أنها تنجز الآن العمل نفسه في انجلترا . وتستند الأحزاب الثورية في انجلترا أو ما يسمى بأتباع بسثيم[١٩]

أو دعاة الفلسفة النفعية على لوك . وإن هؤلاء لعقول جبارة امسكت بالمفتاح المناسب الذي استطاع المرءأن يحرك به جون بول(*)؟ إذأن جون بول هذا مادي بالفطرة ، ومذهبه الروحي المسيحي هو في اكثر الأحايين رياءٌ تقليدي أوبالأحـرى ضيق افق مادي . فالجسد يستسلم لأنّ العقل لا يهب لمساعدته . والأمر مختلف في ألمانيا ؛ فالثوار الألمان يخطئون حين يظنون أن فلسفة مادية تناسب أغراضهم . الحق أن ثورة عامة هناك أمرٌ محال مادامت مبادئها لم تستمد من فلسفة أكثر شعبية ودينية واكثر ألمانية ، ومادامت هذه المبادىء تسود وتسيطر بفضل قوة هذه الثورة وعنفها ، فأية فلسفة هي هذه ؟ ولسوف نتكلم ، فيما بعد ، على هذه الفلسفة على نحو صريح . واقول : على نحو صريح لأنني أتوقع بأن ألمانيين أيضاً سيقرأون هذه الصفحات .

ومنذ زمن قديم أظهر الألمان نفورهم من المذهب المادي ؛ وعلى هذا كانت المانيا طوال قرن ونصف القرن المسرح الحقيقي الفعلي للمذهب المثالي . كما أن الألمان أنفسهم توجهوا إلى مدرسة ديكارت ، والتلميذ العظيم لديكارت كان اسمه غوتفريد فيلهيلم لا يبنتز[٢٠] . ومثلما سلك لوك الاتجاه المادي فإنَّ لايبنتز سلك الاتجاه المثالي للاستاذ . وهنا نجد على نحو بالغ التحديد المذهب القائل بالأفكار الجبلية الفطرية . ولقد هاجم لوك في مؤلفه «محاولات جديدة في العقل الانساني» .

وبوجود لايبنتز نشأت حماسة كبيرة للدراسات الفلسفية عند الالمان . فلقد أيقظ الأذهان ووجهها في مسارات جديدة . ورغم التسامح الباطني الملازم لأعماله ورغم الروح الديني الذي أنعش مؤلفاته فقد تم التوفيق إلى حد ما بين الأذهان المعارضة أيضاً وبين جرأة المؤلفات . وتظهر جرأة هذا المفكر في مذهبه عن الموناد[٢١] ، أي الوحدات أو عناصر الوجود الأولية ؛ وهذا المذهب هو إحدى أغرب الفرضيات التي سبق أن تمخّض عنها فكر فيلسوف . وإن هذا لأفضل ما قدّمه لايبنتز ؛ إذ أنه أخذت تلوح في هذا المذهب معرفة أهم القوانين التي ادركتها

(★) جون بول : هو اسم رمزيّ يطلق على الشعب الانجليزي ، أي يرمز الى الحل انجليزي

الفلسفة في أيامنا هذه . ولعل مذهب الموناد لم يكن إلا صياغة غير متناسقة عبّر عنها الآن فلاسفة الطبيعة في عبارات أفضل . وكان ينبغي عليّ أن أقول «صيغة» عوض من «قانون» . إذ أن نيوتن[٢٢] على صواب حين يقول إنَّ الشيء الذي نسميه «قوانين» في الطبيعة لا وجود له في الحقيقة وأن هذه القوانين ليست إلا صيغاً تعين قوة إدراكنا واستيعابنا على تفسير سلسلة من الظواهر الطبيعية .

ولقد نوقش «العدل الالهي» في ألمانيا اكثر مما نوقشت مؤلفات لايبنتز كلها . على أن رسالة «العدل الالهي» هي أضعف مؤلفات لايبنتز ، فهذا الكتاب الذي يظهر فيه روح لايبنتز الديني كما يظهر في بعض المؤلفات الأخرى قد عرّضه لسمعة سيئة بعض الشيء ولشيء من سوء التقدير والاستخفاف . ولقد اتهمه خصومه بأشد أنواع الضعف العقلي تمهّلاً واسترخاء . أما اصدقاؤه الذين دافعوا عنه فقد جعلوا منه منافقاً ماكراً . وبقي طبع لايبنتز عندنا موضوع الجدل زمناً طويلاً . ولم يستطع أرخص الناس وأضعفهم أن ينفوا عنه تهمة الغموض . واكثر من طعن فيه هم احرار الفكر الدنيويون الملحدون وفلاسفة التنوير . فمن أين لهم أن يغفروا لفيلسوف دافع عن الثالوث وعن عقاب جهنم الأزلي وحتى عن ألوهية المسيح ! فتسامحهم لم يشمل مثل هذه الأمور . على أن لايبنتز لم يكن أحمق ولا وغداً . ومن عليائه المتناسقة استطاع أن يدافع عن المسيحية كلها دفاعاً مجيداً . وأقول المسيحية كلها ذلك لأنه دافع عن هذه أمام نصف المسيحية أو امام المسيحية الناقصة غير الكاملة . فلقد بيّن نتائج الأرثوذكسية خلافاً لنصفية اعدائها ونقصهم . ولم يبتغ أكثر من ذلك أبداً . ومن ثم آثر نقطة التعادل[٢٤] حيث لا تكون أشد الأنظمة اختلافاً[٢٥] إلا جوانب مختلفة للحقيقة نفسها . وهذه النقطة ، نقطة التعادل ، ادركها السيد شيللنغ فيما بعد ، ثم برهن عليها هيجل علمياً على أنها نظام النظم . وعلى النحو نفسه انشغل لايبنتز بالانسجام بين افلاطون وارسطو . كما أن هذه المسألة وردت عندنا فيما بعد بما فيه الكفاية . فهل تم حلها ؟

كلا ، وألف كلا ! إذ أن هذه المسألة ليست إلا تسوية للنزاع والمخاصمة بين المثالية والمادية . وإنَّ أفلاطون[٢٦] هو في الحقيقة مثالي ولا يعرف إلا الأفكار الجبلية الفطرية : ـ فالمرء يصطحب معه الأفكار إلى دنيا الوجود ، وحين يتذكرها

تبدو له كأنها ذكريات من أيام قديمة . ومن هنا جاء هذا الشيء الغامض المبهم عند أفلاطون . فهو يتذكر بكثير أو بقليل من الوضوح . أما عند أرسطو[٢٧] فكل شيء واضح ؛ كل شيء بيّنٌ وكل شيء مؤكد . إذ أن معارفه ومعلوماته لا تتجلى فيه بعلاقات أولية سابقة في وجودها للكون ؛ وإنما يستمدها من التجربة والاختبار ويعرف كيف يصنّف كل شيء على أدق وأكمل وجه . وعلى هذا يبقى ارسطو ايضاً نموذجاً وقدوة للتجريبيين كلهم . فهؤلاء لا يفون الله حقه من الحمد والتسبيح بأنه جعل ارسطو معلماً للاسكندر وأن كثيراً من الفرص أتيحت له في أثناء فتوحات الاسكندر كي يرفع من شأن العلم وينهض به وأن تلميذه المنتصر وهبه آلاف الطالنات[٢٨] لأغراض تتعلق بعلم الحيوان . ولقد استغل الاستاذ الكبير هذه الأموال بدقة فشرّح عدداً كبيراً من الحيوانات الثديية وحنّط طيوراً وتوصل في أثناء ذلك إلى أهم النظرات والتأملات . على أن الوحش الكبير الذي كان أمام ناظريه وأقرب إليه من أي شيء آخر وكان ربّاه هو بنفسه وكان اكثر غرابة من معرض الحيوانات العالمي كله فإنه ، للأسف ، تجاهله ولم يدخله في دائرة بحوثه . والحق أن ارسطو تركنا من دون أن نعرف شيئاً عن طبيعة ذلك الملك الشاب الذي ما زلنا نعجب بحياته وأعماله اعجاباً شديداً على أنهما اعجوبة ولغز . فمن كان الاسكندر ؟ وماذا أراد ؟ هل كان مجنوناً أم إلهاً ؟ وإلى الآن فإننا لا نزال نجهل ذلك . ويزودنا أرسطو بأفضل المعلومات عن فصيلة القردة البابلية الطويلة الذيل وعن الببغاوات الهندية والمسرحيات اليونانية المأساوية التي شرّحها[٢٩] هو أيضاً .

أفلاطون وارسطو ! إن هذين ليسا بنظامين فحسب ، بل إنهما أيضاً نموذجان لطبيعتين بشريتين مختلفتين يعارضان بعضهما منذ زمن سحيق ومن خلال الأزياء كلها معارضة عدائية تشتد أو تضعف . وفي العصور الوسطى كلها ساد مثل هذا الصراع ولايزال يسود إلى يومنا هذا على أكمل وجه . ويشكل هذا الصراع أهم موضوعات تاريخ الكنيسة المسيحي . فالحديث يتناول أبداً افلاطون وأرسطو ، وإن كان هذا تحت أسماء أخرى . وتظهر طبائع افلاطونية صوفية غامضة حالمة الأفكار المسيحية والرموز المماثلة من اعماق أغوار روحها . وتبني طبائع ارسطو طاليه منظمة عملية من هذه الأفكار والرموز نظاماً ثابتاً متماسكاً أو

مذهباً ايقانياً وعبادة . وتضم الكنيسة في النهاية كلتا الطبيعتين على حين تترسخ احداهما في رجال الدين وتتحصن الأخرى في الرهبان ؛ على أنهما تبقيان في نزاع وحرب دائمين . ويظهر الصراع نفسه في الكنيسة البروتستانتية . إنه الانقسام بين التقويين[٣٠] الارثوذكس الذين يماثلون إلى حد ما المتصوفة الكاثوليكيين والقطعيين (الدوجماتيقيين) . والتقويون البروتستانت هم متصوفة من دون خيال ، أما الأرثوذكس البروتستانت فهم قطعيون (دوجماتيقيون) من دون عقل .

وإننا لنجد هذين الفريقين البروتستانتيين كليهما في صراع مرير في عهد لايبنتز . وتدخلت فيما بعد فلسفة لايبنتز وذلك لمّا تمكّن كريستيان فولف من هذه الفلسفة وجعلها تلائم متطلبات العصر وحاضر فيها باللغة الألمانية ، وكان هذا هو الأهم . وقبل أن نروي المزيد من التفاصيل عن هذا التلميذ ، تلميذ لايبنتز ، وعن آثار فكره وطموحه وعما آل إليه المذهب اللوثري فيما بعد يجب علينا أن نذكر الرجل الذي اختارته العناية الالهية وكان قد تثقف في مدرسة ديكارت إلى جانب لوك ولايبنتز في آن واحد ونظر إليه الناس وقتاً طويلاً بعين الاحتقار والكراهية ؛ ولكنه ، مع هذا ، سما في عصرنا الحاضر إلى سيادة عقلية فريدة .

وإني لأتكلم على بينيديكت سبينوزا[٣١] .

وتتكون روح خلاقة جبارة بواسطة روح خلاقة أخرى ومن طريق الاحتكاك اكثر منه من طريق الاندماج أو التمثيل . لؤلؤة تصقل لؤلؤة أخرى . وبذلك فإنّ فلسفة ديكارت لم تنجب أبداً فلسفة سبينوزا ، بل عززتها ، ليس غير . وعلى هذا ، وفي بادىء الأمر ، نجد عند التلميذ منهج المعلم الذي هو كسب عظيم . ثم إننا لنجد عند سبينوزا ، كما هي الحال عند ديكارت ، البرهنة الرياضية أو الاستدلال المستمد من الرياضيات . وهذا عيبٌ كبير[٣٢] . فالصيغة الرياضية تضفي على سبينوزا مظهراً جافاً صارماً . على أنه هذا أشبه بقشرة اللوز القاسية . أما اللب فيبعث على البهجة الشديدة .

وحين نقرأ سبينوزا يتملكنا شعورٌ أشبه بالشعور الذي ينتابنا حين ننظر إلى الطبيعة العظيمة في سكونها المفعم بالحيوية المفرطة . إنه غابة من الأفكار العلوية

قممها في حركة صاخبة على حين ترسخ جذوعها الثابتة في الأرض الأزلية . وثمة نفحة ما غامضة في مؤلفات سبينوزا تلفحنا كما تلفحنا أنسام المستقبل . ولعل روح الأنبياء العبريين(٣٣) مازال يخيم على حفيدهم المتأخر . وإن فيه لجدّاً ورزانة واعتداداً بالنفس وهيبة فكرية أبية تبدو كذلك نصيباً من الميراث ؛ إذ أن سبينوزا كان ينتمي إلى أسر الشهداء التي طردها من اسبانيا آنذاك أشدُّ الملوك تعصباً للكاثوليكية . ويضاف إلى هذا أيضاً جلد الهولندي وصبره الذي يبين ابداً في حياة هذا الرجل وفي مؤلفاته أيضاً على سواء . والثابت المؤكد هو أن التحول الذي طرأ على حياة سبينوزا كان كاملاً بلا عيب فيه وكان خالصاً لم تشبه شائبة مثله في هذا كمثل حياة ابن عمه الالهي ، عيسى المسيح . ومثلما عانى المسيح عانى سبينوزا في سبيل تعاليمه وحمل إكليل الشوك كما حمله المسيح . فجوليات موجود في كل مكان تعبر فيه عقلية كبيرة عن افكارها .

فيا أيها القارىء العزيز ، إذا جئت إلى مدينة امستردام فاقصد البيعة الاسبانية هناك ليريك إياها المستخدمون . فهذه البيعة بناء جميل ، حيث ينهض السقف على أربعة اعمدة ضخمة وينتصب المنبر في الوسط ؛ ومن على هذا المنبر أعلن الحرم(٣٤) آنذاك على مزدري الشرع الموسوي الفارس دون بينديكت دي سبينوزا . وبهذه المناسبة نفخ في قرن تيس اجوف يسمى شوفار . ولابد أن يكون لهذا القرن قصة رهيبة . فمن إطلاعي على حياة سالمون ميمون(٣٥) حاول حاخام ألتونا آنذاك أن يرد تلميذ كانط إلى العقيدة القديمة . ولما أصر هذا بعناد على هرطقته الفلسفية هدد الحاخام وتوعد وأبرز له القرن المجوف (الشوفار) متفوهاً بالعبارة المريبة : «أتعرف ماهذا ؟» ولكن حين أجاب تلميذ كانط برباطة جأش : «إنه قرن تيس !» عندها سقط الحبر على قفاه رعباً .

ورافق هذا القرن المجوف الحرم الكنسي . وتم الاحتفال بطرده من الطائفة الاسرائيلية وأعلن أنه غير جدير بأن يحمل اسم يهودي . وكان خصومه المسيحيون سمحاء بما يكفي لأن يتركوا له هذا الاسم . أما اليهود ، حراس المذهب التأليهي السويسريون(٣٦) فكانوا قساة ولم يعرفوا الرحمة . ويشير المرء إلى الميدان القائم

امام البيعة الاسبانية في امسترد ام حيث طعن هؤلاء الحراس سبينوزا بخناجرهم الطويلة .

وما تمالكت أن ألفت النظر بوجه خاص إلى مثل هذه المحن الشخصية التي نزلت بهذا الرجل . فلم تصنعه المدرسة وحدها ، بل صنعته الحياة أيضاً . وهذا ما يميزه من معظم الفلاسفة . ونرى في مؤلفاته تأثير الحياة غير المباشر . ولم يكن علم اللاهوت في نظره علماً فحسب ، بل كان أيضاً سياسة . ولقد تعلم هذا أيضاً بالممارسة . فأبو معشوقته شنق في هولندا لجرم سياسي . وليس ثمة مكان في العالم يشنق المرء فيه على أسوأ وجه كما يشنق في هولندا . وليس عندكم أي تصور عما يتخذه المرء من استعدادات واحتفالات رسمية لا نهاية لها في اثناء عملية الشنق . فالمحكوم عليه يموت من الملل ، والمشاهد لديه الوقت الكافي للتأمل . وعلى هذا فأنا مقتنع بأن بينديكت سبينوزا قد فكر ملياً بإعدام فان ايندي[٣٧] العجوز ؛ وكما أنه فهم الدين سابقاً بخناجرهم فإنه فهم الآن أيضاً السياسة بحبال مشانقهم . وبحثه في «السياسة واللاهوت» يبين ذلك[٣٨] .

وما عليَّ إلا أن أؤكد على الطريقة التي يقترب بها الفلاسفة من بعضهم على نحو كثير أو قليل ؛ ولن أبيّن إلا درجات القرابة أو التشابه وترتيب الورثة . ثم إن فلسفة سبينوزا ، الابن الثالث لديكارت وكما يعلّمها في مؤلفه الاساسي «علم الأخلاق»[٣٩] ، تبتعد عن مادية أخيه لوك ابتعادها عن مثالية أخيه لايبنتز . ولا يضني سبينوزا نفسه بالسؤال بطريقة تحليلية عن آخر علل معرفتنا . فهو يعطينا تركيباً كبيراً وتفسيراً للالوهية .

ويعلّمنا بينديكت سبينوزا أنه لا يوجد إلا جوهر واحد[٤٠] وهو الاله . وهذا الجوهر الواحد لا متناهٍ ، إنه مطلق . ومنه تشتق كل الجواهر المتناهية ويحتويها وتبرز منه وتغيب فيه ، وليس لها إلا وجود نسبي مؤقت وعرضي . ويتجلى لنا الجوهر المطلق في صيغة التفكير اللامتناهي وفي صيغة الامتداد اللامتناهي على سواء . وكلاهما ، التفكير اللامتناهي والامتداداللامتناهي، صفتان للجوهر المطلق . ولا ندرك إلا هاتين الصفتين . وقد يكون لله ، الجوهر المطلق ، صفات أخرى لا

نعرفها : «فأنا لا أقول إنني أعرف الله معرفة تامة ؛ لكنني أقول إنني أرى صفات معينة ، ولو أنها ليست كل الصفات أو حتى الجانب الأعظم منها» .

فالجهل والغل وحدهما استطاعا أن يصفا هذا المذهب بصفة «الإلحاد»(٤١) . وما من أحد سبق أن تكلم على الالوهية على نحو رفيع وعظيم كما فعل سبينوزا . وعوض من أن يقول إنه ينكر الاله ، فإن في وسع المرء أن يقول إنه ينكر الانسان . فالأشياء المتناهية كلها ليست عنده وفي نظره إلا أشكالاً وأنماطاً للجوهر المطلق . فالأشياء المتناهية كلها يتضمنها الاله . وما العقل الانساني إلا شعاع من الفكر اللامتناهي . وما الجسد الانساني إلا ذرة من الامتداد اللامتناهي . فالله هو علّة العلل اللامتناهية لكل من الروح والجسد ، وهو الطبيعة الخلاقة الفعالة في وحدتها وفعلها السببي .

وفي رسالة إلى مدام دي ديفان(٤٢) يظهر فولتير في كامل ابتهاجه من خاطر خطر ببال هذه السيدة التي كانت عبّرت عن رأيها في أن كل الأشياء التي لا يستطيع الانسان أن يعرفها اطلاقاً هي بالتأكيد من النوع الذي لن تنفعه معرفتها شيئاً أبداً . وأود أن أطبق هذه الملاحظة على عبارة سبينوزا التي اوردتها اعلاه بأسلوبه وهي أن الالوهية لا ترجع إليها صفتا التفكير والامتداد وحدهما ، الصفتان اللتان يمكن ادراكهما ، بل ترجع إليها صفات أخرى ايضاً ليس في امكاننا ادراكها . وإن الشيء الذي لا نستطيع ادراكه ليس بذات قيمة لنا ؛ فهو على الأقل ليس بذات قيمة من الناحية الاجتماعية حيث ينبغي تجسيد الشيء المدرك بالعقل . وعلى هذا فإننا في تفسيرنا لجوهر الاله نشير إلى تينك الصفتين اللتين يمكن ادراكهما . وأخيراً فإن كل ما نسميه صفات الاله ليس هو في الحقيقة إلا صيغة أخرى لنظرتنا وتصورنا . وهذه الصيغ المختلفة تكون متماثلة في الجوهر المطلق . وما الفكرة في آخر المطاف إلا الامتداد اللامرئي ؛ كما أن الامتداد ليس إلا الفكرة المرئية . وبهذا ندخل في صميم فلسفة الهوية الألمانية(٤٣) التي تتميز أبداً في جوهرها من مذهب سبينوزا ، ومع هذا كله فقد يعترض السيد شيللنغ(٤٤) بحدّة على أن فلسفته تتميز من مذهب سبينوزا وأنها «تداخل حيوي لما هو مثالي وواقعي» وأنها تنماز من السبينوزية «مثلما تنماز التماثيل اليونانية الرشيقة من النماذج

الأصلية المصرية الجامدة» . ومع هذا يجب أن أبين على نحو بالغ التحديد بأن السيد شيللنغ لم يتميز بشيء على الاطلاق من سبينوزا وذلك في الفترة المبكرة ولما كان لايزال فيلسوفاً(٤٥) بل إنه لم يتوصل إلى الفلسفة نفسها إلا على طريق آخر ؛ ولابد لي من أن أوضح هذا فيما بعد وذلك حين أتحدث عن الكيفية التي سلك بها كانط سبيلاً جديداً وتبعه فيشته وسار في أعقابه السيد شيللنغ يتخبط في ظلام الفلسفة الطبيعية حتى يجد نفسه أخيراً وجهاً لوجه أمام تمثال سبينوزا العظيم .

ولفلسفة الطبيعة الحديثة فضلها فقط في أنها أكدت على نحو بالغ الدقة والبراعة الموازاة الأبدية السائدة بين العقل والمادة . وأقول العقل والمادة واصطنع هذين التعبيرين مرادفاً لما يسميه سبينوزا الأفكار والامتداد . ومرادف ايضاً إلى حد ما ذلك الشيء الذي يسميه فلاسفة الطبيعة عندنا العقل والطبيعة أو المثالي والواقعي .

وبالتالي فإنني لن اسمي مذهب سبينوزا بمذهب وحدة الوجود؛ بل إني لأسمي عقليته بذلك . فمذهب وحدة الوجود يسلم بوحدة الاله أو واحديته مثله كمثل مذهب التأليه . على أن إله القائلين بوحدة الوجود موجود في الكون نفسه ، لا على أنه ينفذ إليه ويغمره بألوهيته على نحو ما حاول القديس أوغسطين أن يوضحه حين شبه الاله ببحر عظيم والكون باسفنجة كبيرة تتوسط هذا اليم وتمتص هذه الالوهية :ـ كلا، فالكون ليس مشرباً بالاله ، وانما هو مماثل للاله . فالله الذي سمّاه سبينوزا الجوهر الواحد وسماه الفلاسفة الالمان المطلق هو «كل شيء موجود» ؛ فهو مادة وروح على سواء ؛ وكلاهما متساوٍ بطابعه الالهي . وإنَّ مَنْ يسيء إلى المادة المقدسة فهو آثم مثله كمثل مَنْ يقارف إثماً في حق الروح القدس .

ويتميز إله القائلين بوحدة الوجود من إله القائلين بمذهب التأليه في أنه موجود في الكون نفسه على حين يكون إله هؤلاء موجوداً خارج الكون أو أنه فوق الكون ، وهذا أمر سواء . فإله القائلين بمذهب التأليه يحكم الكون من علٍ بصفته مؤسسة منفصلة عنه . على أن القائلين بمذهب التأليه لا يختلفون فيما بينهم إلا في ما يتعلق بنوع هذا الحكم ، لا غير . فالعبريون يتصورون الاله على أنه طاغية

جبار . أما المسيحيون فيرونه أباً محباً . ويتصوره تلامذة روسو[٤٦] ومدرسة جينيف كلها فناناً حكيماً صنع الكون كما صنع أبوهم ساعاته تقريباً . ولما كانوا يفهمون بالفن فإنهم يعجبون بهذا العمل ويقرظون المعلم المبدع في عليائه .

أما القائل بمذهب التأليه الذي يسلّم بإله موجود خارج الكون أو فوقه فإنه يرى العقل وحده مقدساً وينظر إليه على أنه روحٌ إلهي نفخه خالق الكون في الجسد الانساني الذي جبله بيديه من طين .وعلى هذا يعدُّ اليهود الجسد شيئاً تافهاً وغطاءً رثاً للروح القدس أو للروح الذي أولوه العناية والاحترام والتقديس . وبهذا صاروا في الحقيقة شعب الروح في نقائه وقناعته وجدّيته وتجرده وعناده وأهليته للاستشهاد . كما أن عيسى المسيح هو عندهم أسمى وأجلّ زهرة . والمسيح ، بكل مافي الكلمة من معنى ، هو الروح المجسد . وإنها لذات معنىً عميقٍ تلك الاسطورة الجميلة التي تقول إن عذراء نقية طاهرة لم يمسسها بشرٌ قد حملت به حملاً روحياً[٤٧] ، ليس غير ، ثم ولدته .

أما إذا كان اليهود قد نظروا إلى الجسد نظرة ازدراء واحتقار فقد سار المسيحيون على هذا الطريق شوطاً أبعد ونظروا إلى الجسد على أنه شيء محتقر وشيء خبيث ، بل على أنه الشر بعينه . وهنا ، وبعد مضيّ قرون عدة على ميلاد المسيح ، نرى ديناً يطلع ، وسيدهش هذا الدين البشرية أبد الدهر وسيحوز لدى آخر الأجيال على أشد أنواع الاعجاب هولاً ورهبة . والحق أنه لدين عظيم ومقدس تملأه غبطة ازلية . ولقد أراد هذا الدين أن يحقق للعقل السيادة المطلقة على وجه الأرض . على أن هذا الدين كان في غاية من السمو والنقاء والخير لهذه الدنيا حيث كان في الامكان الاعلان عن فكرة هذا الدين نظرياً ؛ ولكنه لم يكن في الامكان أبداً تطبيق هذه الفكرة عملياً . وفي التاريخ تتمخض عن محاولة القيام بهذه الفكرة ظواهر رائعة لا حصر لها . وسيظل الشعراء في كل زمان يتغنون بها زمناً طويلاً . أما المحاولة لتحقيق فكرة المسيحية فقد أخفقت ، كما رأينا ، على نحو ذريع . وهذه المحاولة الخائبة كلفت الانسانية ضحايا لا حصر لها . والنتيجة المحزنة لذلك هي وضعنا الاجتماعي الحالي المريض الذي يسود في ارجاء اوربا قاطبة . وإذا كنا لا

نزال نعيش ، كما يعتقد الكثيرون ، في طور الشباب الذي تمرّ به البشرية فإن المسيحية تدخل عداد افكارها الطلابية الطنانة التي تقدر القلب اكثر مما تقدّر العقل . فالمادة ، أو ماهو دنيوي ، تركتها المسيحية لقيصر ولخدمه وحشمه اليهود[٤٨] واكتفت بأن تنكر السيادة على القيصر وتفضح الخدم اليهود أمام الملأ . على أن السيف المكروه والمال المحتقر قد حازا في النهاية على السلطة العليا . وكان على ممثلي الروح والعقل أن يتفاهموا مع هؤلاء ويتفقوا . والحق أنه انبثق عن هذا التفاهم تحالف وتضامن . فلم يتحالف القساوسة الرومان فحسب ، بل تحالف القساوسة الانجليز والبروسيون وكل طبقة القساوسة المتمتعة بالامتيازات مع القيصر ورفقاء الشر لاضطهاد الشعوب[٤٩] . على أن المذهب الروحي سرعان ما انهار بهذا التحالف . وهذا ما عرفه بعض القساوسة . فلكي ينقذوا الدين فإنهم يتبجحون ويتمجحون لكأنهم نفضوا أيديهم من ذلك التحالف المهلك ويدخلون في صفوفنا[٥٠] ويعتمرون القلانس الحمراء ويضمرون الكراهية والموت للملوك كلهم ، مصاصي الدماء السبعة ، ويطالبون بمساواة حكام الدنيا ويلعنون رغم أنف مارات[٥١] وروبسبيير[٥٢] . وبيني وبينكم فإذا أنعمتم النظر وجدتم أنهم يتلون القداس بلغة اليعاقبة ، ومثلما خبأوا السم في خبز القربان المقدس ودسوه للقيصر فإنهم يحاولون أن يدسوه الآن للشعب في خبز القربان المقدس على حين يخفون مثل هذا الخبز في السم الثوري ؛ إذ أنهم يعرفون بأننا نحبّ هذا السم .

على أن مساعيكم هذه كلها من غير طائل ! فالبشرية كلها ملّت وسئمت من خبز القربان كله وتصبو الى طعام وافر الغذاء وإلى خبز حقيقي ولحم طري . وتبتسم البشرية في رثاء وشفقة من المثل العليا للشباب ، هذه المثل التي لم تستطع أن تحققها رغم كل جهد ، وتصبح البشرية عمليةً فاعلةً فعل الرجال . فالبشرية تجل الآن نظام المنفعة الدنيوي وتفكر في جد بأثاث ينم على ثراء بورجوازي وبتدبير منزلي معقول وبراحة في سن متقدمة . ثم إنه لن يعود هنالك بعد الآن حدث عن ترك السيف في يدي القيصر أو ترك الأكياس في أيدي خدمه ، وينتزع من خدمة الامراء الشرف المتمتع بامتيازات وتتحرر الصناعة من العار القديم . وبالتالي فإنّ المهمة القادمة هي أن نكون اصحاء سليمي الجسم . إذ أننا لا نزال نشعر بالوهن

الشديد في مفاصلنا . فمصاصو الدماء المقدسون في العصور الوسطى كانوا قد امتصوا الكثير من دمائنا . وينبغي أن تذبح للمادة ذبائح كفارة كبيرة لكي تغتفر كل الاهانات القديمة . لا بل قد يكون هذا من الحكمة وحسن الرأي حين ننظم المهرجانات ونكرم المادة بالغ التكريم بالمزيد من التعويض . إذ أن المسيحية العاجزة عن محق المادة كانت قد شهرت بها في كل مكان وازدرت انبل المتع والملذات ، وكان على الحواس أن تنافق ونشأ الكذب والخطيئة . وعلينا أن نلبس نساءنا اثواباً جديدة وافكاراً جديدة وعلينا أن نضمّخ مشاعرنا بالبخور كما نفعل بعد طاعون تمَّ الشفاء منه .

والغرض التالي لمؤسساتنا الجديدة سيكون كذلك رد الاعتبار للمادة وإعادتها إلى مكانتها والاعتراف الاخلاقي بها وتقديسها تقديساً دينياً ومصالحتها مع العقل أو الروح . ويتزاوج من جديد روح الوجود مع الطبيعة أو المادة . ثم إن انفصالهما العنيف كما صورته احدى الأساطير الهندية تصويراً عميقاً ، قد أدى إلى تمزق الوجود وخلق الشر .

فهل عرفتم الآن ما الشر في الكون ؟ لقد عاب علينا القائلون بالمذهب الروحي أبداً أن الفرق بين الخير والشر يتوقف عند نظرة القائلين بمذهب أحادية الوجود . هذا وإنَّ الشر من جهة ماهو إلا وسواس نظرتهم الخاصة في الحياة ، ومن جهة أخرى هو نتيجة واقعية لترتيباتهم الدنيوية الخاصة . وبحسب نظرتهم في الحياة فإن المادة في حد ذاتها خبيثة شريرة . وهذا بدوره ليس إلا افتراء ، إنه كفران رهيب بالرب . فالمادة لا تصبح خبيثة شريرة إلا إذا اضطرت إلى أن تكرّس نفسها سراً ضد اغتصابات العقل أو إذا فضحها العقل وندد بها امام الملأ أو إذا باعت نفسها بدافع احتقار الذات أو إذا ثأرت لنفسها من العقل والروح بحقد مرده اليأس . وبهذا لا يصبح الصبر إلا نتيجة لترتيب الوجود الروحي .

إن الله مماثل للوجود . فهو يتجلى في النبات الذي يعيش حياة مغناطيسية كونية خالية من الوعي والشعور . ويتجلى في الحيوانات التي تحس في حياة الأحلام الحسية بوجود يشتد أو يقل غموضاً وعتمة . ولكنه يتجلى على نحو بالغ

الروعة والعظمة في الانسان الذي يحس ويفكر في آنٍ واحد ويعرف كيف يميز نفسه من الطبيعة الموضوعية ويحمل في عقله الأفكار التي تعلن عن نفسها في عالم الظواهر . وفي الانسان تصل الالوهية إلى الوعي بذاتها . وإن مثل هذا الوعي بالذات تظهره من جديد من خلال الانسان . على أن هذا لا يحدث في الانسان الفرد أو من خلال الانسان الواحد ، وإنما في الانسانية وبواسطة الانسانية جمعاء بحيث لا يدرك ولا يصور كل انسان إلا جزءاً من الكون الالهي ؛ على أن البشرية كلها ستدرك وستصور الكون الالهي كله في الفكر والواقع .

وقد تكون رسالة كل شعب أن يدرك جزءاً معيناً من ذلك الكون الالهي ويظهره وأن يفهم سلسلة من الظواهر ويجسّد سلسلة من الأفكار وأن ينقل النتيجة للشعوب القادمة فيما بعد التي تترتب عليها المهمة نفسها ، وعلى هذا كان الاله البطل الحقيقي لتاريخ الكون ، وهذا التاريخ هو تفكيره الدائم وعمله الدائم وكلمته وفعله . وفي الإمكان القول عن البشرية كلها إنها تجسيد للاله وحلول له ! وإنه لرأي خاطىء أن هذا المذهب ، مذهب أحادية الوجود ، قاد البشر إلى اللا تفريقية . وعلى الضد من ذلك فإن الشعور بألوهيته سيحث الانسان أيضاً إلى إظهار هذه الألوهية . وهنا فقط سوف تمجد وتعظم الأعمال الجليلة الحقيقية للبطولة الحقيقية هذه الأرض .

إن الثورة السياسية التي تنهض على مبادىء المادية الفرنسية لن تجد لها أي خصوم في القائلين بمذهب احادية الوجود ؛ بل ستجد انصاراً استمدوا اقتناعاتهم ومعتقداتهم من مصدر أعمق ، أي من تركيب ديني . وإننا نعزز خير المادة وسعادة الشعوب المادية ، لا لأننا نزدري العقل مثل الماديين ، وإنما لأننا نعرف أن ألوهية الانسان تظهر نفسها أيضاً من مظهره الجسدي وأن الشقاء يدمر الجسد الذي هو صورة الاله ، أو يذهل ، وبذلك ينهار العقل أيضاً .

إن العبارة الثورية العظيمة التي نطق بها سان جوست[٥٣]: الخبز هو حق الشعب» هي عندنا : «الخبز هو الحق الالهي للانسان» . إننا لا نناضل من أجل حقوق الشعب الانسانية ، بل من أجل حقوق الانسان الالهية . وفي هذا الصدد ،

وفي اشياء أخرى عديدة ، نتميز نحن من رجال الثورة . إننا نأبى أن نكون لا متسرولين[٥٤] ، ونأبى أن نكون مواطنين بسطاء مقتصدين أو رؤساء رخصاء . إننا نبني ديمقراطية أربابٍ متساوين في السمو والعظمة والقداسة والغبطة . فأنتم تطالبون بثياب بسيطة وعادات فيها زهد وقناعة وملذات غير منكهة . أما نحن فنطالب برحيق الالهة وطعامهم وبمعاطف ارجوانية وعطورنفيسة وملذات وأبهة وبرقص الحوريات الصاخب وموسيقا وتمثيليات هزلية ، فلا تتبرموا ، إذاً ، أيها الجمهوريون الأفاضل ! إننا لنردّ على لومكم العيّاب بما قاله أحد حمقى شكسبير[٥٥] : «ألأنك فاضل عفيف ، هل يعني هذا أنه يجب ألا يكون على هذه الأرض كعكٌ فاخر أو شمبانيا حلوة المذاق ؟» .

ولقد فهم وأراد السان سيمونيون شيئاً من هذا القبيل ، لكنهم لم يكونوا يقفون على أرضية ملائمة . والمادية المحيطة المجاورة اضطهدتهم ، وإنْ لم يكن إلى زمن طويل . أما في ألمانيا فقد قدّرهم المرء حق قدرهم . إذ أن ألمانيا هي التربة الشديدة الخصوبة لمذهب وحدة الوجود . وهذا المذهب هو مذهب أعظم مفكرينا وأفضل الفنانين عندنا . ثم إن مذهب التأليه ، كما سأتحدث فيما بعد ، قد انتهى نظرياً منذ زمن طويل . ولم يعد قائماً هناك إلا لدى جمهور عديم التفكير ، من دون أي مسوّغ ، كأي شيء آخر . فالمرء لا يقول هذا ، ولكن كل انسان يعرف ذلك . فمذهب وحدة الوجود هو السر العام في ألمانيا ، والحق أننا شببنا عن طوق مذهب التأليه . فنحن احرار ولا نريد طغاة يرعدون . لقد بلغنا رشدنا ولا نحتاج إلى وصاية أبوية . كما أننا لسنا عملاً غير متقن الصنع لميكانيكي عظيم . فمذهب التأليه هو مذهب العبيد[٥٦] والأطفال والجنيفيين وصانعي الساعات . أما مذهب وحدة الوجود فهو مذهب ألمانيا الباطني . ولمّا أن الأمر قد وصل إلى هذه الدرجة فقد تنبأ بذلك اولئك الكتاب الألمان الذين كانوا هاجموا سبينوزا قبل خمسين عاماً هجوماً عنيفاً . وكان ألدّ أعداء سبينوزا وأعنفهم فريدريش ياكوبي[٥٧] الذي يكرمه المرء على حين يذكر اسمه بين الفلاسفة الألمان . ولم يكن هذا إلا مرائياً شرس الطبع تلفّع برداء الفلسفة وتسلل إلى صفوف الفلاسفة وانتحب أمامهم في بادىء الأمر شاكياً من وجده والشعور الرقيق ، ثم انهال بعدئذ على العقل بالهجاء والطعن .

وكانت عبارته المتكررة على نحو موصول تقول إن الفلسفة والمعرفة عن طريق العقل هما وهم فارغ . فالعقل نفسه لا يعرف إلى أين يسير بالفلسفة . إنه يسير بالانسان إلى متاهة مظلمة من الأخطاء والتناقضات ؛ ثم إن الايمان وحده قادر على أن يقود الانسان إلى شاطىء السلامة والأمان . وهذا الخِلْد لم ير أن العقل أشبه بالشمس الأزلية التي تضي طريقها بنورها على حين تتنقل هي في عليائها بثقة واطمئنان . فلا شيء يماثل الحقد الورع المريح الذي يكنّه ياكوبي الصغير لسبينوزا العظيم .

والغريب هو الكيفية التي حاربت بها شتى الأحزاب والفرق سبينوزا . فهي تشكل جيشاً ينمّ تشكيله المتعدد الألوان عن منظر هزلي مضحك في غاية الهزل والتهريج . فإلى جانب حشد من لابسي القلانس البيضاء والسوداء وحاملي الصلبان وأوعية البخور المدخنة يسير أيضاً صف الموسوعيين(٥٨) الذين يهاجمون أيضاً هذا المفكر الجريء .

وإلى جانب حبر البيعة الامستردامي الذي ينفخ في صور الايمان ابتغاء الهجوم يخطر آروي فولتير وهو يعزف على ناي التهكم والسخرية الصغير لخير مذهب التأليه . وفي أثناء ذلك تنتحب العجوز ياكوبي ، صاحبة دكان معسكر جند الايمان هذا .

ونتخلص بأسرع ما يمكن من مثل هذا الهرج والمرج ونعود من رحلتنا ، رحلة أحادية الوجود ، ثم نصل من جديد إلى فلسفة لايبنتز ؛ وعلينا أن نستمر في الحديث عما حلَّ بها وعما آلت إليه في آخر الأمر وكما تعرفون فإنَّ لايبنتز كان قد كتب بعض مؤلفاته باللاتينية ، وكتب بعضها الآخر باللغة الفرنسية . أما الرجل المفضال الذي لم يرتب افكار لايبنتز ترتيباً منهجياً فحسب ، بل نقلها أيضاً إلى اللغة الألمانية ، فيدعى كريستيان فولف(٥٩) . وإن مأثرته في الحقيقة ليست أنه أودع أفكار لايبنتز في نظام ثابت أو أنه مكّن الجمهور العريض من هذه الأفكار حين نقلها إلى الألمانية ؛ بل إن مأثرته لتكمن في أنه حثنا لأن نكتب فلسفة باللغة الألمانية ، لغة الأمة . وقبل أن يكون لوثر لم يكن لنا سبيل لنتناول علم اللاهوت الا باللغة اللاتينية . وقبل أن يكون فولف لم نكن نتناول الفلسفة إلا باللغة اللاتينيه . ثم إن

مثال القلة القليلة التي سبق لها أن حاضرت باللغة الألمانية ، قد باء بالاخفاق . على أن المؤرخ الأدبي يجب أن يذكر هؤلاء بمديح خاص مميز . وعلى هذا فإننا نذكر في هذا الصدد يوهانيس تاولر[٦٠] الراهب الدومينيكاني الذي ولد في مطلع القرن الرابع عشر في منطقة الراين وتوفي في ستراسبورغ ، على ما أعتقد ، وذلك في سنة ١٣٦١م .

لقد كان رجلاً تقياً ورعاً وكان ينتمي إلى اولئك المتصوفة الذين سميتهم فرقة العصور الوسطى الافلاطونية ، وفي السنوات الأخيرة من حياته زهد هذا الرجل في كل تكبّر مكتسب بالتعلم ولم يخجل من أن يخطب ويعظ باللغة الشعبية الدارجة المتواضعة . وهذه الخطب والمواعظ التي دوّنها مثلها مثل الترجمات الألمانية التي نقلها عن خطبه ومواعظه اللاتينية السابقة . وهذه كلها تدخل ضمن أغرب وأعجب الآثار الباقية للغة الألمانية . إذ أنَّ اللغة الالمانية تبيّن هنا أنها لا تصلح للبحوث والدراسات الميتافيزيقية فحسب ؛ بل إنها تفوق اللغة اللاتينية في ذلك . فاللغة اللاتينية ، لغة الرومان ، لا تستطيع أن تتنكر لأصلها . فهي لغة الأوامر بالنسبة للقادة ولغة المراسيم بالنسبة للمدراء والممثلين المندوبين ولغة القضاء بالنسبة لمرابين وهي لغة قوية لشعب روماني قاسٍ كالحجر . وصارت اللغة المناسبة للمادية . ومع أن المسيحية ناضلت بجَلَدٍ مسيحي خالص اكثر من ألف عام لتضفي على هذه اللغة الطابع الروحي فلم يحالفها النجاح . ولما أراد يوهانيس تاولر أن يغوص في أرهب مهاوي الفكرة ولما امتلأ صدره واتسع على نحو بالغ القدسية عندها كان عليه أن يتكلم الألمانية . فلغته اشبه بينبوعٍ جبلي يتفجر من صخور صلبة منقوع على نحو عجيب بعبير نباتات مجهولة وقوى حجرية غامضة . على أن إمكانية استخدام اللغة الألمانية في الفلسفة لم تسترعِ الانتباه إلا في العصر الحديث . وما من لغة أخرى استطاعت الطبيعة أن تكشف بها عن روائعها البالغة السرية إلا بلغتنا الألمانية الحبيبة . فالدبق المقدس لم يستطع أن ينمو إلا على شجرة البلوط العظيمة .

وهنا يقتضي المقام أن نتحدث عن باراتسيلسوس[٦١] أو كما سمى هو نفسه يتوفراستوس باراتسيلسوس بومباستوس فون هوهينهايم . إذ أنه كتب هو أيضاً ،

وفي كثير من الأحيان ، باللغة الألمانية . على أنه ينبغي عليَّ أن أتحدث عنه فيما بعد وبمناسبة اكثر أهمية . إذ أن فلسفته كانت تدعى بما نسميه نحن في أيامنا هذه الفلسفة الطبيعية . ولما كان مثل هذا المذهب ، بالغ الغموض فإنه لمن الممكن أن ينشأ هذا المذهب عندنا آنذاك لو لم تكن فيزياء الديكارتيين الميكانيكية الهامدة سائدة بنفوذ وتأثير عرضيين .

لقد كان باراتسيلسوس دجالاً كبيراً . كان يلبس أبداً سترة قرمزية اللون وسروالاً قرمزي اللون وجوربين أحمرين وقبعة حمراء وكان يدّعي أنه يستطيع أن يصنع اقزاماً . وكانت له ، على الأقل ، علاقة ودية بكائنات خفية تسكن في شتى العناصر . على أنه كان في الوقت نفسه أحد العارفين بالطبيعة الذين فهموا بروح الباحث الألماني الايمان الشعبي الوثني ومذهب وحدة الوجود الجرماني . أما الشيء الذي لم يعرفوه فقد عرفوه بالحدس على نحو صحيح .

والمفروض أن نتكلم هنا أيضاً على ياكوب بوهمي(٦٢) . إذ أنه اصطنع أيضاً اللغة الألمانية في دراسات فلسفية واثنى عليه الناس في هذا الخصوص . على أنني لم أتمكن من أن اعقد العزم بعد لأقرأه . فأنا لا أسمح بأن يستغفلني الناس . إذ أنني أشتبه في أمر مدّاحي هذا المتصوف بأنهم يريدون أن يضللوا الجماهير . وأما بخصوص مؤلفاته ومضمونها فقد نقل إليكم سانت مارتين(٦٣) بعضاً منها باللغة الفرنسية . كما أن الانكليز ترجموه أيضاً . وكان لكارل الأول(٦٤) رأي عظيم في هذا الاسكافي الثيوصوفي بحيث إنه هو نفسه أرسل إليه عالماً إلى مدينة غورليتز لكي يدرسه . وكان هذا العالم أسعد حظاً من سيده الملك . إذ أن هذا كانت قد اطاحت برأسه فأس كروموبل في وايتهول على حين لم يفقد ذلك العالم في غروليتز سوى عقله وذلك بواسطة فلسفة ياكوب بوهمي الثيوصوفية .

وكما سبق أن ذكرت فإن كريستيان فولف هو أول من نجح في إدخال اللغة الألمانية إلى عالم الفلسفة . وكان فضله الضئيل محصوراً في ترتيب أفكار لايبنتز وفق نظام وتعميمها . بل إن كليهما ، التصنيف والتعميم ، يخضع ويتعرض لأكبر ذم . وعلينا أن نذكر هذا عرضاً. فتصنيفهلم يكن إلا مظهراً باطلاً . وأهم شيء في

فلسفة لايبنتز كان ضحيته هذا المظهر الخداع . ونذكر على سبيل المثال أفضل جانب من مذهب المونادة . والحق أن لايبنتز لم يترك بناءً للتعاليم مرتباً ترتيباً منهجياً ؛ وإنما ترك الأفكار الضرورية فقط لذلك . وكانت الحاجة ماسة إلى عملاق لكي يركّب الاحجار المربعة الضخمة والأعمدة التي كان استخرجها عملاق من أعمق محاجر الرخام وكان نحتها نحتاً متقناً . وربما صار هذا هيكلاً جميلاً . على أن كريستيان فولف كان قصير القامة وممتلىء العود ولم يستطع أن يتمكن إلا من جزء من مثل هذه المواد الأولية للبناء فحوّله إلى كوخ بائس ليكون معبداً لمذهب التأليه .

ولقد كان فولف موسوعياً اكثر منه منظماً يُعنى بالتصنيف أو الترتيب . ولم يفهم وحدة مذهبه إلا في صيغة الكمال . وكان مقتنعاً بكتاب مدرسي معيّن تكون فيه الحقول مبوبة أجمل تبويب ومملوءة على أفضل ما يمكن ومزودة ببطاقات معنونة بعناوين واضحة . وعلى هذا قدّم لنا «موسوعة العلوم الفلسفية» . ولما كان فولف ، حفيد ديكارت ، قد ورث صيغة الاستدلال الرياضي من جدّه فإن هذا لغنيٌّ عن البيان . وسبق أن ذممت هذه الصيغة الرياضية لدى سبينوزا . وكانت قد جرّت وبالاً على يد فولف وانحطت لدى تلامذته إلى أبغض ضروب المنهاجية وإلى هوس مضحك لاظهار كل شيء بطريقة رياضية . ونشأ ما يسمى بمذهب فولف القطعي (الدوغماتي) . وتوقف كل بحث متعمق وحلت محل البحث حماسةٌ مملة إلى الوضوح . وازدادت فلسفة فولف على الدوام ميوعةً وغمرت أخيراً ألمانيا بأسرها . ولاتزال آثار هذا الطوفان ملموسة إلى يومنا هذا . وهنا وهناك وفي كل مكان ، وفي أعلى مجالس عرائس الشعر عندنا ، لا تزال مستحاثات قديمة من المدرسة الفولفية .

ولد كريستيان فولف في سنة ١٦٧٩م بمدينة بريسلاو وتوفي في سنة ١٧٥٤م بمدينة هاللي . ودام سلطانه الفكري في المانيا اكثر من نصف قرن . وعلينا أن نتناول بصورة خاصة علاقته بلاهوتيّ ذلك العصر ونكمل بذلك معلوماتنا عن مصير اللوثرية .

وليس ثمة في تاريخ الكنيسة كله جانب أعقد من خلافات اللاهوتيين البروتستانت منذ حرب الثلاثين عاماً . ولا مثيل لهذه الخلافات إلا المشاحنة السفسطية البيزنطية . على أن الخلاف أو النزاع البيزنطي هذا لم يكن مملاً ذلك لأنه كان يخفي وراءه دسائس كبيرة كان مسرحها القصر وكانت ذات أهمية للدولة عوض من أن تعزى المشاجرة أو المشادة البروتسانتية إلى حذلقة رجال ضيّقي الأفق أو متحذلقين أدعياء . فالجامعات ، لاسيما جامعة توبينغين وفيتنبيرغ ولايبزيغ وهاللي ، هي مسارح لتلك المعارك اللاهوتية . وإن الطائفتين اللتين رأيناهما تتقاتلان في ثوب الكاثوليكية وفي أثناء العصور الوسطى كلها هما الأفلاطونية والأرسطوطالية . وهاتان الفرقتان لم تغيّرا إلا لباسهما وبقيتا تتقاتلان . وإنهما التقويون والارثوذكس الذين ذكرتهم آنفاً ووصفتهم بأنهم متصوفة بلا خيال وقطعيون يقينيون بلا عقل .

وكان يوهانيس سبينر(٦٥) سكوتوس أريجينا(٦٦) ، رجل المذهب البروتستانتي ، ومثلما أسس سكوتوس أريجينا مذهب الايمان بالمعجزات والنزوع إلى التصوف الكاثوليكي من خلال ترجمته لديونيسوس آريوباجيتا فإن سبينر أسس التقوية البروتستانتية من خلال مجموعاته التربوية التعليمية التقوية التي إليها تعود تسمية أنصاره بالتقويين . ولقد كان سبينر رجلاً تقياً ورعاً ، وإنّ ذكراه لجليلة . ولقد زوّدنا السيد فرانس هورن ، أحد التقويين في مدينة برلين ، بسيرة جيدة عن سبينر الذي كانت حياته عذاباً متواصلاً واستشهاداً دائماً في سبيل الفكرة المسيحية . وفي هذا فاق معاصريه . وحثّ على عمل الخير والتقوى والتدين . وكان واعظ العقل اكثر مما كان واعظ الكلمة . وكانت طبيعته الواعظية موضع ثناء آنذاك ، ذلك لأن علم اللاهوت ، كما كان يدرّس في الجامعات المذكورة ، لم يكن ينحصر إلا في تعاليم عقائدية ضيقة وجدل سفسطي ينهض على المواربة والمماحكة . أما التفسير وتاريخ الكنيسة فقد تم إهمالهما إهمالاً كلياً .

وفي لايبزيغ أخذ هيرمان فرانكي(٦٧) ، أحد تلامذة سبينر ، يلقي محاضرات مقتدياً باستاذه في المنهج والمفهوم . وحاضر باللغة الألمانية . وإن هذا

لفضل نعترف به على الدوام . فالنجاح الذي لاقاه آنذاك أثار حسد زملائه وغيرتهم فنغّصوا عيش هذا التقوي المسكين .

وكان عليه أن يتخلى عن مكانه ويتوجه إلى مدينة هاللي حيث علّم المسيحية قولاً وفعلاً . وذكراه هناك حية وخالدة ، إذ أنه مؤسس مأوى اليتامى في هاللي . أما جامعة هاللي فصارت الآن تغص بالتقويين وسماهم الناس «حزب بيت اليتامى» الذي ظل قائماً إلى يومنا هذا. ومدينة هاللي لاتزال إلى الآن مخبأ التقويين. كما أن خلافاتهم مع العقلانيين البروتستانت قد أثارت قبل عدة سنوات فضيحةً[٦٨] عمَّ نتنُها ألمانيا قاطبة . فما أسعدكم أيها الفرنسيون الذين لم تسمعوا شيئاً من هذا ! حتى إنكم تجهلون ايضاً وجود صحف القيل والقال الانجيلية التي يتسابب ويتشاتم فيها النسوة البذيئات المتدينات ، نسوة الكنيسة البروتستانتية . وما أسعدكم أيها الفرنسيون لأنكم لا تعرفون كيف يستطيع قساوستنا البروتستانت أن يطعنوا في بعضهم على نحو ماكرٍ خسيس وبغيض . وأنتم تعرفون بأنني لست من أنصار الكاثوليكية . ومع أن تعاليم العقيدة القطعية (الدوغماتية) لم تعد تحيا في معتقداتي الحالية فإن روح البروتستانتية لايزال يحيا إلى الأبد . فأنا ، إذاً ، لا أزال متحيزاً للكنيسة البروتستانتية . ومع هذا عليَّ أن أعترف ، من أجل الحقيقة ، بأنني لم أجد قطُّ في حوليات البابوية مثل هذه المخازي التي وردت في «صحيفة الكنيسة البروتستانتية» في برلين ، في أثناء الفضيحة المذكورة . وإن أجبن صنيع للرهبان وأخس مكيدة من مكائد الأديرة لايزال يعدُّ طيبةً ولطفاً وحسن طوية بالقياس إلى الأعمال البطولية المسيحية التي مارسها الأرثوذكس البروتستانت والتقويون عندنا إزاء العقليين المكروهين الممقوتين . وأنتم ، أيها الفرنسيون ، ليس لديكم أي تصور عن هذا الحقد الذي يظهر في مثل هذه المناسبات . أما الألمان فهم شعب حقود محب للانتقام اكثر من الشعوب الرومانية .

والسبب في هذا يعود إلى أنهم مثاليون في حقدهم . فنحن لا نكره بعضنا من أجل أشياء خارجية كما تفعلون أنتم ، كأنْ تكرهون لزهوٍ تعرّض للاهانة أو من أجل قصيدة قصيرة ساخرة معبّرة أو بسبب بطاقة زيارة لم يُرَدّ عليها . كلّا ، إننا لنكره في أعدائنا ماهو أعمق وماهو أكثر جوهرية . إننا نكره فيهم أفكارهم . وأنتم ،

أيها الفرنسيون ، مستهترون سطحيون في حبكم وفي كراهيتكم على سواء . ونحن الألمان نكره في عمق وعلى نحو دائم . ولما كنّا في غاية من الصدق والاخلاص والخُرْق والخمول أيضاً لكي نثأر لأنفسنا بغدر سريع فإننا نكره إلى آخر رمقٍ من حياتنا .

«إنني أعرف ، أيها السيد ، هذا الهدوء الألماني» ، قالت لي إحدى السيدات وهي تنظر إلي بعينين جاحظتين نظراتٍ فيها تشكك وتخوّف : «إنني أعرف بأنكم ، أنتم الألمان ، تستعملون الكلمة نفسها للاعتذار ووضع السم» . والحق إنها لعلى صواب ، فكلمة «غفر Vergeben» تنطوي على المعنيين كليهما .

فإنْ صدق ظني فإن الذين هتفوا مستنجدين بالفلسفة الفولفية في صراعهم مع التقويين المستوطنين كانوا ارثوذكسيّ مدينة هاللي . إذ أن الدين ، وإن لم يعُدْ يستطيع أن يحرقنا ، يأتي متسولاً عندنا . على أن كل عطايانا لا تدرّ عليه إلا المكسب الرديء . فالثوب الرياضي الواضح الذي كان فولف قد خلعه على الدين الفقير بمحبة وعطف ، لم يناسبه بحيث إن الدين شعر بأنه صار اكثر ضيقاً وتعرّض بهذا الضيق للسخرية الشديدة . وتمزقت العرى الضيقة في كل مكان . وبرزت الخطيئة بخاصة في عورتها الصارخة . ولم يكن لورقة التين المنطقية هنا أي نفع أو فائدة . فالخطيئة اللوثرية المسيحية وتفاؤل لايبنتز وفولف لا يمكن التوفيق بينهما . وعلى هذا فإن سخرية التفاؤل الفرنسية أحدثت على الأقل استياءً لدى علمائنا اللاهوتيين . وأفادت نكتة فولتير الخطيئة العارية . على أن بانجلوس الألماني[٦٩] خسر الكثير بانهيار التفاؤل وبحث طويلاً عن مذهب مماثل يجد فيه العزاء والسلوى إلى أن قدمت له عبارة هيجل «كل ماهو موجود هو معقول» شيئاً من البديل .

وبدءاً من اللحظة التي ينشد فيها دين ما العون والمساعدة من الفلسفة يكون انهياره محتماً وواقعاً لا محالة . فالدين ، مثله مثل أي حكم مطلق ، لا يحق له أن يبرىء ذمته . وتقيّد القوة الصامتة بروميتويس[٧٠] إلى الصخور . والحق أن اسخيلوس لا يجعل القوة المشخصة تنبس ببنت شفة . فعليها أن تبقى صامتة . وما أن يسمح الدين بطباعة كتاب عيّاب مخاصم يشتمل على قواعد الدين وما ان

تصدر السلطة السياسية المطلقة صحيفة حكومية رسمية حتى يكون لكل منهما نهايته . على أن هذا هو انتصارنا . فلقد أجبرنا خصومنا على الكلام وعليهم أن يعترفوا أمام استئلتنا .

والحق أنه لا سبيل إلى النكران بأن السلطة الدينيبة المطلقة ، مثلها كمثل السلطة السياسية المطلقة ، وجدت أجهزة جبارة لكلمتها . ولكن حذار أن نخاف أو نقلق من جرّاء ذلك . فإذا كانت الكلمة حية حملها الأقزام . أما إذا كانت الكلمة ميتة فلن يستطيع العمالقة الابقاء عليها .

ومنذ أن راح الدين ينشد المساعدة لدى الفلسفة ، كما تحدثت اعلاه ، فإن العلماء الألمان أجروا ، فضلاً عن اللباس الجديد ، تجارب لا حصر لها على الدين . لقد أرادوا أن يهيئوا له شباباً جديداً ، وتصرفوا في أثناء ذلك على نحو ما تصرفت ميديا حين أرجعت الشباب الى الملك ايزون(٧١) . وقد افتصدت ميديا في بادىء الأمر ثم امتُصَّ دمها الخرافي ببطء . ولكي أعبّر تعبيراً واضحاً لا رموز فيه ، فقد حاول المرء أن يجرّد المسيحية من كل مضمون تاريخي مبقياً على الجانب الأخلاقي ، ليس غير . وبهذا تستحيل المسيحية إلى مذهب ألوهي خالص . فالمسيح لم يعد مساعداً للاله في الحكم ؛ كما أنه اصبح على نحو ما بعيداً عن الملكوت ، وفقد بذلك كل صلة مباشرة بالملكوت . ولقي حسن الاحترام والتقدير كشخص غير رسمي وغير متولٍّ منصباً أو عملاً عاماً ، ليس غير . وأثنى المرء على أخلاقه على نحو يفوق كل حد . ولم يستطع المرء أن يفيه حقه من التقريظ بأنه كان انساناً شجاعاً . أما بخصوص المعجزات التي كان يقوم بها ، فقد فسّرها المرء تفسيراً فيزيائياً أو أنه حاول قدر المستطاع أن يقلل من الإشادة بها . وزعم البعض أن المعجزات كانت ضرورية في عهود الايمان بالخرافات ، وإنَّ شخصاً عاقلاً ، كان عليه أن يجهر بحقيقة ما قد اصطنع المعجزات على أنها إعلان ، إن صح التعبير .

وهؤلاء اللاهوتيون الذي فصلوا كلَّ ماهو تاريخي عن المسيحية يسمّون بالعقلانيين الذين انقلب عليهم سخط التقويين والأرثوذكس معاً ، ومنذ ذلك الوقت قلل هؤلاء من محاربتهم لبعضهم وكثيراً ما تحالفوا .

وهذا الاتجاه في علم اللاهوت البروتستانتي يبدأ بسيملر الهادىء[٧٢] الذي لا تعرفونه . ويرتقي به إلى علو باعث على القلق تيللر[٧٣] الثاقب الفكر الذي لا تعرفونه أيضاً . أما بارت[٧٤] السطحي التافه الذي لا تغني معرفته شيئاً فيبلغ به إلى قمته . ومن برلين حيث كان فريدريش الكبير والكتبي نيكولاي يحكمان ، جاءت أقوى البواعث والحوافز .

وانتم على علم كافٍ بالمادية المتوجة[٧٥] وتعلمون أنه كان ينظم أشعاراً بالفرنسية ويحسن العزف على الناي وأنه كسب معركة روسباخ[٧٦] ، كما أنه كان يتعاطى النشوق ولم يكن يؤمن إلا بالمدافع . ومن المؤكد أن البعض منكم زار ايضاً سانسوشي وأن الرجل العجوز العاجز المشوه ، حارس القصر هناك ، قد أطلعكم أيضاً في المكتبة على الروايات الفرنسية التي قرأها فريدريش في الكنيسة وهو ولي عهد ثم أمر أن تجلد بالجلد المراكشي الأسود الفاخر لكي يوهم أباه الصارم أنه يقرأ في كتاب تراتيل لوثرية . وإنكم لتعرفونه ذلك الفيلسوف الملكي الحكيم الذي لقبتموه بسليمان الشمال . وكانت فرنسا في نظر سليمان الشمال أوفير ، الأرض الاسطورية الغنية بالذهب . ومن هناك كان يأتي بشعرائه وفلاسفته الذين كان يميل اليهم ميلاً شديداً مثله كمثل سليمان الجنوب الذي أوعز إلى صديقه حيرام بأن يأتي بالسفن محملةً بالذهب والعاج والشعراء والفلاسفة من أوفير . وفي وسعكم أن تقرأوا هذا في كتاب الملوك الفصل العاشر . وسبب هذا الميل إلى مواهب أجنبية لم يستطع فريدريش الكبير أن يؤثر تأثيراً كبيراً في الفكر الألماني ؛ بل إنه أهان وجرح الشعور القومي الألماني . فالاحتقار الذي ألحقه فريدريش الكبير بأدبنا الألماني يجب أن يضايقنا نحن الأحفاد أيضاً . وما من أحد لقي المزيد من الحظوة وحظي بمزيد من النعمة لدى فريدريش الكبير إلا جيليرت الشيخ[٧٧] . وإن الحديث الذي جرى بينهما لهو حديث عجيب غريب .

وإذا كان فريدريش الكبير قد سخر منا من دون أن يؤازرنا فإن الكتبي نيكولاي[٧٨] قد آزرنا اكثر واكثر من دون أن نتردد لنسخر منه . ولقد كان هذا الرجل طوال حياته دائب العمل من أجل خير وطنه ومصلحة بلاده . فما ادخر وسعاً ولا مالاً في أن يعزز ماكان يرجو فيه خيراً . ومع هذا فليس ثمة رجل في المانيا

تعرض للهزء والسخرية كما تعرض هذا الرجل بالذات وذلك على نحوٍ شديد القسوة والوحشية والتهديم . ومع أننا نحن الذين ولدنا فيما بعد نعرف حق المعرفة أن نيكولاي العجوز صديق عصر التنوير لم يخطىء بصورة رئيسية ابداً ، ومع أننا نعرف أن اعداءنا ، اعداء عصر التنوير ، هم الذين سخروا منه أدبياً حتى الموت فإننا مع هذا ، لا نستطيع أن نتذكره بوجه جدي كل الجدية . ولقد حاول نيكولاي أن يصنع في المانيا ما صنع الفلاسفة الفرنسيون في فرنسا : لقد حاول أن يدمّر الماضي في روح الشعب . وإنه لعمل تحضيري حميد لا يمكن لثورة متطرفة أن تحدث من دونه . ولكن عبثاً ، فهو لم يكن قادراً على هذا العمل . فالآثار القديمة كانت لا تزال في غاية من الرسوخ وظهرت منها الاشباح وازدرته . على أنه صار بعد ذلك فظاً غليظ القلب وضرب خبط عشواء وضحك المشاهدون حين كانت الوطاويط تئن من حوله وتعلق في شعره المستعار المطيّب بالذريرة . وحدث بين الحين والحين أنه كان يخال طواحين الهواء عمالقة وكان يبارزها . ولكن الأسوأ من ذلك هو أنه كان في بعض الأحيان يخال العمالقة الحقيقيين طواحين هوائية ، ليس غير . ومثال على ذلك : فولفغانغ غوته . فلقد هجا «فيرتر» بهجاء(٧٩) تجاهل فيه كل مرامي المؤلف على نحو تخطى فيه حدود اللباقة والأدب . على أنه كان بصورة رئيسية أبداً على صواب ؛ ومع أنه لم يفهم ما أراد غوته أن يعبّر عنه في رواية «فيرتر» فقد فهم جيداً أثرها ومفعولها ، سواء أكان هذا في الهيام المخنّث أو الافراط في الحساسية وتدفق المشاعر العقيم الذي ظهر بظهور هذه الرواية وناقض مناقضة شديدة كل روح عاقلة كانت ضرورية لنا . وفي هذا اتفق نيكولاي كلياً مع ليسّنغ الذي أدلى إلى أحد أصدقائه بالحكم التالي على رواية «فيرتر» فكتب له يقول : «إذا كان هذا العمل الأدبي العاطفي الرقيق سيخلق خيراً لا شراً ، ألا ترى أنه كان ينبغي أن تكون له خاتمة قصيرة باردة غير مؤثرة ؟ بعض التلميحات فيما بعد تبيّن كيف توصل فيرتر إلى مثل هذا الطبع المغامر وكيف ينبغي لفتى آخر منحته الطبيعة استعداداً فطرياً مماثلاً أن يحفظ نفسه من ذلك . هل تعتقد أنه سبق أن انتحر شاب روماني أو يوناني كما انتحر فيرتر وللأسباب نفسها ؟ ومؤكد أن هذا لم يحدث لأن اليونان والرومان عرفوا كيف يحمون أنفسهم من الهيام والصبابة .وفي

زمن سقراط لم يكن يغفر إلا بصعوبة لفتاة أقدمت على شيء يفوق الطبيعة بدافع هيامٍ كهذا الهيام . فالتربية المسيحية وحدها كانت أول من أوجد مثل هذه النماذج الاصلية التي هي مزيج من العظمة والضعة والتي يمكن تقديرها ، كما هي عليه ، بازدراء واحتقار . وهذه التربية المسيحية تعرف كيف تحول حاجة جسدية تحويلاً جميلاً إلى كمالٍ روحي . وعلى هذا ، أيها العزيز غوته ، بقي فصل قصير في الختام ؛ وبقدر ما يكون تهكمياً ساخراً يكون أفضل !» .

والحق أن صديقنا نيكولاي أصدر ، وفقاً لمثل هذه المعلومات ، رواية معدلة «لفرتر» . وطبقاً لهذه النسخة المعدلة فإن البطل لم يقتل نفسه بالرصاص ، وإنما لطخ نفسه بدم دجاجة ، ليس غير . إذ كان المسدس محشواً بالدم عوضاً من أن يكون محشواً بالرصاص . ويصبح فيرتر عرضة للسخرية ويبقى حياً ويتزوج شارلون ، وباختصار فإن نهايته هي اكثر مأساوية مما هي عليه في نسخة غوته الأصلية .

إن «المكتبة الالمانية العمومية»[٨٠] هي اسم الصحيفة التي أسسها نيكولاي وهاجم فيها هو واصحابه الخرافات والجزويت وتابعي القصر الخانعين وغيرهم . ولا سبيل إلى النكران أن بعض الضربات التي كانت موجهة إلى الايمان بالخرافات قد أصابت ، لسوء الحظ ، الشعر . وهكذا هاجم نيكولاي الميل المتكون للأغاني الشعبية الألمانية القديمة[٨١] . على أنه كان أيضاً على صواب . ورغم كل ما تمتاز به طبيعتها من مزايا ممكنة فإن تلك الأغاني تتضمن بعض الذكريات التي لم تكن تساير عصرها واستطاعت الانغام القديمة لرقصة البقر الحلقية الخاصة بالعصور الوسطى أن تجتذب قلوب الشعب مرة أخرى الى حظيرة الايمان للماضي . وكما فعل أوديسيوس[٨٢] حاول هو أن يسدَّ آذان رفاقه لكي لا يسمعوا غناء جنيات البحر غير عابىء بأنهم صاروا فيما بعد صماً لأنغام العندليب النقية الطاهرة . ولكي يكون حقل الحاضر خلواً من الاعشاب الضارة كلها فإن الرجل العملي لم يتردد إلا قليلاً في أن يجتث الورود أيضاً إلى جانب الأعشاب الضارة . وثارت على ذلك ثورة شديدة العداء طائفة الزهور والعنادل وكل ما ينتمي إلى هذه الطائفة من جمال وفتنة ونكتة ومزاح ، وانهزم نيكولاي المسكين .

وتغيرت الأمور والأحوال في ألمانيا الحالية . فحزب الورود والعنادل يرتبط بالثورة ارتباطاً وثيقاً . والمستقبل ملك لنا . وهاهو فجر النصر يبزغ . وحين يسكب فجر النصر الجميل نوره ذات يوم على وطننا ألمانيا عندها نتذكر أيضاً موتانا . ومما لا شك فيه أيضاً أننا سنتذكرك يانيكولاي المسكين ، ياشهيد العقل المسكين ! وسنحمل رفاتك إلى مقبرة العظماء الألمان ، يحوط بتابوتك موكب النصر المهلل وترافقه الفرقة الموسيقية ولن يكون بينها الناي ، وسنضع على ضريحك أفضل أكاليل الغار وسنبذل قصارى جهدنا بأن نمسك عن الضحك في أثناء ذلك . ولما كان في ودّي أن أعطي فكرة عن الأوضاع الفلسفية والدينية في ذلك العصر فإنه ينبغي عليَّ أن أذكر هنا ، وفي هذا المقام ، أولئك المفكرين الذين كانوا يعملون كثيراً أو قليلاً جنباً إلى جنب مع نيكولاي في مدينة برلين وكوّنوا ما يسمى الوسط المناسب[٨٣] بين الفلاسفة ورجال الأدب . ولم يكن لهم مذهب محدد ، وإنما اتجاه محدد ، ليس غير . كانوا يشبهون الأخلاقيين الانكليز[٨٤] في اسلوبهم وبواعثهم الأخيرة . فهم يكتبون من دون شكل دقيق وصارم صرامة علمية . فالوعي الأخلاقي هو المصدر الوحيد لمعرفتهم . واتجاههم هو نفس الاتجاه الذي نجده لدى محبي الانسانية الفرنسيين[٨٥] . وهم في الدين عقلانيون ، وفي السياسة مواطنون عالميون ، وفي الأخلاق بشر شرفاء أعفّاء صالحون ، قساةٌ على أنفسهم بالذات ورؤوفون بالآخرين . وأما بخصوص الموهوبين فإنَّ أنجبهم هم : مندلسون[٨٦] وسولتسر[٨٧] وأبْت[٨٨] وموريتس[٨٩] وجارفي[٩٠] وإنجل[٩١] وبيستر[٩٢] . وأحبّهم إليَّ هو موريتس الذي انجز الكثير على صعيد علم النفس التجريبي وكان يتمتع ببساطة عجيبة لم يفهمها اصدقاؤه فهماً تاماً . وإن تاريخ حياته هو أحد أهم الانصاب التذكارية لذلك العصر . على أنه تميز من الآخرين بما كان له من أهمية اجتماعية كبيرة . فلقد كان مصلحاً للاسرائيليين الألمان ، اخوته في العقيدة والمذهب ، وأطاح بهيبة المذهب القائم على التلمود وأسس المذهب الموسوي الخالص .

إن هذا الرجل الذي اسماه معاصروه سقراط الألمان وكان له من نبل الروح والمدارك ما جعلهم ينظرون إليه نظرة الاعجاب والاكبار ، هذا الرجل كان إبناً

لسادن البيعة الفقير في مدينة ديسّاو . وفضلاً عن بؤس منبته ، هذا البلاء الذي ابتلي به منذ الولادة ، فقد حمّلته العناية الالهية أيضاً حدبة لكي يعلّم عامة الناس على نحو صارخ أنه لا ينبغي تقدير الناس بحسب مظهرهم الخارجي ، وإنما بحسب قيمهم الروحية . أما أن العناية الالهية خصصت له حدبة بدافع الحيطة اللطيفة لكي يعزو جور السوقة أو بعضه إلى شر يستطيع حكيم عاقل أن يتعزى عن ذلك بسهولة .

وكما أطاح لوثر بالبابوية فإن مندلسون أطاح بالتلمود[٩٣] على النحو نفسه على حين نبذ هو التقاليد وأعلن بأن الكتاب المقدس مصدر الدين وترجم أهم أجزاء هذا الكتاب . وبهذا قوّض صرح الكاثوليكية اليهودية كما قوّض لوثر صرح الكاثوليكية المسيحية . والحق أن التلمود هو كاثوليكية اليهود . فهو كاتدرائية من طراز غوطي زخرفت بزخارف صبيانية سخيفة : على أنها تدهشنا بضخامتها الجريئة . والتلمود سلسلة من الشرائع تتعلق في كثير من الأحيان بأشياء دقيقة تثير أشد أنواع السخرية والضحك لكنها مرتبة على نحو معقول ترتيباً فوقياً وتحتياً يؤازر بعضها بعضاً ويحمل بعضها بعضاً وتتضافرُ معاً لتعطي نتائج مثمرة وتشكّل كلّاً ضخماً متماسكاً متحداً على نحو رهيب ومخيف .

وكان لابد للتلمود أن ينهار بعد انهيار الكاثوليكية المسيحية ، ذلك لأنه كان قد فقد ، فيما بعد ، أهميته ومضمونه . فهو لم يتخذ إلا درعاً ضد روما وله يدين اليهود بأنهم استطاعوا أن يقاوموا روما المسيحية ببسالة عظيمة كما قاوموا روما الوثنية في زمن مضى . وهم لم يقاوموا فحسب ، بل انتصروا أيضاً . إن حبر الناصرة المسكين الذي كتب أحد الرومان الوثنيين فوق رأسه المائت العبارة الشامتة : «ملك اليهود» ـ إن هذا الملك المضحّك ، ملك اليهود المكلّل باكليل الشوك والمزين بالارجوان المبطن بالتهكم صار في آخر الأمر إله الرومان وكان على هؤلاء أن يسجدوا له ! ومثلما انهزمت روما الوثنية انهزمت أيضاً روما المسيحية ، لا بل إن هذه صارت أيضاً تابعة وملزمة بدفع الجزية . وإذا أردت ، أيها القارىء العزيز ، أن تتوجه في الأيام الأولى من الفصل الدراسي الثالث إلى شارع لافيتي ، أو بالأحرى إلى فندق رقم ١٥ ، رأيت هناك امام البوابة العالية مركبة كبيرة يهبط منها

رجل بدين يصعد السلم متوجهاً إلى غرفة صغيرة يجلس فيها شاب أشقر هو أكبر سناً مما يبدو ، ومع هذا فإن في لا مبالاته الرفيعة النبيلة شيئاً من الرزانة ، شيئاً من الايجابية ، شيئاً مطلقاً لكأن في جيبه كل أموال الدنيا . وفي الحقيقة إنَّ في جيبه أموال الدنيا كلها ، ويدعى السيد جيمس دي روتشيلد . أما الرجل البدين فهو السيد غريمبالدي مبعوث قداسة البابا الذي يحمل باسمه فوائد القرض الروماني أو الجزية من روما .

فلِمَ التلمود ، إذاً ، الآن ؟

وعلى هذا فإن موسى ميندلسون يستحق كبير الثناء على أنه أطاح بهذه الكاثوليكية اليهودية في ألمانيا ، على الأقل ، إذ أن الشيء الزائد عن اللزوم ضار . ولما أنه نبذ التقاليد فإنه حاول ، مع هذا ، أن يحافظ على قانون الشعائر الموسوي كفرض واجب . فهل كان هذا جبناً أم حكمة ؟ وهل كان هذا حباً لاحقاً رؤوماً منعه من أن يضع اليد الهدامة المدمرة على أشياء كانت في نظر أسلافه في غاية من القدسية وأريقت في سبيلها كثير من دماء الشهداء ودموعهم ؟ إنني لست على يقين من ذلك .

فكما يفعل ملوك المادة ينبغي على سادة الفكر أيضاً أن يقاوموا بضراوة المشاعر الأسروية . ثم إنه لا يحق للمرء أن يستسلم ، وهو على عرش الفكر ، للحياة الوادعة المريحة . وعلى هذا فإني أذهب إلى أن موسى مندلسون رأى في المذهب الموسوي الخالص مؤسسة استطاعت أن تكون بمثابة آخر تحصين لمذهب التأليه . إذ أن مذهب التأليه كان كنه العقيدة الموسوية وأعمق يقين ومعتقد لها . وحين مات ليسّنغ ، صديق مندلسون ، واتهم بالسبينوزية دافع عنه مندلسون[٩٤] بهمة وحماسة خالطهما تخوّف شديد واغتاظ بهذه المناسبة غيظاً شديداً .

وها إني ذكرت هنا ، وللمرة الثانية ، الاسم الذي لا يستطيع رجل الماني أن ينطق به من دون أن يتردد دويّه في صدره قوياً . على أن المانيا لم تنجب من بعد لوثر رجلاً أفضل أو أعظم من غوتهولد افراييم ليسينغ . فهاتان الشخصيتان كلتاهما هما فخرنا وبهجتنا . وفي كدر الحاضر وكآبته نرنو بأبصارنا إلى تمثاليهما

المواسيين ، وإنهما ليومئان لنا بوعد مشرق . أجل ! سيأتي الرجل الثالث الذي سينجز ما بدأه لوثر وما استأنفه ليسنغ واحتاج إليه الوطن الألماني احتياجاً كبيراً ـ إنّه المحرّر أو المنقذ الثالث ! وإنني لألمح درعه الذهبية الوهاجة التي تشع من معطف القيصر الارجواني «كالشمس من حمرة الفجر» !

ولقد أثر ليسينغ كما أثّر لوثر ليس فقط في أن ليسنغ فعل شيئاً محدداً وإنما في أنه أهاج الشعب الألماني في أعماقه وأحدث حركة فكرية شافية مجدية بنقده وجدله . وقد كان النقد الحي لعصره ، وكانت حياته كلها جدلاً . وظهر هذا النقد في أوسع ميادين الفكر والشعور ، في الدين والعلم والفن . وهزم هذا الجدل كل خصم وقويت شوكته بعد كل نصر . ولقد كان ليسنغ ، كما اعترف فيما بعد ، في حاجة إلى هذا الصراع بالذات من أجل تطوّره الفكري . لقد كان يشبه كل الشبه ذلك الرجل النورماندي الرائع العظيم الذي ورث المواهب والمعرفة والقوة عن اولئك الرجال الذين فتك بهم في المبارزة . وهكذا ، وبهذه الطريقة ، وهب كل المزايا والمحاسن الممكنة . وبدهي أن مثل هذا المقاتل ذي النزعة العدوانية قد سبب غير قليل من الصخب والضوضاء في ألمانيا ، المانيا الهادئة التي كانت آنذاك في يوم راحتها وعطلتها أهدأ بكثير مما هي عليه الآن . وذهل الكثيرون من جرأته الادبية . على أن هذه الجرأة عينها كانت عوناً له . فالاقدام على شيء هو سر النجاح في الأدب وفي الثورة أيضاً ـ وفي الحب . وارتعد الجميع فرقاً من سيف ليسنغ . فما من رأس كان في أمان من هذا السيف . بل إنه قطع بعض الرؤوس عن تكبّر وغرور ؛ ثم إنه كان في اثناء ذلك في غاية من الشماتة بحيث إنه رفع الرأس من على الأرض ليريه للجمهور ويبيّن له بأنه صار فارغاً من الداخل ومن لم يستطع أن يناله بسيفه قتله بسهام نكتته . واعجب الاصدقاء بريشات السهام الملونة وأحس الاعداء بثباتها في قلوبهم . إن نكتة ليسنغ لا تشبه ذلك الانبساط أو العبث أو المزاح أو تلك الخواطر الظريفة الفكهة الخطيرة ، كما يعرف المرء أمثالها في هذه البلاد . إن نكتته لم تكن جرواً سلوقياً فرنسياً يعدو وراء ظله ؛ بل إن نكتته كانت قطاً ألمانياً كبيراً يلعب مع الفأر قبل أن يفتك به .

أجل ، كان الجدل لذة ليسنغ ومتعته . وعلى هذا لم يفكر طويلاً فيما إذا كان خصمه كفؤاً له أيضاً . وهكذا ، ومن خلال جدله هذا ، انتزع بعض الاسماء من عالم النسيان المستحق . والكثيرون من صغار الشعراء كانوا هدفاً لتهكمه البالغ الذكاء ولفكاهته اللطيفة المبهجة جداً بحيث إنَّ نسج مؤلفاته احتواهم إلى الأبد كأنهم حشرات وقعت أسيرة في قطعة كهرمان . وعلى حين قضى هو على خصومه خلّدهم في آنٍ واحد . فمَنْ منا سبق له أن عرف شيئاً عن شخص يدعى كلوتس(٩٥) صبَّ عليه ليسنغ وابل السخرية والتهكم والفطنة والذكاء ! إن جلاميد الصخر التي قذف بها هذا المسكين ، تاجر الكتب القديمة ، وسحقه بها سحقاً صارت له الآن تمثالاً حياً متيناً لا تبليه أيدي الحدثان .

وإن ما يدعو إلى الاستغراب هو أن ذلك الانسان الذي كان أظرف الناس في المانيا وأفكههم كان في الوقت نفسه أصدق الناس وأشرفهم واكثرهم استقامة . فلا شيء يماثل حبه للحقيقة . فهو لم يمنح الكذب أدنى حق أو امتياز حتى لو أنه استطاع بذلك وعلى طريقة الخبيرين بالدنيا المألوفة أن يظهر الحقيقة . وكان في مقدوره أن يفعل كل شيء من أجل الحقيقة ، إلا الكذب . وقد قال ذات مرة : «إن مَنْ يخطر بباله أن يوصل الحقيقة إلى الانسان بشتى أفانين التقنع ، التزويق له أن يكون قوّادها ، أما أن يكون عاشقاً لها فلا» .

إن قول بوفون(٩٦) الجميل : «الاسلوب هو الانسان نفسه!» لا يمكن أن ينطبق إلا على ليسنغ . فأسلوبه في الكتاب مثل طبعه : صادق ومتين وغير منمّق وهو جميل وفخم بفضل القوة الكامنة فيه . وأسلوبه هو اسلوب الأبنية الرومانية : أعظم متانة في أعظم بساطة . فالجمل مرتبة كالأحجار المربعة . ومثلما يتحكم قانون جاذبية الثقل بهذه الحجارة فإن النتيجة المنطقية هي الرباط اللامرئي في جمل ليسنغ . وعلى هذا تقلُّ في نثر ليسنغ كلمات الحشو ووسائل التعبير التي نستعملها في أثناء بناء مراحلنا كملاط إنْ صحّ هذا التعبير . وتندر لديه تماثيل الكارتيد(٩٧) الحاملة الأفكار التي تسمونها انتم العبارات الجميلة .

ولما أن رجلاً مثل ليسنغ لم يستطع قط أن يكون سعيداً في حياته فستفهمون ذلك بكل بساطة . ولو أنه لم يعشق الحقيقة ولم يزد عنها طوعاً واختياراً في كل مكان لكان عليه أن يكون تعيساً إذ أنه كان عبقرياً . ومنذ زمن غير بعيد قال شاعر متنهد : «كل شيء يمكن أن يغفره المرء لك : سيغفر لك غناك وعلو منبتك وحسن تكوينك ، بل إنه سيحتمل لك الموهبة ، على أنَّ المرء سيقسو على العبقرية ولن يرحمها» . ياإلهي ، فإن العبقرية ، إنْ لم تواجهها النية السيئة من الخارج ، ستجد في ذاتها ذلك الخصم الذي سيخلق لها البؤس والشقاء . وعلى هذا فإن تاريخ العظماء هو أبداً أسطورة الشهداء .

فإذا لم يعانوا من أجل الانسانية فإنهم يعانون من أجل عظمتهم الشخصية ومن أجل النمط العظيم لوجودهم البعيد عن ضيق الأفق وصغائر الأمور ويعانون من أجل تأففهم من الدناءة الزاهية ولؤم بيئتهم المكهكه ، إنه تأفف يدفعهم بالطبع إلى الغلو والتطرف كأنْ يقودهم إلى دار التمثيل أو إلى المسرح بعامة ، على نحو ما لقي المسكين ليسّنغ(٩٨) . على أن السمعة السيئة لم تستطع أن تلصق به اكثر من ذلك . ولا نعلم من سيرة حياته إلا أن ممثلات جميلات بدوّنَ له مسليات فكهات اكثر من قساوسة هامبورغ وأن اوراق اللعب الصامتة كانت تسليه وترفه عنه اكثر من مريدي فولف الثرثارين . وإنه لشيء يمزق القلب حين نقرأ في سيرة الحياة هذه كيف جرّد القدر هذا الرجل من كل بهجة وسرور وكيف ضنَّ عليه أيضاً بأن يستريح في كنف اسرته من خصوماته ومعاركه اليومية . مرةً واحدة ، ليس غير ، بدا أن الحظ شاء أن يؤثره ، فمنَّ عليه بزوجة محبوبة وطفل . ولكن هذا الحظ كان مثل شعاع شمس غمر بعسجده جناحي طائر عابر ، فسرعان ما ولى وأدبر هذا الحظ ، إذ ماتت الزوجة من النفاس ، ولم يلبث أن مات الطفل بعد الولادة . وكتب بخصوص الطفل إلى صديق هذه الكلمات الساخرة جداً : «كان سروري قصيراً ! لم أفقد هذا الابن إلا على مضض ! إذ كان يملك كثيراً من العقل ! الكثير من العقل ! لا تظن أن الساعات القليلة لأبوّتي جعلت مني قرداً أبوياً ! فأنا أعرف ما أقول ـــ ألم يكن تعقلاً وحكمة أن المرء اضطر إلى أن يسحبه إلى الوجود بكماشة حديدية ؟ ثم إنه سرعان ما لاحظ القاذورات والقمامات ؟ ألم يكن حكمة وتعقلاً أنه

انتهز أول فرصة ليولّي هارباً من جديد ؟ـ لقد رغبت أيضاً في أن أكون في خير مثل بقية الناس الآخرين . لكنني لم أسعد حالاً» .

وكان ثمة مصيبة لم يحدّث ليسنغ أصدقاءه عنها : إنها عزلته الرهيبة ووحدته الفكرية . وقلائل من معاصريه أحبه . وما من أحدٍ فهمه . أما مندلسون ، أفضل أصدقائه ، فقد دافع عنه بهمة وحماسة لما اتهمه الناس بأنه من أنصار سبينوزا وأتباعه . فالدفاع والحماسة كانا شيئين يبعثان على السخرية والضحك . وكانا أيضاً غير ذي غناء . فاطمئن في قبرك ، ياموسى الشيخ ! فصديقك ليسنغ كان في طريقه إلى ذلك الخطأ الفظيع ، إلى تلك الفاجعة المحزنة ، كان في طريقه إلى مذهب سبينوزا . على أن الرب المتعال ، أبانا في السماء ، أنقذه في الوقت المناسب بالموت . اطمئنَّ ، إذاً ، فصديقك ليسنغ لم يكن من أتباع سبينوزا كما زعم الوشاة . لقد مات مؤمناً مصدّقاً بمذهب التأليه كما كنت أنت وكما كان نيكولاي وتيللر وصحيفة «المكتبة الألمانية العامة !» .

لم يكن ليسنغ إلا النبي الذي انتقل في تفسيراته من جزء ثانٍ للانجيل إلى جزء ثالث له(٩٩) . ولقد سميته متمم لوثر . وبهذه الصفة يجب أنْ أتحدث عنه . وليس في وسعي أن أتكلم على أهميته بالنسبة إلى الفن الألماني إلا فيما بعد : فلقد أحدث في هذا الفن اصلاحاً مفيداً ، ليس من خلال نقده فحسب ، بل بامثولته ايضاً . وهذا الجانب من فاعليته ونشاطه هو ما يتم التوكيد عليه في كثير من الأحيان وتسلط عليه الأضواء . على أننا ننظر إليه من زاوية أخرى . فمعاركه الفلسفية واللاهوتية هي في نظرنا أهمُّ من نظرياته في فن التأليف المسرحي والتمثيل والنقد المسرحيين ، بل أهم من مسرحياته . على أن لمسرحياته ولمؤلفاته كلها أيضاً مضموناً اجتماعياً . والحق أن مسرحية «ناثان الحكيم» ليست ملهاة فحسب ، بل هي أيضاً بحث فلسفي لاهوتي لصالح مذهب التأليه الخالص . ثم إن ليسنغ كان يرى في الفن منبراً . وحين كان ينزله المرءمن على المنبر أو منصة المحاضرات عندها كان يقفز إلى المسرح(١٠٠) ويتكلم هناك على نحو اكثر وضوحاً ويجذب إليه اكبر عدد من الجماهير . وإني لأقول إن ليسنغ استمرار للوثر . فبعد أن كان لوثر حرر نامن التقليد وجعل الأنجيل المرجع الوحيد للمسيحية نشأت ، كما

تحدثت أعلاه ، عبادة جامدة للكلمة . كما أن حرف الانجيل استبدّ ايضاً كما استبد التقليد ذات مرة . وللتحرر من هذا الحرف المستبد ساهم ليسنغ اكثر من أي شخص آخر .

وكما أن لوثر لم يكن الرجل الوحيد الذي ناهض التقاليد فإن ليسنغ لم يقاتل ايضاً وحده ، على أنه حارب الحرف أشدّ محاربة . وهنا يجلجل صوته عالياً مسموعاً في المعمعان . وهنا يهزّ سيفه في ابتهاج كبير ويلمع السيف ويقتل . وهنا تضيق الشرذمة السوداء(١٠١) الخناق على ليسنغ على نحو أشد ، وفي مثل هذه الضائقة صاح آنذاك قائلاً : «أيتها السذاجة المقدسة ! على أنني لم أصل بَعْدُ إلى حيث لم يستطع الرجل الطيب الذي هتف بذلك أن يطلق إلا هذا النداء فقط . «ولقد هتف هوس(١٠٢) بذلك وهو مشدود إلى وتد فوق كومة الحطب قبل حرقه) . وفي بادىء الأمر ينبغي أن يسمعنا ويحكم علينا مَنْ يريد ومنْ يستطيع أن يسمع ويحكم !

ولما كان هو القادر على ذلك ، هو وحده دون غيره ، ذلك الذي آثرت أن أتخذه قاضياً لي !ـ أنت ، يالوثر ، أيها الرجل العظيم الذي جهل الناس قدره ! ومامن أحد جهل قدرك وأساء فهمك اكثر مما فعل اصحاب العقول العنيدة الذين يحملون خفّك المنزلي باليد ويولولون في الطريق الذي شققته أنت ، على أنهم يخطرون بلا اكتراث ! انت حررتنا من نير التقليد . فمن يحررنا من نير الحرف ، النير الذي لا يطاق ! مَنْ يأتينا أخيراً بمسيحيةٍ تكون كالمسيحية التي كنت ستعلّمها الآن أو كان المسيح نفسه سيعلّمها!» .

والحق أن الحرف هو آخر غلاف للمسيحية ، على حد تعبير ليسنغ . ولن يبرز الروح إلا بعد تدمير هذا الغلاف . على أن هذا الروح ليس إلا الشيء الذي فكرت بإظهاره فلسفة فولف وأحسَّ به محبو الانسانية في قلوبهم ووجده مندلسون في المذهب الموسوي وتغنّى به الماسونيون(١٠٣) ودندن به الشعراء ، وهو الشيء الذي ظهر آنذاك في ألمانيا في كل الصيغ والأشكال : إنه مذهب التأليه الخالص .

ومات ليسنغ في مدينة براوينشفايغ في سنة ١٧٨١ ، مغموراً ومكروهاً

ومشوّه السمعة . وفي العام نفسه ظهر بمدينة كوينكز بيرغ «نقد العقل الخالص» لمؤلفه عمانوئيل كانط . وبهذا الكتاب الذي لم يكن معروفاً للجميع بسبب تأجيل غريب إلا في نهاية الثمانينات تبدأ ثورة فكرية في ألمانيا تماثل على نحو شديد الغرابة الثورة المادية في فرنسا ويجب أن تبدو مهمة أيضاً في نظر المفكر البعيد الغور مثل الثورة المادية الفرنسية . وتتطور على نفس المراحل ؛ ويجمع بين الثورتين كلتيهما أغرب شبه وأعجب تطابق فعلى جانبي نهر الراين كليهما نرى القطيعة نفسها مع الماضي وتتم المجاهرة بطرح كل هيبة واحترام عن التقليد . وكما سوّغ نفسه كل حق في فرنسا فعلى كل فكرة أن تسوّغ نفسها في ألمانيا ، وكما انهارت الملكية ، مرتكز النظام الاجتماعي القديم في فرنسا ، فإن مذهب التأليه ، مرتكز نظام الحكم الفكري القديم ، ينهار في ألمانيا .

وسنتكلم في السفر التالي على تلك الكارثة التي نزلت بمذهب التأليه في الواحد والعشرين من كانون الثاني(١٠٤) . وإن ما يمنعنا اليوم من الاستمرار في الكتابة هو هول مميز وبرٌّ غامض . فصدرنا عامر بالشفقة الرهيبة . وإن الذي يتهيأ للموت هو يَهْوَه القديم نفسه لقد عرفناه معرفة جيدة ، من مهده في مصر حيث نشأ وترعرع بين العجول والتماسيح والبصل المقدس وطيور أبي منجل والقطط ؛ ورأيناه يودّع رفاق طفولته والمسلات الفرعونية وأبا الهول في وادي النيل . ونراه في فلسطين وقد صار ملكاً إلهياً صغيراً لدى جماعة من الرعاة الفقراء ويسكن في هيكل خاص . ورأيناه ، بعدئذ ، يحتك بالحضارة البابلية الآشورية ويتخلص من أهوائه ورغباته المفرطة في الانسانية ، فلم يعد ينفث غضباً ولا ثأراً ؛ وأقل ما يمكن لم يعد يزمجر على الفور عند كل دنية وخسة ولؤم ؛ ورأيناه يهاجر إلى روما العاصمة التي تخلى فيها عن كل تغرّض وطني ونادى بالمساواة السماوية لكل الشعوب وعارض بمثل هذه العبارات الجميلة جوبيتر القديم وظل يكيد إلى أن توصل إلى الحكم وحكم من فوق قلعة روما المدينة والدنيا ، دانيها وقاصيها ؛ ورأيناه يزداد سموّاً بروحه ويشكو في هدوء ودماثة ويصير أباً محباً وصديقاً محباً للبشرية عامة ومسعداً ومباركاً ومحباً لها ؛ ولم يكن في وسع هذا كله أن يجديه نفعاً .

ألا تسمعون الناقوس يقرع ؟ هيا اركعوا ؛ فالمرء يقدم القربان المقدس .

السفر الثالث

تقول الاسطورة إن ميكانيكياً إنجليزياً كان قد اخترع الآلات الصناعية على أحسن ما يمكن وخطر بباله أخيراً أن يصنع إنساناً . وحالفه النجاح أيضاً في ذلك . واستطاع هذا الشيء الذي صنعته يداه أن يسلك ويتصرف كإنسان ؛ بل إنه حمل في صدره الجلدي نوعاً من المشاعر الانسانية التي لا تختلف أبداً عن مشاعر الانجليز العادية . وكان في وسعه أن ينقل مشاعره بأصوات ملفوظة على نحوٍ واضح . ثم إنَّ خشخشة العجلات الداخلية وأصوات الحك وشد اللوالب التي سمعها المرء بعدئذ ، أضفت على هذه الأصوات لهجةً انكليزية خالصة . وقصارى القول إنَّ هذا الجهاز الذاتي الحركة كان رجلاً شريفاً كاملاً . ولم ينقصه شيء إلا الروح لكي يكون إنساناً حقيقياً . على أن الميكانيكي الانجليزي لم يستطع أن يمنحه الروح ؛ وهذا المخلوق المسكين ، الانسان الآلي ، الذي صار على بينة بمثل هذا النقص راح يعذب صانعه ليل نهار طالباً منه أن يمنحه روحاً . ومثل هذا الطلب الذي تكرر بإلحاح زائد أثقل على الفنان فضاق ذرعاً به واضطر إلى أن يفرَّ هارباً من عمله الفني . على أن الجهاز الذاتي الحركة سرعان ما لجأ إلى البريد السريع يتعقب صاحبه في القارة ويسافر وراءه باستمرار فيدركه تارة ويواجهه بعدئذ بصلصلةٍ أو نخرٍ أو قباع : «هَبْني روحاً !» .

والحق اننا لنلتقي بهاتين الصورتين كلتيهما في البلدان كلها . وإن مَنْ يعرف علاقتهما الخاصة يفهم عجلتهما الغريبة وشكاستهما القلقة . أما إذا عرف المرء هذه العلاقة الخاصة فإنه يرى فيها شيئاً عاماً ويرى كيف أن طائفةً من الشعب الانجليزي سئمت وجودها الانساني وصارت تطالب بروح . على أن طائفة أخرى اندفعت هائمةً على وجهها خائفة من مثل هذه الرغبة . على أن كلتا الطائفتين لم تعد تستطيع الصبر في الوطن .

وإن هذه لقصة رهيبة . وإنه لأمر مخيف حين يطالبنا الجسد الذي خلقناه نحن بروح . على أن الأمر يكون اكثر هولاً وفظاعة ورهبة حين نخلق نحن روحاً ثم تطالبنا هذه الروح بجسد وتلح علينا بهذا الطلب . وإن الفكرة التي تخطر ببالنا مثلها مثل هذه الروح التي لن يهدأ لها بال حتى نمنحها جسداً فتتجسد ظاهرة حسية ملموسة . وتريد الفكرة أن تصير فعلاً والكلمة جسداً . ويا عجباً ، فالانسان ، مثله مثل إله الانجيل ، ما عليه إلا أن يعبِّر عن فكرته فيتكون العالم ويحل النور أو الظلام وينفصل الماء عن اليابسة وتظهر حيوانات متوحشة . فالعالم أو الكون هو علامة الكلمة ورمزٌ لها .

وانتم يا رجال الفعل المغرورين تعرفون ذلك . فما أنتم إلا أعوانٌ لرجال الفكر من غير وعي أو تفكير ، هؤلاء الرجال الذين كثيراً ما رسموا لكم في هدوء بالغ التواضع اعمالكم كلها على نحو محدد . ولم يكن مكسيميليان روبسبيير إلا يداً لجان جاك روسو ، اليد الدامية التي انتزعت من غياهب الزمن الجسد الذي خلق روسو روحه . فالخوف المقلقل الذي أفسد على روسو حياته ، ألا يرجع هذا الخوف إلى أن روسو فكر في قرارة نفسه بالمولد الذي تحتاجه افكاره لكي تبصر النور جسداً ؟ ولعل فونتينيل العجوز[1] كان على صواب حين قال : «لو آني حملت في يدي كل أفكار هذا العالم لاحترزت من أن أفتحها» . أما أنا فإن لي تفكيراً آخر . فلو كانت أفكار هذه الدنيا كلها في حوزتي لرجوتكم بأن تقطعوا يدي على الفور . وبالتأكيد انني لن أترك يدي مغلقةً إلى وقت طويل . فأنا لا أصلح لأن أكون سجاناً للأفكار . وإني ، والله ، سأطلق سراحها . فلْتتجسد هذه الأفكار على أية حال في شتى المظاهر التي تدعو للشك ، ولتنطلق في كل انحاء البلاد مثل موكب باخوسي

معربد ولتحطم ، على كل حال ، أطهر ورودنا وأبرأها بصوالجها الباخوسية ولتقتحم ، على كل حال ، مشافينا ولتطرد العالم المريض القديم من سريره ـ وطبيعي أن فؤادي سيغتمّ وإني سأتضرر في أثناء ذلك ! إذ أني ، واحسرتاه ، انتمي إلى هذا العالم المريض القديم ، وإنَّ الشاعر لعلى صواب حين يقول: إذا ما هزىء المرء من عكازيه فلن يستطيع بذلك أن يمشي على نحو افضل . فأنا أشدّكم مرضاً وأجدركم بالرثاء والشفقة ذلك لأني أعرف ما الصحة . أما أنتم فلا تعرفون ذلك ، يامن تحسدون على ذلك ! إنكم قادرون على أن تموتوا من دون أن تفطنوا إلى ذلك . والحق أن كثيرين منكم أمواتٌ منذ زمن طويل ، ويزعمون أن حياتهم الحقيقية تبدأ الآن . وحين أرد على مثل هذا الجنون سينقم الناس علي وسيطعنون في ـ ويا للهول ، فالجثث تثبُ عليَّ وتسبّني ؛ ثم إن رائحة عفونتها تضايقني اكثر من شتائمها ومسباتها .. ابتعدي ايتها الاشباح ، فإني اتكلم الآن على رجلٍ كان لاسمه قوة وعزيمة يعزم بها على الأرواح والجن ، إني اتكلم على عمانوئيل كانط !

ويقال إن اشباح الليل تفزع حين تلمح سيف الجلاد . فكيف يكون ذعرها حين يواجهها المرء بكتاب كانط «نقد العقل الخالص !»(٢) فهذا الكتاب هو السيف الذي أعدم به مذهب التأليه في ألمانيا .

وبصراحة ، أيها الفرنسيون ، فأنتم تتميزون ، بالقياس إلينا نحن الألمان ، بالوداعة والاعتدال . فأنتم استطعتم أن تقتلوا ملكاً على الأقل ، وكان هذا الملك قد أضاع رأسه قبل أن تطيحوا بهذا الرأس . وفي أثناء ذلك كان عليكم أن تضجوا وتصرخوا كثيراً وتخبطوا على الارض خبطاً شديداً بحيث إن أرجاء الكرة الأرضية كلها ارتجت . والحق انه لشرف عظيم لماكسيميليان روبسبيير أن يقارنه المرء بعمانوئيل كانط . فماكسيميليان روبسبيير الشخص الكبير التافه والمحدود الأفق من شارع سانت أونور كانت تأتيه نوبات الغضب المخرّب حين كان الموضوع يدور حول الملك والملكية . وعندها كان يرتعش ارتعاشاً مخيفاً في صرعه القاتل للملك . وكان حالما كان الحديث يدور حول اسمى الطباع فإنه كان يمسح الزبد الابيض من على فمه ويغسل يده من الدم ويرتدي سترة يوم الاحد الزرقاء ذات الازرار اللماعة البراقة ويشك ، فضلا عن ذلك ، باقة زهور فوق صداره العريض .

ومن الصعب وصف تاريخ حياة عمانوئيل كانط . إذ لم يكن له حياة ولا تاريخ . ولقد عاش حياة عازب رتيبة منظمة تنظيماً آلياً وكانت شبه بعيدة عن الواقع . لقد عاش في زقاق هادىء ناءٍ بمدينة كونيكزبيرغ الواقعة على حدود المانيا الشمالية الشرقية . ولا أظن أن الساعة الكبيرة في الكنيسة الموجودة هناك كانت تؤدي عملها اليومي الخارجي على نحوٍ أكثر انتظاماً وهدوءاً مما كان يؤديه ابن بلدها عمانوئيل كانط . فالنهوض من النوم وتناول القهوة والكتابة وقراءة الحلقات الدراسية وتناول الطعام والتنزه ، هذا كله كان له وقته المحدد . وكان جيرانه يعرفون تمام المعرفة أن الساعة ستدق الثالثة والنصف لحظة كان عمانوئيل كانط يخرج من بيته في سترته الرمادية ومعه خيزرانته الاسبانية ثم يتجه إلى شارع ليندين الصغير الذي مازال يسمى إلى الآن ممشى الفلاسفة . وهنا كان يتمشى في كل فصل من فصول السنة ثماني مرات جيئة وذهاباً . وإذا اعتكر الجو أو انذرت الغيوم السوداء بالمطر شاهد الناس خادمه لامبي العجوز يمشي وراءه مشفقاً مشغول البال متأبطاً مظلة طويلة كصورة للعناية الالهية .

وإنه لتناقض عجيب بين حياة الرجل الظاهرية وبين فكره الهدام المدمر للوجود ! والحق أن مواطني مدينة كونيكزبيرغ لو كانوا أحسوا مسبقاً بأهمية هذا الفكر لكانوا شعروا بالرهبة والوجل الفظيع من هذا الرجل اكثر من رهبتهم من الجلاد الذي لا يقطع إلا رؤوس آدميين . على أن هؤلاء الناس الطيبين لم يروا في هذا الرجل إلا استاذ الفلسفة . وحين كان يمر بهم في ساعة محددة كانوا يحيونه بلطف وأدب ويضبطون ساعاتهم تبعاً لذلك .

ولكن إذا كان عمانوئيل كانط ، هذا الهادم العظيم في مملكة الأفكار ، قد بزّ مكسيميليان روبسبيير في الارهاب فإن بينه وبين هذا بعض التشابهات التي تستدعي مقارنة الرجلين معاً . وفي المقام الأول نجد لدى كلٍّ منهما الاستقامة نفسها ، تلك الاستقامة الواقعية غير الشاعرية اللاذعة الصارمة . كما نجد عندهما موهبة سوء الظن ؛ على أن أحدهما يمارس هذه الموهبة ضد الأفكار ويسميها نقداً على حين يستخدم الآخر هذه الموهبة ضد البشر ويسميها الفضيلة الجمهورية . على أن نموذج الانسان العادي المحدود الافق يظهر في كل منهما في أقصى درجاته . ثم

إن الطبيعة قضت عليهما أن يزنا القهوة والسكر ؛ أما القدر فأراد أن يزنا أشياء أخرى فوضع لأحدهما ملكاً في كفة الميزان وللآخر إلهاً .. ثم أعطى كلاهما الوزن الحقيقي !

إن كتاب «نقد العقل الخالص» هو أهم مؤلفات كانط . وعلينا أن نقف بصورة خاصة على هذا الكتاب ونعالجه لما له من أهمية كبيرة دون غيره من مؤلفات كانط الأخرى . ولقد سبق أن ذكرنا أن هذا الكتاب ظهر في سنة ١٧٨١م ولم يذع صيته إلّا في سنة ١٧٨٩م . فلقد أهمله الناس في بادىء الأمر ، ولم يخصوه آنذاك إلا باعلانين تافهين ، على أن مقالات شوتس[٥] وشولتس[٦] ورواينهولد[٧] لفتت فيما بعد انتباه الجمهور إلى هذا الكتاب العظيم . أما السبب في هذا الاعتراف المتأخر فيعود إلى الشكل الغريب والاسلوب الرديء . وبخصوص الاسلوب فإن كانط يستحق اللوم الكبير اكثر من أي فيلسوف آخر . ولاسيما حين ندقق النظر في اسلوبه السابق الافضل . وإن مجموعة مؤلفاته الصغيرة التي ظهرت مؤخراً لتتضمن المحاولات الاولى . ونعجب هنا من الاسلوب الجيد الذي يتسم احياناً بروح الدعابة والنكتة . وعلى حين كان كانط يخطط في رأسه لعمله الكبير كان يدندن بهذه المقالات الصغيرة . ويبتسم عندئذ مثل جندي يتقلد سلاحه برباطة جأش لكي يمضي الى ساح القتال والنصر نصب عينيه . وإن من بين تلك المؤلفات الصغيرة ما يدعو إلى الاستغراب بنوعٍ خاص هو : «التاريخ العام للطبيعة ونظرية السماء»[٨] الذي كتب في سنة ١٧٥٥م و«ملاحظات حول الشعور بالجمال والجلال»[٩] الذي كتبه كانط بعد مرور عشر سنوات أي في عام ١٧٦٥م ، ثم «أحلام واهم»[١٠] ، حيث إن هذه كلها تحفل بالبهجة ورضى النفس مثلها مثل المقالات الفرنسية . إن النكتة التي يعبّر عنها كانط في هذه المؤلفات الصغيرة لتتميز بشيء خاص وغريب . إنها هنا تتسلق على الفكرة ، ورغم ضعفها تصل إلى علو يبعث على الارتياح . والحق أنه بدون مثل هذه الدعامة لن تتمكن أغنى النكات من النماء ؛ وإلا كان عليها أن تزحف على الارض زحفاً يرثى له وتتعفن هي ونفيس ثمرها ، وهي في ذلك مثل الدالية التي تفتقر إلى العصا أو العود .

ولكن لماذا كتب كانط كتابه «نقد العقل الخالص»(١١) في اسلوب قوي موغل في الابهام وجاف ؟ فعل ذلك لأنه ، على ما أعتقد ، رفض الصيغة الرياضية لكل من ديكارت ولايبنتز وانصار فولف ، كما خشي أن يفقد العلم شيئاً من مكانته لو أنه عبّر عن نفسه بلهجة سهلة مرحة مؤدبة . وعلى هذا منح العلم شكلاً مجرداً جامداً رفض ببرود كل ألفة الطبقات الفكرية الدنيا وأراد أن ينفرد كل الانفراد عن الفلاسفة الشعبيين في ذلك الحين الذين كانوا يتطلعون إلى وضوح شعبي فصاغ افكاره بلغة دواوين جامدة باردة برودة الحاشية الملكية . وهنا يظهر الانسان المحدود الافق على حقيقته . ولعل كانط كان في حاجة إلى لغة اكثر هدوءاً ورزانة وذلك من أجل سياق افكاره وتسلسلها الهادىء هدوءاً دقيقاً . ولم يكن في مقدوره أن يبتكر لغة أفضل . والعبقرية وحدها تملك زمام الكلمة الجديدة من أجل الفكرة الجديدة . على أن عمانوئيل كانط لم يكن عبقرياً . ولما كان كانط يشعر بهذا النقص على نحو ما كان يشعر به ماكسيميليان روبسبيير فإنه كان يسيء الظن بالعبقرية ؛ حتى إنه ليزعم في كتابه «نقد ملكة الحكم»(١٢) أنه لا شأن للعبقرية في العلم ، بل إن مكان فاعليتها محصور في الفن .

ولقد سبب كانط اضراراً جمة باسلوبه الممل المضجر في كتاب «نقد العقل الخالص» ، ذلك لأن المقلدين الأغبياء قلّدوه تقليد القردة وحاكوه في هذه التفاهة والسطحية . ونشأ عندنا الاعتقاد الخرافي بأن المرء لا يكون فيلسوفاً حين يكتب بصورة جيدة . على أن الصيغة الرياضية(١٣) لم يعد في وسعها أن تظهر في الفلسفة بدءاً من كانط . وكان كانط قد أدان هذه الصيغة الرياضية بقسوة في «نقد العقل الخالص» . ويقول إن الصيغة الرياضية في الفلسفة لا تسفر إلا عن بناءٍ من ورق اللعب مثلها مثل الصيغة الفلسفية في الرياضيات التي لا تسفر إلا عن ثرثرة فارغة ، ذلك لأنه لا يمكن أن تكون هنالك تعريفات في الفلسفة كما هي الحال في الرياضيات حيث لا تكون التعريفات منطقية ، بل حدسية وهذا يعني يمكن البرهان عليها بالرؤية . فما يسميه المرء تعريفات في الفلسفة لا يتم تقديمه إلا فرضياً وتجريبياً . أما التعريف الصحيح كل الصحة فلا يظهر إلا في النهاية على أنه نتيجة .

كيف حدث أن الفلاسفة أظهروا ميلاً شديداً إلى الصيغة الرياضية ؟ يبدأ هذا الميل بفيثاغورس الذي وصف مبادىء الأشياء بأعداد . ولقد كانت هذه الفكرة فكرة عبقرية . فكل ماهو حسي ومتناهٍ يتجرد في العدد . ومع هذا فإن العدد يرمز إلى شيء محدد وإلى علاقة هذا الشيء المحدد بشيء آخر محدد اتخذ طابع اللامحسوس واللامتناهي ، هذا إذا كان قد عُيِّن ايضاً بعدد . وهنا يشبه العدد الافكار التي لها الطابع نفسه والعلاقة نفسها . وفي وسع المرء أن يعين من خلال الاعداد الافكار كما تظهر في عقلنا وفي الطبيعة ، تعييناً صائباً جداً . على أن العدد يبقى أبداً رمزاً للفكرة وليس هو الفكرة نفسها . فالمعلم يظل على معرفة بهذا الفرق ؛ ولكن التلميذ ينسى ذلك ولا ينقل لتلامذته إلا أعداداً هيروغليفية أو رموزاً ليس غير ، يجهل معناها الحي كل واحد ويرددها المرء بفخارٍ مدرسي . ثم إن الشيء نفسه لينطبق على العناصر الأخرى للصيغة الرياضية . فالشيء الذهني الروحي يمتنع في حركته الازلية عن أي تحديد أو تثبيت ؛ وكما يمتنع عن التحديد والتثبيت بالعدد يمتنع أيضاً عن التحديد والتثبيت بالخط والمثلث والمربع والدائرة . إنه ليس في الامكان عدُّ الفكرة أو قياسها .

ولما أنه كان يهمني في المقام الأول تبسيطُ دراسة الفلسفة الالمانية في فرنسا فإنني أعالج في أغلب الأحيان وبصورة دائمة تلك السطحيات التي تنفر الاجنبي بسهولة ويسر ، لاسيما إذا لم يكن المرء قد أطلعه على ذلك من قبل . فالأدباء الذين يريدون أن يقدموا كانط للجمهور الفرنسي ، هؤلاء الفت انتباههم بصورة خاصة إلى أنه في إمكانهم أن يحذفوا من فلسفة كانط ذلك الجانب الذي يراد به مهاجمة سخف فلسفة فولف ، ليس غير . وهذا الجدل الذي يشقّ طريقه هنا وهناك بجهد جهيد لا يمكن أن يخلق لدى الفرنسيين إلا الحيرة ولا يمكن أن يجرَّ عليهم نفعاً أبداً . وكما علمت فإن السيد الدكتور شون الذي هو عالم ألماني ويعيش في باريس ، يرى في أن يصدر مؤلفات كانط باللغة الفرنسية . وإني لأحسن الظن بمعلومات المذكور الفلسفية واطلاعه الفلسفي . ولا أرى ضرورة في أن انبهه إلى ما نوهت عنه أعلاه ؛ بل إني لاتوقع منه كتاباً مهماً ونافعاً على سواء . ولقد سبق أن قلت إن «نقد العقل الخالص» هو أهم مؤلفات كانط . ثم إن مؤلفاته الأخرى يمكن

الاستغناء عنها إلى حد ما أو يمكن عدها على أية حال شروحاً وتعليقات . وبالتالي سيتضح لنا نوع الأهمية الاجتماعية التي ينطوي عليها هذا المؤلَّف الأساسي .

ولقد فكّر الفلاسفة قبل كانط بمصدر معرفتنا . وكما سبق أن بيّنا ، فإنهم ساروا في اتجاهين مختلفين وذلك بحسب ما تبنوه من افكار أولية قبلية أو أفكار لاحقة . وقلّما فكّر الفلاسفة بقدرتنا على المعرفة وبمدى هذه القدرة أو حدودها . وانبرى كانط لهذه المهمة وأخضع قدرتنا العقلية لدراسة لا تعرف الهوادة وسبر اعماق هذه الطاقة وعيّن حدودها كلياً . ووجد أننا لا نستطيع أن نعرف شيئاً عن أشياء كثيرة جداً كنّا نتوهم أننا كنا ، فيما مضى ، على اطلاع وثيق بها وعلى معرفة ودية حميمة . وكان هذا أمراً مزعجاً ومملاً جداً . لكنه كان دائماً شيئاً مفيداً أن نعرف أي الاشياء لا نستطيع أن نعرف عنها شيئاً . فمن يحذرنا من طرق غير مجدية يقدم لنا أيضاً خدمةً مثله كمثل الذي يدلنا على الطريق القويم . ولقد أثبت لنا كانط أننا لا نعرف شيئاً عن الاشياء كما هي عليه في الأصل ، وانما نعرف عنها بقدر ما تنعكس في عقلنا ، ليس غير . وفي مثل هذه الأحوال نكون كالسجناء الذين يتحدث عنهم افلاطون في الفصل السابع من كتابه «الجمهورية»[١٥] ويذكر اشياء في غاية من الكآبة والكدر ؛ فهؤلاء التعساء المغلولون في اعناقهم وافخاذهم ولا يستطيعون أن يديروا رؤوسهم يجلسون في سجن أعلاه مفتوح ، ويأتيهم من فوق قليلٌ من الضوء . على أن هذا الضوء يأتي من نار تشتعل فوقهم ومن ورائهم ويفصلهم عنها أيضاً جدار صغير . وعلى طول هذا الجدار يسير ناسٌ يحملون شتى أنواع التماثيل الحجرية والخشبية ويتحادثون معاً . ولا يستطيع السجناء المساكين أن يروا شيئاً من هؤلاء الناس الذين يزيدهم الجدار ارتفاعاً . أما التماثيل المحمولة التي تعلو فوق الجدار فلا يرون منها إلا الظلال التي تتحرك على الجدار المقابل لهم . وهنا يظن المساجين أن هذا الظلال هي الاشياء الحقيقية . ويضلِّلهم صدى سجنهم فيعتقدون أن هذه الظلال هي التي تتحادث مع بعضها .

لقد كانت الفلسفة حتى ذلك الحين تطوف هنا وهناك تسترق النظر في الاشياء وتدس أنفها في كل شيء وتجمع علامات مميزة للاشياء نفسها وتصنّفها

ولم يعد هذا النوع من الفلسفة قائماً موجوداً منذ أن ظهر كانط فوجه البحث إلى الوراء ، إلى العقل الانساني ، ودرس ماكان يظهر هنا . وعلى هذا فإنه يقارن بحق فلسفته باسلوب كوبيرنيك وطريقة عمله . وقبل ذلك ولّا جعل المرء الأرض ثابتة وجعل الشمس تدور حولها لم تشأ الحسابات الفلكية أن تتوافق وفي هذه الحال جعل كوبرنيك الشمس ثابتة وجعل الأرض تدور حولها ، وإذا الأمور تسير على نحو رائع ممتاز . وقديماً دار العقل مثل الشمس حول عالم الظواهر وحاول أن ينيره . على أن كانط يجعل العقل ، أي الشمس ، ثابتاً ويجعل عالم الظواهر يدور حول العقل ويتنور بقدر ما يدخل في مجال هذه الشمس .

وبعد أن نوهت بهذه الكلمات القليلة الى مهمةكانط صارمفهوماً للجميع أنني أعدّ ذلك الفصل الذي يعالج فيه ما يسمى بالظواهر (phanomena) والمعقولات (Noumena) أو الأشياء في ذاتها أهمَّ جزء في كتابه وأعده محور فلسفة كانط . والحق أن كانط يميز بين ظواهر الأشياء والاشياء في ذاتها . ولّا كنا لا نستطيع أن نعرف عن الاشياء إلا بقدر ما تتجلى لنا من خلال الظاهرة ولما كانت الاشياء لا تظهر لنا كما هي عليه في الواقع فإن كانط سمى الاشياء من حيث ظهورها الظواهر (phanomena) وسماها كما هي في ذاتها المعقولات أو الحقائق (Noumena). وليس في وسعنا أن نفهم شيئاً الا عن الظواهر ، أما عن الأشياء في ذاتها فإننا عاجزون عن معرفة أي شيء . فالأشياءفي ذاتها تتسم بطابع الاشكالية ، ليس غير . فليس في وسعنا أن نقول إنها موجودة أو غير موجودة . والحق أن كلمة (Noomena) أي الشيء بالذات هي في مقابلة (phanomen) أي الظاهرة لا لشيء إلا لكي نتكلم على أعياء في حال ظهورها لنا دون أن نمسَّ بحكمنا الأشياء التي لا تظهر لنا . وهكذا فإن كانط لم يفرّق كما فرّق بعض الأساتذة الذين لا أريد أن اذكر اسماءهم بين أشياء موجودة بالنسبة لنا وأشياء غير موجودة بالنسبة لنا . وأكتفي بأن أعطى مفهوماً حدياً فقط .

ويرى كانط أن الله شيء بالذات (Noumen). وتبعا لمحاججته فإن ذلك الموجود المثالي المتعالي الذي سمّي إلى الآن الله ليس إلا شيئاً مختلفاً . فهو وليد وهم

طبيعي . والحق أن كانط يبين كيف أننا لا نستطيع أن نعرف شيئاً عن ذلك الشيء بالذات ، أي عن الله ، وأن كل برهنة مستقبلية على وجوده أمرٌ محال .

وإننا لنضع عبارة دانتي : «تخلّوا عن الأمل !»[١٧] شعاراً لهذا الفصل من كتاب «نقد العقل الخالص» .

وأعتقد أن المرء سيعفيني من المعالجة المبسطة لذلك الباب الذي يتناول «حجج العقل النظري للاستدلال على وجود كائن أسمى» . ومع أن دحض هذه الحجج لا يشغل حيزاً كبيراً ولن يظهر إلا في النصف الثاني من هذا السفر فإن هذا الدحض في صميمه قد تمَّ التمهيد له من البداية على نحو متعمد ، ويعد جزءاً لا يتجزأ من قضايا الكتاب الاساسية المهمة . ويرتبط بذلك «نقد اللاهوت النظري أو العقلي» ويتهدّم ما تبقى لدى اتباع مذهب التأليه من صور وهمية . وعلى حين هاجم كانط الانماط الأساسية الثلاثة للبرهان على وجود الله وهي الدليل الوجودي (الانطولوجي) والدليل الكوني (الكوسمولوجي) والدليل الطبيعي اللاهوتي[١٨] فلابد لي من القول إن كانط لم يستطع أن يدمّر إلا الدليلين الأخيرين : الكوني والطبيعي اللاهوتي وأبقى على الدليل الثالث . ولست أدري ما إذا كانت التعابير المذكورة أعلاه معروفة هنا في فرنسا ؛ وعلى هذا فإني أسوق الشاهد من كتاب «نقد العقل الخالص» حيث يعبّر كانط عما يميز هذه الأدلة من بعضها إذ يقول : «ليس هنالك إلا ثلاثة أنواع من الأدلة على وجود الله مستمدة من العقل اللاهوتي . وإن كل الطرق التي يمكن أن يسلكها المرء من أجل ذلك لتبدأ إما من التجربة المحددة والطبيعة الخاصة لعالم المحسوسات المدرك بواسطة التجربة التي تصعد منها هذه الطرق وفق قوانين العلية حتى تصل إلى أعلى علة خارج هذا الوجود أو أن هذه الطرق كلها تكون الاساس لتجربة غير محددة أو لوجود ما ، أو أنها تتجرد من كل تجربة وتستدل استدلالاً أولياً تاماً من مفاهيم مجردة على وجود أسمى علة . فالدليل الأول هو الطبيعي اللاهوتي والثاني هو الكوني (الكوسمولوجي) والثالث هو الدليل الوجودي (الانطولوجي) . ولا وجود لأكثر من ذلك ، ولا يمكن أن يكون هنالك اكثر من ذلك أيضاً» .

وبعد دراسة شاملة متكررة لكتاب كانط «نقد العقل الخالص» حسبت انني ادركت أن الجدل أو الهجوم العنيف لتفنيد تلك الادلة على وجود الله يسترق السمع في كل مكان ، وكنت سأناقش هذه الادلة على نحو مستفيض لو لم يحل بيني وبين ذلك حسٌ ديني . ولمجرد أنني أرى شخصاً ما يناقش وجود الله فإنه يثير في نفسي خوفاً غريباً وانقباضاً رهيباً على نحو ما شعرت به آنذاك وأنا في نيو بيدلام ، في مصح المجاذيب ، إذ غاب عني دليلي وأناني وسط مجانين ، ليس غير . «الله هو كل شيء موجود هنا» ، وإنَّ الشك به هو شك بالحياة نفسها وهو الموت .

وإذا كان النقاش أيضاً حول وجود الله مستنكراً فإن التفكير بطبيعة الله لأجدر بالإكبار والثناء . فهذا التفكير هو عبادة الهية صادقة ، إذ يخلص قلبنا بذلك من كل ماهو فانٍ ومتناه ويتوصل إلى إدراك منبع الخير وإلى الشعور بالاتساق الأزلي . وهذا الشعور يساور الانسان العاطفي في الصلاة أو لدى التأمل في رموز كنسية . والمفكر المتأمل يجد هذا الجو القدسي الرهيب في ممارسة تلك الطاقة الذهنية السامية التي نسميها العقل وإن أسمى رسالة لها هي أن تتقصى طبيعة الاله . فالرجال المتدينون بخاصة يقفون على هذه المهمة منذ نعومة أظفارهم ويشعرون على نحو غامض ورهيب بالضيق والكرب من ذلك ومن خلال أول حركة للعقل .

وإن كاتب هذه الصفحات ليشعر بمثل هذا التدين القديم الأصيل على نحو بالغ البهجة ، وإن هذا الشعور لم يفارقه أبداً . فالله كان أبداً بداية ونهاية أفكاري كلها . وإذا تساءلت الآن : ماالله ؟ وما طبيعته ؟ فإني تساءلت وأنا طفل صغير : كيف هو الله ؟ وكيف يبدو ؟ وكان في وسعي آنذاك أن أرنو إلى السماء أياماً بكاملها وكنت اشعر في المساء بالكآبة الشديدة ذلك أنني لم أبصر أبداً وجه الله القدوس ولم أر إلا صور غيوم مشوهة بلهاء داكنة .

ولقد اربكتني وحيّرتني الأخبار الفلكية التي كانت تصل آنذاك وفي فترة عصر التنوير إلى مسامع أصغر الأولاد . ولم استطع أن أتمالك دهشتي من أن كل هذه الملايين من النجوم هي أيضاً كرات أرضية جميلة كبيرة مثل كوكبنا الأرض وأنَّ

كل هذه الملايين من العوالم يحكمها ويديرها إلهٌ واحد . وأتذكر أني رأيت الله ذات مرة في المنام ، هنالك فوق وفي أبعد مكان . كان ينظر من نافذة سماوية صغيرة بوجه عجوز تقي ورع ولحية يهودي صغيرة وكان ينثر كمية من الحب . وعلى حين كان يسقط هذا الحب من السماء على الارض كان يطلع بالتقريب في مكان رحبٍ لا متناه وينتشر انتشاراً كبيراً إلى أن يصير عوالم مأهولة زاهرة مشرقة وضاءة . وكل عالم كبير كبر عالمنا الارضي . ولم أستطع نسيان هذا الوجه أبداً . وكثيراً ما رأيت في المنام الشيخ الطلق المحيا وهو ينثر بذور الكون إلى تحت من نافذته السماوية الصغيرة . بل إني رأيته ذات مرة وهو يطقطق بشفتيه مثل خادمتنا حين كانت ترمي الحب للدجاج . واستطعت أن أرى فقط كيف كانت البذور المتساقطة تتسع لتصير كرات ارضية كبيرة متألقة . لكنني لم أستطع أن أرى الدجاجات الكبيرة التي كانت تتربص في مكان ما بمناقير مفتوحة لكي تلتقط الكرات الأرضية المتناثرة .

أيها القارىء العزيز، أنت تبتسم ضاحكاً من الدجاجات الكبيرة لكن هذه النظرة الصبيانية ليست بعيدة جداً من نظرة أنضج اتباع مذهب التأليه . ولإعطاء تصوّر عن الاله خارج الكون أضنى الشرق والغرب أنفسهما في مبالغات وإغراقات صبيانية . وأجهد اتباع مذهب التأليه خيالهم في فكرة اللامتناهي المكاني والزماني من غير طائل . وهنا يظهر عجزهم وضعف نظرتهم وفكرتهم عن طبيعة الاله . وعلى هذا فإنه ليكدرنا بعض الشيء حين تنهار هذه الفكرة . على أن كانط أساء إليهم على حين دمر هو براهينهم على وجود الله .

وإن انقاذ الدليل الوجودي لن يفيد مذهب التأليه شيئاً أبداً ، إذ يمكن استخدام هذا الدليل لصالح مذهب وحدة الوجود أيضاً . ومن أجل فهم أشمل وأدق أقول إنَّ الدليل الوجودي هو ذلك الذي وضعه ديكارت وعبّر عنه أنسيلم فون كانتير بري في العصور الوسطى في صيغة ابتهال هادئة رقيقة . وفي وسع المرء أن يقول إنَّ القديس أوغسطين أقام الدليل الوجودي في كتابه الثاني «حول الارادة الحرة» . وإني اتخلى ، إذاً ، عن مناقشة معممة للجدل الكانطي حول تلك الادلة . واكتفي بأن أؤكد أن مذهب التأليه قد مات منذئذ في مملكة العقل النظري ، وربما

احتاج بسبب هذا الموت المحزن إلى عدة قرون قبل أن ينتشر بصورة عامة . أما نحن فقد لبسنا ثياب الحداد منذ زمن طويل . ومن الأعماق (أصرخ إليك يارب !) .

أتحسبون أن في وسعنا أن نتوجه الآن إلى بيوتنا ؟ لا والله ! ستعرض مسرحية أخرى أيضاً . فالمأساة تعقبها المسرحية الهزلية الساخرة . ولقد مثّل عمانوئيل كانط حتى الآن الفيلسوف القاسي . لقد اقتحم السماء وأباد الحامية كلها . إن حاكم الكون يسبح في دمه من دون برهنة . ولم يعد يوجد الآن رحمة ولا إحسانٌ ولا ثوابٌ للتقشف الدنيوي أو العفة الدنيوية . وخلود الروح في النزع الأخير . انفاس تحشرج وأنين وتأوّه وزفرات ـ والعجوز لامبي حاضرٌ يتأبط المظلة ويقف موقف المتفرج المحزون يتفصد جبينه عرق الخوف وتسيل دموعه . وهنا يرق قلب عمانوئيل كانط ويثبت أنه ليس فيلسوفاً عظيماً فحسب ، بل هو أيضاً انسان طيب . ويفكر ويتكلم بلهجة تجمع بين السخرية والطيبة : يجب أن يكون للعجوز لامبي إله ، وإلا تعذّر على المسكين أن يكون سعيداً ـ ويجب أن يكون الانسان سعيداً على هذه الأرض ـ وهذا ما يقوله العقل العملي[٢١] ولا مانع لديّ ، فليضمن العقل العملي وجود الله» . وتبعاً لهذه الحجة فإن كانط يفرّق بين العقل النظري والعقل العملي الذي كان أشبه بعصا سحرية أعاد بها الحياة إلى جثة مذهب التأليه الذي أماته العقل النظري .

أيحتمل أن يكون كانط قام بعملية البعث من أجل العجوز لامبي وحده ، أم لأجل الشرطة أيضاً ؟ أم إنه تصرف عن اقتناع ؟ أم أنه أراد أن يبين لنا من خلال تدمير كل الادلة على وجود الله كم هو مؤسف ومزعج حين لا نستطيع أن نعرف شيئاً عن وجود الله ؟ وفي هذه الحال يكون تصرف تصرفاً قريباً من الحكمة والتعقل مثله كمثل صديقي الفستفالي الذي كان قد حطم كل المصابيح في شارع غروندر في مدينة غوتينغن وألقى علينا نحن الواقفين في الظلمة خطبة طويلة عن الضرورة العملية للمصابيح التي حطّمها الآن نظرياً لكي يبين لنا أننا بدون هذه المصابيح لا نستطيع أن نرى شيئاً . ولقد سبق أن ذكرت أن «نقد العقل الخالق» لم يحدث أدنى ضجة ولم يلفت الانظار عند ظهوره . وفيما بعد ، وبعد سنوات عديدة ، كتب بعض الفلاسفة من أصحاب النظر الثاقب شروحاً لهذا الكتاب مما أثار انتباه الجمهور .

وفي سنة ١٧٨٩م لم يكن يوجد في ألمانيا إلا حديث واحد : هو فلسفة كانط ، حيث إن هذه الفلسفة خضعت لتعليقات ونشر منها مختارات وخضعت للشروح والتقويم وللنقد والدفاع وغير ذلك . وما على المرء إلا أن يلقي نظرة على أول وأفضل الفهارس الفلسفية ، وسيجد أن العدد الكبير من المؤلفات التي ظهرت آنذاك عن كانط ليدل دلالة كافية على الحركة الفكرية التي انطلقت آنذاك من ذلك الرجل الفريد . فبعض هذه المؤلفات يتحدث عن كانط بحماسة هائجة ، وبعضها يبدي تذمراً وامتعاضاً مريرين ، على حين يظهر لدى الكثير منها ترقّبٌ محدّق لنهاية هذه الثورة الفكرية . ولقد كان لنا ثوراتنا في عالم الفكر كما كان لكم ثوراتكم في عالم المادة . ولقد هجنا وثرنا في اثناء الإطاحة بالمذهب العقائدي القديم مثلما هجتم أنتم في أثناء الهجوم على الباسـتيل . والحق أنه لم يكن هناك إلا قلة قليلة من المشوهين العاجزين الشيوخ الذين دافعوا عن فلسفة فولف الاعتقادية . ولقد كانت ثورة وكان هنالك ماهو فظيع ومقيت . أما المسيحيون الحقيقيون الأخيار الذين كانوا ينتمون إلى حزب الماضي فقد كانوا أقل الناس استياء وتذمراً من تلك الفظائع ، بل إنهم تمنوا فظائع تكون اكثر سوءاً وهؤلاء لكي يمتليء الإناء وتحدث الثورة المضادة على نحو أسرع كرد فعل ضروري . وكان عندنا متشائمون في الفلسفة كما كان لديكم في السياسة . وتمادى بعض هؤلاء المتشائمين في عماهم وغرورهم بحيث إنهم تصوروا أن كانط على وفاق سري معهم وأنه لم يدمّر الادلة على وجود الله إلا لكي يفهم الناس أن المرء لن يتوصل أبداً إلى معرفة الله من طريق العقل وأنَّ على المرء ، إذاً ، أن يتمسك هنا بالدين الموحى .

هذه الحركة الفكرية الكبيرة لم يخلقها كانط بما جاء في مؤلفاته من مضامين بقدر ما خلقها بواسطة العقل النقدي الذي ساد هذه المؤلفات وتغلغل الآن في كل العلوم . حتى إن الشعر نفسه لم يسلم من تأثيره . إن شيللر ، مثلاً ، كان أحَد أتباع كانط الاشداء ، وإن نظراته في الفن مفعمة ومشبعة بروح الفلسفة الكانطية . ولقد أضرّت هذه الفلسفة الكانطية الأدب والفنون الجميلة بجفافهاالمجرد ضرراً شديداً . ولحسن الحظ لم تتدخل هذه الفلسفة في فن الطهي .

ليس من السهل تحريك الشعب الألماني . أما إذا انقاد مرة واحدة في طريق ما فسيبقى سائراً في هذا الطريق حتى النهاية بصبر ودأبٍ كبيرين . وهكذا ظهرنا نحن في مسائل الدين وأموره . وهكذا ظهرنا أيضاً في مسائل الفلسفة . فهل سنبقى نتحرك أيضاً في السياسة على نحو ثابت مستقيم ؟

لقد ساق كانط المانيا إلى الطريق الفلسفي ، وصارت الفلسفة مضيّةً وطنية . وفجأة تنشقُّ الأرض الألمانية عن فئة مهمة من المفكرين الكبار لكأن في الأمر سحراً .

وإذا كانت الفلسفة الألمانية وجدت رجلها في تيرز[٢٣] كما وجدت الثورة الفرنسية رجلها في مينيت[٢٤] فإن تاريخ كلٍّ منهما سيقدّم مطالعات وقراءات غريبة وسيقرأها الالماني بفخر واعتزاز وسيقرأها الفرنسي باعجاب .

ولقد سبقأن برز وسط تلامذة كانط يوهان غوتليب فيشته . ويكاد يصيبني اليأس من امكانية اعطاء فكرة صحيحة عن أهمية هذا الرجل . فحين تحدثنا عن كانط تناولنا كتاباً واحداً ، ليس غير . أما هنا فعلينا ألا نحسب حساباً للكتاب فحسب ، بل لرجل ايضاً توحّد فيه الفكر والخُلُق ؛ وفي مثل هذا الاتحاد العظيم يؤثران معاً في الآخرين . وعلى هذا ليس علينا أن نناقش فلسفة فحسب ، بل نناقش ايضاً طبعاً تتوقف عليه تقريباً هذه الفلسفة . ولكي نفهم تأثيرهما كليهما فلابد من عرض الظروف آنذاك . وإنها لمهمة شاملة بعيدة المدى ! وإننا لمعذورون كل العذر إذا لم نقدّم في هذا الخصوص إلا معلومات طفيفة .

ومن الصعب جداً أن نتحدث عن الفكر الفيشتي . إذ ستواجهنا هنا أيضاً صعوبات مميزة لا تتعلق بالمضمون فحسب ، بل بالشكل ايضاً وبالطريقة . وكلا هذين الأمرين يجب أن نعرّف بهما قبل كل شيء الأجنبي . وبادىء ذي بدء نتناول منهج فيشته . وقبل كل شيء أخذ فيشته هذا المنهـج عن كانط . على أن هذا المنهج سرعان ما تغير بسبب طبيعة الموضوع إذ لم يكن عند كانط إلا النقد . وهذا شيء سلبي . أما فيشته فقد صار عنده فيما بعد نظام ليقدّم تبعاً لذلك شيئاً ايجابياً . ولأن فلسفة كانط تفتقر إلى نظام ثابت أراد المرء في بعض الأحيان أن يجردها من

عنوان «الفلسفة» . وبالنسبة لكانط فقد كان المرء على حق ، ولكن ليس بالنسبة لاتباع كانط الذين بنوا من نظريات كانط عدداً وافياً وكافياً من النظم الثابتة . ويبقى فيشته في مؤلفاته الأولى المبكرة وفياً لمنهج كانط إلى الحد الذي جعل المرء يظن أولى مقالاته التي ظهرت باسم مؤلف مجهول أحد مؤلفات كانط . ولكن لما كان فيشته قد وضع فيما بعد نظاماً فإنه أقحم نفسه في عملية تركيب تتصف بالجد والعناد . وإذا كان قد ركّب العالم كله وبناه فإنه بدأ أيضاً بداية مجدة وعنيدة من فوق إلى تحت ليعرض بناءه . وفي هذا البناء والعرض والاشارة يفصح فيشته عما يسمى بالهوى المجرد . وكما هي الحال في نظامه الفلسفي فإن الذاتية سرعان ما تسود حديثه وإلقاءه أيضاً . أما كانط فإنه يضع الفكرة أمامه ويشرحها ويحللها في أدق خيوطها . وما كتابه «نقد العقل الخالص» إلا مسرح العقل التشريحي . وهو نفسه يبقى في أثناء ذلك بارداً قاسياً مثله كمثل جراح حقيقي . ويشبه شكل مؤلفات فيشته منهجه ايضاً . فالشكل حيوي ، على أن فيه أيضاً كل عيوب الحياة: فهو قلق ومحيّر ومربك . ولكي يبقى حيوياً جداً فإن فيشته يرفض مصطلح الفلاسفة المألوف الذي يوحي إليه بشيء ميّت على أننا لا نتوصل بذلك إلا الى فهم قليل جداً .

وفيشته له تصوراته الخاصة عن الفهم . ولما كان راينهولد متفقاً معه على رأي واحد فقد أوضح فيشته أن ليس من أحد يفهمه أفضل مما يفهمه راينهولد . ولكنه حين تحوّل عنه وخالفه فيما بعد في الرأي أعلن فيشته أن راينهولد لم يفهمه أبداً(٢٧) . ولما اختلف مع كانط أعلن على الملأ أن كانط لا يفهم نفسه(٢٨) . وإني لأتعرض هنا للجانب المضحك في فلاسفتنا . فهم يشكون أبداً من عدم فهم الناس لهم . وحين كان هيجل على فراش الموت قال : «لم يفهمني إلا شخصٌ واحد» ثم أضاف على الفور بامتعاض : «كما أن هذا الشخص لم يفهمني أيضاً» . ومن حيث محتوى فلسفة فيشته بالمعنى الدقيق فليس لها أهمية كبيرة . فهي لم تزود المجتمع بأية نتائج . ولا يثير مضمون فلسفة فيشته بعض الاهتمام إلا لأنها تمثل مرحلة من أغرب المراحل التي مرّت بها الفلسفة الألمانية ، ولأنها مصداق على عقم الفلسفة المثالية في آخر نتائجها ولأنها تشكل تحوّلاً ضرورياً إلى فلسفة الطبيعة الحالي .

ولما كانت أهمية هذا المضمون محصورة في الناحية التاريخية والعلمية اكثر مما هي محصورة في الجانب الاجتماعي فلا أريد أن أنوّه إلى ذلك إلا بكلمات مقتضبة جداً .

إن المهمة التي كلّف فيشته نفسه بها هي السؤال عن الأسباب التي تكون لدينا لنفترض أن تصوراتنا عن أشياء تطابقها أيضاً أشياءً خارجنا . ويعطي الجواب على هذا السؤال بقوله إنه ليس للأشياء كلها واقعُ إلا في عقلنا . وكما إن «نقد العقل الخالص» هو أهم مؤلفات كانط فإن «نظرية العلم» أهم مؤلفات فيشته . فهذا الكتاب هو تقريباً تتمة «لنقد العقل الخالص» «نظرية العلم» تنفي العقل أيضاً وتحجزه في ذاته . ولكن حيثما يحلل كانط يركّب فيشته . وتبدأ نظرية العلم بصيغة مجردة هي الأنا تساوي الأنا (الأنا = الأنا) وتخلق الكون من أعماق الروح ويجمع الأجزاء المفتتة المتحللة مرة أخرى وتشق طريق العودة إلى التجريد حتى تصل إلى عالم الظواهر . ومن ثم يستطيع العقل أن يعلن أن عالم الظواهر هذا أعمال وافعال ضرورية للذكاء .

وفضلاً عن ذلك فإن عند فيشته الصعوبة الخاصة بأنه يطالب العقل أن يراقب نفسه على حين هو يعمل . وعلى الأنا أن تفكّر بأعمالها وافعالها الفكرية على حين تقوم هي بذلك . وعلى الفكر أن يسترق السمع إلى نفسه على حين هو يفكر ويصبح شيئاً فشيئاً دافئاً واكثر دفئاً وينضج في آخر الأمر . وتذكرنا هذه العملية بالقرد الذي يجلس عند الموقد أمام قدر نحاسية ويطهي ذيله . إذ رأى أن من الطهي الصحيح لا ينحصر في أن المرء لا يطبخ موضوعياً فحسب ، بل يعرف الطهي معرفة ذاتية أيضاً . وإنه لظرف خاص أنه كان على فلسفة فيشته أن تكابد أبداً الكثير من التهكم والسخرية والهجاء . ولقد رأيت ذات مرة صورة كاريكاتورية تمثل اوزة فيشتية . وكان لها كبدٌ كبيرة جداً بحيث إن الاوزة لم تعد تدري ما إذا كانت إوزة أم كبداً . ولقد كُتب على بطنها : أنا = أنا . وسخر جان باول من فلسفة فيشته سخرية أي سخرية ، وذلك في كتاب له يحمل العنوان «كلافيس فيشتيانا» .

ولما كانت المثالية قد انكرت أخيراً في تحقيقها المنطقي واقع المادة فقد بدا هذا في نظر الجمهور مزاحاً جاوز كل حد . ولم نهزأ نحن هزءاً كريهاً ومسيئاً للأنا الفيشتية التي خلقت بفكرها المجرد عالم الظواهر كله . وفي أثناء ذلك أفاد الهازئين المتهكمين سوء فهم شاغ وانتشر أكثر ما حق لي أن أمسك عن ذكره . ولقد ذهب العامة إلى أن الأنا الفيشتية هي أنايوهان غوتليب فيشته وأن هذه الأنا الفردية تنكر أي وجود آخر . وصاح الناس الأخيار : «يا للصفافة ، إن هذا الانسان لا يعتقد بأننا موجودون ، نحن الذين نفوقه بدانة ، حتى إننا رؤساؤه أيضاً بصفتنا محافظي المدينة وموظفي القضاء والتأمين !» وتساءلت السيدات : «ألا يعتقد بوجود المرأة على الأقل ؟ كلا ؟ وهل تتغاضى السيدة فيشته عن مثل ذلك ؟» .

على أن الأنا الفيشتية ليست أنا فردية ، وإنما هي أنا كونية عامة مدركة . والفكر الفيشتي ليس فكر إنسانٍ فرد أو انسانٍ معيّن يدعى يوهان غوتليب فيشته ، وإنما هو فكر عام شامل يتجلى في فرد (Individuum). ومثلما يقول المرء : «إنها تمطر وتبرق وغير ذلك» فلم يكن لزاماً على فيشته أن يقول : «أنا أفكر» وانما هو أو هي (es) يفكر» «والفكر الكوني العام يفكر فيَّ أنا» .

ولدى مقارنة الثورة الفرنسية بالفلسفة الألمانية قارنت ذات مرة فيشته بنابليون ، وكانت مقارنتي هذه عن مزاح اكثر مما كانت عن جد . والحق أنه لتظهر هنا تشابهات مهمة . فبعد أن ادى اتباع كانط عملية التخريب الارهابية ظهر فيشته ، كما ظهر نابليون ، بعد أن كانت الجمعية الوطنية قد هدّمت الماضي كله بنقد عقلي خالص أيضاً . ويمثّل كل من نابليون وفيشته الأنا العظيمة الجبارة التي يتوحد عندها الفكر والعمل ؛ ثم إن الابنية الجبارة الضخمة التي يحسن كلاهما تركيبها تشهد على إرادة جبارة . على أن هذه الارادة التي لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود لا تلبث أن تدمر هذه الأبنية ، وسرعان ما تنهار نظرية العلم كما تنهار الامبراطورية ويتلاشيان ايضاً بمثل السرعة التي نشأ بها .

ثم إن الامبراطورية ملك للتاريخ وحده ، أما الحركة التي أحدثها القيصر في العالم فلم تخمد بعد ؛ وإنَّ حاضرنا لا يزال يحيا من هذه الحركة . وهكذا كان حال

فلسفة فيشته . فلقد انهارت كلياً ؛ لكنْ الأذهان لا تزال تثيرها الافكارُ التي ذاعها فيشته وانتشرت بفضله . وليس في الإمكان تقدير الأثر الذي احدثته كلمته . وإذا كانت المثالية المتعالية كلها خطأ فقد عاش في مؤلفات فيشته استقلال متعالٍ أبيٌّ وحبٌّ للحرية وتعطش لها وعزة نفس أثرت في الشبيبة[٢٩] وكان لها مفعولها الشافي . فالأنا الفيشتيّة كانت تطابق طبعه الحديدي الصلب العنيد كل المطابقة .

وربما لم يكن في الإمكان أن تنبثق تعاليم ذاتٍ جبارة كهذه الذات إلا عن طبع كهذا الطبع . ولما كان مثل هذا الطبع متأصلاً في مثل هذه التعاليم فكان لابد له أن يصبح اكثر صلابة وعناداً .

ولكم كان على المشككين المجردين من المبادىء والأخلاق وعلى التوفيقيين الانتقائيين والمعتدلين من شتى الأصناف أن يمقتوا هذا الرجل ! فحياته كلها كانت كفاحاً مستمراً . وتاريخ شبابه سلسلة من الهموم والمتاعب على نحو ما نراه عند رجالنا الممتازين كلهم تقريباً . فالفقر يلازمهم في المهد ويتحكم بهم في الصبا وتبقى هذه المربية الهزيلة رفيقة حياتهم الوفية . ولاشيء يحز في النفس اكثر من أن نرى فيشته الأبي وهو يحاول أن يبذل جهوده من خلال ممارسة التربية والتعليم في العالم . حتى إنه تعذر عليه أن يكسب في طنه مثل هذا الخبز المجبول بالذل لقاء خدمة كهذه الخدمة . وعلى هذا كان عليه أن يرحل إلى مدينة وارصو حيث تتكرر القصة القديمة نفسها . إذ لا يعجب المعلم المربي السيدة المحترمة أو ربما لم يعجب الوصيفة الفظة الخبيثة . فليس في انحناءاته القدر الكافي من الدقة والخفة والروح الفرنسية فبات لا يصلح لأن يكون مشرفاً على تربية غلام ارسقراطي اقطاعي . ويُطرد يوهان غوتليب فيشيه كما يطرد خادم ذليل ، حتى مصروف السفر القليل لم ينله من السادة الساخطين المنزعجين . ويغادر مدينة وارصو ويرحل إلى كونيكز بيرغ تملؤه حماسة الشباب ليتعرّف إلى كانط وإن لقاء الرجلين معاً لمهمٌّ وممتع من كل الوجوه . وأعتقد أنه ليس في إمكاني أن أصوّر طبيعة كل منهما وظروفه على نحو أفضل إلا إذا نقلت شذرة من يوميات فيشته التي اشتملت عليها إحدى ترجمات فيشته التي أصدرها ابنه منذ زمن غير بعيد .

«في الخامس والعشرين من حزيران انطلقت إلى مدينة كونيكزبيرغ يصحبني سائق عربة ووصلت في الأول من تموز من دون أية متاعب . وفي الرابع من تموز زرت كانط الذي لم يكن في استقباله لي أي شيء مميز . واستمعت إلى محاضراته وتبين لي أنها خيّبت أملي . فإلقاؤه ممل وفي اثناء محاضرته دوّنت هذه اليومية :

منذ زمن طويل كان في ودي أن أزور كانط على نحو اكثر جدية . ولكنني لم أجد وسيلة . وأخيراً اهتديت إلى أن اكتب «نقد التجليات كلها» واقدمه له عوض من توصية . وشرعت في ذلك في الثالث عشر وثابرت على ذلك من دون انقطاع . وفي الثامن عشر من آب أرسلت العمل المنجز إلى كانط وذهبت إليه في الخامس والعشرين لأسمع حكمه في ذلك . واستقبلني بحفاوة واكرام وبدا مبسوطاً جداً من المقالة . ولم يكن بيننا حديث علميٌّ مستفيض . وأحالني بسبب شكوكي الفلسفية إلى كتابه «نقد العقل الخالص» وإلى واعظ البلاط شولتس الذي سأقصده في الحال . وفي السادس والعشرين تناولت طعام الغداء عند كانط بحضور الاستاذ زومر . ووجدت في كانط رجلاً ثاقب الفكر خفيف الظل . وتبينت لي الآن فقط الملامح الجديرة بالعقل الجبار الذي أثبته كانط في كتاباته .

في السابع والعشرين أنهيت هذه اليوميات بعد أن كنت أتممت المقتطفات من محاضرات كانط في الانتروبولوجيا التي أعارني أياها السيد فون (س) . وفي الوقت نفسه صممت على أن استمر في كتابة اليوميات على نحوٍ منظم وفي كل مساء وقبل النوم وأن أدوّن كل ماهو ممتع ومهم يصادفني ، وعلى الأخص ما أجده من سمات ومميزات وملاحظات .

الثامن والعشرون مساء . أمس بدأت اراجع مقالتي في «نقد التجليات» وتوصلت إلى أفكار جيدة وعميقة ، لكنها اقنعتني ، وللأسف ، بأن أول تنقيح سطحي من الأساس . واليوم أردت أن أتابع ابحاثي الجديدة . على أن الخيال شرد بي فلم استطع أن أعمل شيئاً طوال النهار . ففي وضعي الحالي ليس هذا بعجب ! لقد حسبت أني لن استطيع أن أستمرَّ هنا أكثر من أربعة عشر يوماً . وطبيعي أنني شهدت مثل هذه المآزق والورطات ؛ على أني مررت بها حين كنت في وطني . ثم إن

الموقف ليزداد صعوبة وقسوة مع مرور الأيام والتقدم في السن والنخوة الملحة . فليس عندي أي قرار . ولا استطيع أن أتخذ أي قرار .ـ ولن أبوح بسريرتي للواعظ بوروفسكي الذي ارسلني كانط اليه . وإذا ما بُحْتُ بسريرتي لأحد فلن يكون هذا إلا كانط نفسه . وفي التاسع والعشرين قصدت بوروفسكي ووجدت فيه الرجل الطيب الصادق المستقيم . وعرض عليَّ وظيفة ، لكنها لم تكن بعد مؤكدة تماماً ، كما أنها لم تفرحني أبداً فرحاً شديداً . وفي الوقت نفسه أجبرني بصراحة على الاعتراف بأنني في عجلة من أمري لكي أؤمّن عيشي . ونصحني بأن أذهب إلى الأستاذ (ف) ، أما العمل فلم استطع إلى ذلك سبيلا . وفي اليوم التالي ذهبت فعلاً إلى (ف) وبعد ذلك إلى الواعظ شولتس . وإن الشيء المنتظر من الاستاذ (ف) لا يدعو إلى الارتياح . ومع هذا تحدّث عن وظائف مربٍّ ومعلم داخلي في البلد ، ولن يدفعني إلى القبول بها إلا أشدُّ الضائقات ! وتوجهت بعدئذ إلى واعظ البلاط . وكانت زوجته أول من استقبلني . وظهر هو أيضاً منهمكاً ، ولكن في دوائر رياضية . وبعد أن سمع اسمي على نحو أدق صار أكثر لطفاً وذلك بفضل توصية كانط . كان له وجه بروسي مربع ، على أن الصدق والأمانة والطيبة شعت من اساريره . ثم تعرفت هنا إلى السيد بروينليش وإلى ربيبه الغراف دونهوف وإلى السيد بوتنوف ابن أخ الواعظ وإلى عالم شاب من مدينة نورينبيرغ وهو السيد ايرهارد الطيب الممتاز الذي كان ينقصه حسن التدبير والتأدب ' معرفة الحياة والإلمام بالدنيا .

في الأول من ايلول كان لديَّ قرار وأردت أن أفصح عنه لكانط . إن وظيفة معلم منزلي غير متوافرة . وحتى لو توافرت لقبلت بها على مضض . وإن الغموض الذي يكتنف وضعي ليمنعني هنا من العمل بحرية ومن الاستمتاع بمعشر الأصدقاء المثقفين :ـ إذاً ، لم يبق لي إلا العودة إلى الوطن ! وإن السلفة التي سأحتاجها من أجل ذلك قد تتأمن بواسطة كانط . ولكن الشجاعة خانتني حين هممت بالذهاب إليه لأقدم له اقتراحي . وقرّ قراري على أن اكتب . وفي المساء طُلب إليَّ المجيء إلى منزل الواعظ حيث أمضيت أمسية طيبة . وفي اليوم الثاني انهيت الرسالة إلى كانط وارسلتها له» .

ورغم غرابة الرسالة هذه فإن الشجاعة لا تواتيني لانقلها إلى الفرنسية . وأخال أنني سأحمرُّ خجلاً كأنما كان عليَّ أن أحكي لناسٍ غرباء عن هموم الأسرة ومتاعبها التي يأبى المرء التصريح بها .

ورغم طموحي إلى فكر عالمي فرنسي ورغم مذهبي الكوزموبوليتاني الفلسفي الذي ينظر إلى الناس والشعوب كلها على أنهم متساوون في كل شيء فإن ألمانيا القديمة لا تزال تسكن صدري بكل مشاعرها السطحية ومشاعر أبنائها المحدودي الأفق . وحسبي أنني لا أستطيع أن أنقل تلك الرسالة واكتفي هنا بالقول إن عمانوئيل كانط كان في غاية من الفقر بحيث إنه لم يستطع أن يقرض يوهان غوتليب فيشته مالاً رغم اسلوب تلك الرسالة المؤثرة تأثيراً تتصدع منه النفس . على أن فيشته لم يحس بأدنى استياء أو غضب من جراء ذلك . وفي امكاننا أن نستشف هذا من مذكراته اليومية التي أريد أن اسوق شاهداً منها : «في الثالث من ايلول دعيت إلى منزل كانط . واستقبلني بصراحته المعهودة . على أنه قال إنه لم يتخذ بعد أي قرار يتعلق باقتراحي . فالآن ولمدة اسبوعين لن يتمكن من ذلك ، وياللصراحة اللطيفة ! وفضلاً عن ذلك اعترض على مخططاتي ومشاريعي التي نمت على أنه لا يعرف الكفاية عن أوضاعنا في ساكسونيا .. لم أفعل شيئاً طوال هذه الأيام . على أني أريد أن استأنف العمل واترك الباقي على الله .

في السادس من أيلول استدعيت إلى منزل كانط الذي اقترح بأن أبيع مخطوطي «نقد التجليات كلها» إلى بائع الكتب هارتونغ من طريق السيد القس بوروفسكي . وقال إنه كتب كتابة جيدة ذلك لأني تحدثت عن التعديل والتنقيح . هل هذا صحيح ؟ ولكن كانط يقول ذلك !ـ وبالمناسبة فإنه رفض أول رجاء لي ـ وفي العاشر تناولت طعام الغداء عند كانط . لاشيء عن قضيتنا ؛ وكان الماجستير غينزيشين حاضراً . ودار الحديث حول موضوعات عامة ، بعضها كان ممتعاً جداً . كما أن كانط لم يتغير تجاهي .. اليوم ، الثالث عشر ، أردت أن أعمل ، وأنا لا أعمل شيئاً . الضجر يستبد بي . كيف ستكون نهاية هذه الأمور ؟ وكيف سيكون وضعي بعد ثمانية أيام ؟ إذ أني استنفذت ما لديَّ من مال !» .

وبعد أن تاه في الأرض كثيراً ، وبعد إقامة طويلة في سويسرا يجد فيشته أخيراً وظيفة ثابتة في مدينة يينا (Jena) . ومن هنا تبدأ مرحلة عزه وأيامه الزاهرة . فالمدينتان الساكسونيتان ، يينا وفايمار ، اللتان لا تبعدان عن بعضهما إلا بضع ساعات ، كانتا آنذاك مركز الحياة الفكرية الألمانية . فلقد احتضنت فايمار البلاط والشعر واعظم الشعراء على حين احتضنت يينا الجامعة والفلسفة واعظم العلماء الألمان . وفي عام ١٧٩٤م بدأ فيشته محاضراته في يينا . وهذا التاريخ مهمٌ لأنه يبين روح مؤلفاته آنذاك ، كما يبين في الوقت نفسه المحن التي تعرّض لها منذ ذلك الحين وانهزم أمامها بعد اربع سنوات إذ يتهم بالالحاد[٣٠] في عام ١٧٩٨م . وتجر عليه هذه الاتهامات اضطهادات بغيضة تدفعه إلى ترك عمله في مدينة يينا .

هذه الحادثة التي تعدُّ أغرب حادثة في حياة فيشته لها في الوقت نفسه معنى عام وأهمية عامة ولا يحق لنا أن نسكت عن ذلك . وفي الحقيقة أن الحديث يتناول هنا رأي فيشته أيضاً في طبيعة الاله .

ففي المجلة التي كان يصدرها فيشته آنذاك بعنوان «الصحيفة الفلسفية» نشر فيشته مقالاً بعنوان «تطور مفهوم الدين» كان قد أرسله إليه مدرس كان يعمل في مدينة سالفيلد وكان يدعى فوربيرغ . وأضاف فيشته إلى هذا المقال دراسة توضيحية قصيرة بعنوان «حول أساس إيماننا بحكم إلهي للكون» .

وصادرت الحكومة الساكسونية المقالين كليهما مدّعية أنهما تضمنا الالحاد . وفي الوقت نفسه أتى من درسدن إلى بلاط فايمار كتابٌ يطلب فيه من بلاط فايمار معاقبة البروفسور فيشته أشدّ العقاب . وطبيعي أن بلاط فايمار لم يكن يسمح لنفسه أن يضلله طلبٌ كهذا الطلب . أما فيشته فقد ارتكب في اثناء ذلك اكبر الأخطاء بأنْ وجّه نداءً إلى الجمهور دونما مراعاة للسلطات الرسمية . وعلى هذا فإنَّ هذه السلطات أي حكومة فايمار ، التي كانت مستاءة وخاضعة لضغط خارجي لم يسعها إلا أن طيبت خاطر البروفيسور المتهوّر بتعابيره وهوّنت عليه بتقريع خفيف . لكنَّ فيشته الذي ظنَّ أنه على حق رفض قبول مثل هذا التقريع فترك يينا . ونستشفّ من رسائله آنذاك أن الشيء الذي أغاظه بصورة دائمة لم يكن إلا سلوك

رجلين كان لهما في قضيته رأيهما المهمّ وكلمتهما العالية وذلك بحكم مركزهما الرسمي . وكان أحدهما الموقر فون هيردر عضو مجمع الكرادلة الأعلى والآخر فخامة المستشار فون غوته . على أن كليهما كان له من العذر ما يكفي . وإنه لشيءٌ مؤثر في النفس حين نقرأ في رسائل هيردر المنشورة بعد وفاته أنّه لاقى كبير عناءٍ من طلاب اللاهوت بعد أن درسوا في يينا وقصدوه في فايمار لكي يمتحنهم امتحان الواعظين البروتستانت . ولم يجرؤ على أن يسألهم في الامتحان عن المسيح الابن . وكان سعيداً بما فيه الكفاية حين كان يسلم له المرء بوجود الاب ، ليس غير ، وأما بخصوص غوته فإنه دوَّن الحادثة المذكورة في يومياته على النحو التالي :

«بعد خروج راينهولد من مدينة يينا بدا تخلّيه عن عمله خسارة كبيرة للأكاديمية من دون شك . وبجرأة وجسارة تمَّ استدعاء فيشته ليحلَّ محلّه . وكان فيشته قد عبَّر في مؤلفاته عن رأيه بصراحة وتناول أهمّ موضوعات الأخلاق والدولة . وكان تعبيره عظيماً ، لكنّه ربّما كان غير لائق كلَّ اللياقة وغير صائب كل الصواب . لقد كان واحداً من أنشط وأمهر الشخصيات التي سبق أن رآها المرء ، ولم يكن هنالك ما يعيب في طبعه وخلقه . ولكن كيف كان له أن يساير العالم الذي عدّه ملكه المخلوق ؟ ولما كان المرء قد نغّص عليه في أيام العمل الساعات التي أراد أن يستغلها في محاضرات عامة فإنه باشر محاضراته في أيام الآحاد . ولقي افتتاح هذه المحاضرات عراقيل . ونشأ عن ذلك أشياء كريهة ، بعضها كان صغيراً تافهاً وبعضها كان كبيراً . وما إن تمت مداراة هذه الأمور المكروهة وتمّت تسويتها وسط متاعب السلطات العليا حتى عرضتنا أقواله عن الاله والأمور الالهية لحوافز من الخارج شديدة الوطأة بينما كان من الأفضل التأمل في مثل هذه الأمور الالهية بصمت عميق .

وكان فيشته قد جرؤ على أن يدلي برأيه في الاله والأمور الالهية في مجلة «الصحيفة الفلسفية» على نحوٍ بدا مناقضاً للتعابير المألوفة حول مثل هذه الأسرار . وشغل فيشته كثيراً . ولم يحسِّن دفاعه الموقف أو الحال لأنه انصرف إلى العمل بهمة وحماسة من دون أن يعلم شيئاً عمّا يكنّه المرء له من ودٍّ في هذه الدنيا وعمّا في مقدوره أن يفسّر أفكاره وكلامه حيث إنَّ المرء استطاع أن يعرفه بحقيقة نفسه

مباشرة وبكلمات سهلة واضحة وأنْ يهبَّ إلى انتشاله من ورطته على نحو بالغ الحذر . فالأخذ والرد في الكلام والظن والزعم والتأييد والعزم هذا كله تداخل في أقوال كثيرة مريبة في الأكاديمية . وتكلّم بعضهم على انذار وزاري أو على نوع من التقريع ولفت النظر ، الأمر الذي كان على فيشته أن يتوقعه . واحتدم فيشته غيظاً من ذلك ورأى لنفسه الحق في أن يرفع إلى الوزارة كتاباً شديد اللهجة . ولما أنه افترض أن تلك التدابير أموراً مؤكدة وثابتة فقد أعلن في كتابه في عنف وإصرار بأنه لن يحتمل مثل هذه الاجراءات ولن يسمح بها . وسوف يؤثر الانسحاب من الأكاديمية دونما تردد . وفي مثل هذه الحال لن يكون هو وحده على حين إن عدداً من كبار الأساتذة الذين وافقوه بالاجماع عقدوا النية على أن يتركوا الجامعة .

وبذلك تعوّقت على حين غرّة كل نية طيبة كان المرء يكنها له ؛ بل إن المساعي الطيبة كلها انشلّت دُفعةً واحدة . ولم يكن هناك من مخرج أو وساطة . وكان أبسط مافي الأمر أنه فصل من منصبه   والآن وبعد أن صار الأمر واقعاً ولم يكن من سبيل إلى تغييره أو تعديله علم بالتحوّل الذي كان سيطرأ على القضية وكان عليه أن يندم على خطوته المتهورة كما نرثي نحن له» .

أليس هذا هو غوته بلحمه وشحمه ، غوته الوزير وسيط الخير الذي يداري ويكتم ؟ والحق أنه لا يلوم فيشته إلا لأنه نطق بما فكر ولأنه لم يعبر عن ذلك بالتعابير المتداولة التي تخفي وتبطن . فهو لا يذم الفكرة وإنما يذم الكلمة . ولما كان مذهب التأليه قد اندثر في عالم الفكر الألماني من عهد كانط فقد كان هذا سراً ، كما ذكرت آنفاً . ولقد عرف كل واحد هذا السر ولكنه لم يكن ليصرّح به أمام الملأ . ثم إن غوته ، مثله مثل فيشته ، لم يكن من اتباع مذهب التأليه ، بل كان من اتباع مذهب وحدة الوجود . على أن غوته استطـاع من على ذروة مذهب وحدة الوجود أن يسبر بثاقب بصره غور فلسفة فيشته الواهية أفضل سبر ، وماكان له إلا أن يبتسم ساخراً من ذلك . وكان لابد لفيشته من أن يكون شيئاً بغيضاً في نظر اليهود . أما في نظر الكافر العظيم فقد كان مجرد خرق وحماقة . والحق أن «الكافر الكبير» هو الاسم الذي نُعت به غوته في ألمانيا . على أن هذا الاسم لم يكن مناسباً تماماً . فوثنية غوته تتصف على نحو عجيب وغريب بطابع الحداثة والتجديد . وتتجلى

طبيعته الوثنية الجبارة في فهمه الحاد الواضح للظواهر كلها وللألوان والأشكال كلها . على أن المسيحية منحته في الوقت نفسه فهماً أعمق . ورغم نفوره الرافض فقد أسرّت له المسيحية بأسرار عالم الأشباح والأرواح . واستمرأ غوته دم المسيحية ففهم بذلك أصوات الطبيعة الخفية ، مثله كمثل سيغفريد بطل النيبيلونكن[٣٢] الذي فهم لغة الطيور لما بللت شفتيه قطرة من دم التنين المقتول .

والغريب في الأمر هو كيف أن تلك الطبيعة الوثنية عند غوته كانت مشربة بروحنا العاطفية الحالية وكيف أن المرمر الكلاسيكي القديم كان ينبض نبضاً في غاية من الحداثة والعصرية وكيف أن غوته شارك فيرتر الشاب احاسيسه بالآلام مشاركة قوية على نحو مشاركته الأحاسيس بافراح إلهٍ يوناني قديم ومسرّاته . وعلى هذا فإن مذهب وحدة الوجود عند غوته ليمتاز كثيراً من مذهب وحدة الوجود الوثني . وإني أوجز القول إن غوته كان سبينوزا الشعر . فقصائد غوته كلها مشربة بنفس الروح الذي ينسّم علينا أيضاً من مؤلفات سبينوزا . ولما كان غوته قد ذهب مذهب سبينوزا كلياً فإن هذا حقيقة لاشك فيها . وأقل مافي الأمر أنه وقف على مذهب سبينوزا طوال حياته . ولقد اعترف بمثل ذلك بصراحة في بداية مذكراته وكذلك أيضاً في الجزء الأخير من مذكراته الذي ظهر حديثاً . ولم أعد أذكر أين قرأت أن هيردر صاح ذات مرة متأففاً من وقوف غوته الدائم على مؤلفات سبينوزا : «ليت غوته تناول كتاباً لاتينياً آخر غير سبينوزا!» على أن هذا لا ينطبق على غوته فحسب ، بل على عدد كبير من اصدقائه الذين اشتهروا فيما بعد بأنهم شعراء كبار أو صغار وقفوا منذ زمن مبكر على مذهب وحدة الوجود الذي ازدهر عملياً في الفن الألماني حتى قبل أن يسود عندنا في ألمانيا كنظرية فلسفية . وفي عهد فيشته وحين احتفلت المثالية في ملكوت الفلسفة بعصرها الذهبي العظيم تحطّم مذهب وحدة الوجود عنوةً في مملكة الفن ونشأت عندئذ تلك الثورة الفنية المشهورة التي لم تنته إلى الآن والتي تبدأ بصراع الرومانسيين ضد النظام الكلاسيكي القديم وهذا يعني ثورات شليغل .

والحقيقة أن الرومانسيين الألمان تصرفوا عن غريزة منشؤها مذهب وحدة الوجود . والرومانسيون أنفسهم لم يفهموا هذه الغريزة . فالحس الذي عدّوه حنيناً

إلى الكنيسة الكاثوليكية الأم كان عميق الجذور وكان أعمق مما ظنوا هم أنفسهم . وإن تمجيدهم لتقاليد العصور الوسطى وولعهم بها وبخرافات هذه العصور وبعالم الشياطين والسحر والشعوذة .. هذا كله كان ميلاً إلى مذهب وحدة الوجود عند الجرمان القدامى وكان هذا الميل قد استيقظ عند الرومانسيين فجأة ، ولكنه لم يكن مفهوماً . والحق أنهم لم يعشقوا في الشكل الملوث تلويثاً شنيعاً والمشوّه في خبث وشماتة إلا دين آبائهم الوثني . وهنا ، وفي هذا الصدد ، ينبغي عليَّ أن أذكّر بالسفر الأول الذي بيّنت فيه كيف تقبّلت المسيحية عناصر دين الجرمان القدامى ومقوماته وكيف بقيت هذه العناصر محفوظة في خرافات العصور الوسطى حتى بعد تغيير بالغٍ في الخزي والعار بحيث إن خدمة الطبيعة وعبادتها القديمة لم تعدّ إلا سحراً خبيثاً ، كما أن الآلهة القدامى لم يعدّوا إلا شياطين دميمي المنظر على حين لم تعدّ كاهناتهم الطاهرات إلا ساحرات حقيرات . ويتيح لنا ضلال الرومانسيين الأوائل أن نحكم عليه من هذا المنطلق حكماً أخفّ مما يحدث عادة في ظروف أخرى . فالرومانسيون أرادوا أن يجددوا جوهر العصور الوسطى الكاثوليكي لأنهم أحسّوا أن شيئاً ما من مقدسات آبائهم القدامى ومن عظمة قوميتهم القديمة لايزال موجوداً في هذا الجوهر . ولم يكن هذا إلا تلك الآثار المشوّهة المنتهكة التي جذبت قلوبهم جذباً لطيفاً حلواً . ومقتوا المذهبين البروتستانتي والليبيرالي التحرري اللذين كانا يطمحان إلى اجتثاث مثل هؤلاء بالاضافة إلى ماضي الكاثوليكية كله . على أني سأتحدث عن هذا فيما بعد . ومن المهم أن نذكر هنا أن مذهب وحدة الوجود قد تغلغل في زمن فيشته في الفن الألماني حتى إن الرومانسيين الكاثوليك سلكوا هذا الاتجاه من غير معرفة وإن غوته عبّر عنهم بصورة دقيقة جداً . وهذا ما يحدث في رواية «فيرتر» التي يتوق فيها إلى مطابقة سعيدة مع الطبيعة . وفي مسرحية «فاوست» يحاول أن يرتبط بالطبيعة على نحو مباشر غامضٍ غموضاً جامحاً مستعصياً : فهو يستحضر قوى الأرض الخفية بعبارات سحرية من كتاب «جبر الجحيم» .

على أن مذهب وحدة الوجود عند غوته يظهر في قصائده الغنائية الصغيرة في أصفى أشكاله وأحلاها . وظهر مذهب سبينوزا من الغلاف الرياضي ورفرف علينا

في هيئة أغنية لغوته . وهذا هو سرُّ حنق الأرثوذكس والتقويين على أغنية غوته أو قصيدته الغنائية . فهم يتحسسون بكفوفهم الدبِّية بحثاً عن هذه الفراشة التي تفلت منهم أبداً . إذ هي رقيقة رقة الأثير وخفيفة خفّة العبير . وليس في وسعكم ، أيها الفرنسيون ، أن تكوّنوا فكرة عن ذلك إن كنتم تجهلون اللغة . فأغاني غوته هذه ذات سحر عابث لا يمكن وصفه . فالأبيات المتناسقة تطوق فؤاد ك مثل حبيبة رقيقة . والكلمة تحتضنك على حين تقبّلك الفكرة . ولذلك فإننا لا نرى أبداً في سلوك غوته نحو فيشته الدوافع الكريهة التي أشار إليها بعض المعاصرين بكلمات مغرقة في القبح والشناعة . فهؤلاء لم يفهموا طبيعة الرجلين المختلفة . حتى إن اكثرهم رفقاً واعتدالاً أساء تفسير سلبية غوته حين نزل الحيف بفيشته فيما بعد واضطهد(٣٣) . فلم يراع هؤلاء موقف غوته . فهذا العملاق كان وزيراً في دولة المانية قزمة . ولم يكن في وسعه أبداً أن يتحرك حركة طبيعية . وقيل عن جوبيتر الجالس الذي يمثله تمثال فيدياس الاولبي(٣٤) إنه سوف ينسف قبة الهيكل إن نهض . وكان هذا هو تماماً شأن غوته بمدينة فايمار . فلو أنه نهض فجأة من هدوئه الساكن لاخترق جملون الدولة أو لربما تهشّم رأسه من جراء ذلك . وهل ينبغي عليه أن يقدم على مثل هذا العمل من أجل مذهب ليس خطأ فحسب ، بل هو مضحك ومثير للسخرية ؟ لقد ظل جوبيتر الألماني جالساً في هدوء وترك الآخرين يقدسونه ويحرقون له البخور .

وقد ابتعد كثيراً عن موضوعي لو أني عمدت ، انطلاقاً من وجهة نظر المصالح الفنية آنذاك ، إلى تسويغ سلوك غوته بشأن اتهام فيشته تسويغاً أدق وأعمق . وإن ما يشفع لفيشته هو أن الاتهام لم يكن في الحقيقة إلا تعلّة وأن تحريضات سياسية كانت وراء ذلك . إذ يمكن أن يتهم لاهوتي بسبب الالحاد لأنه ملزم بأن يعلّم مباديء معينة . أما الفيلسوف فليس ملزماً بمثل ذلك ولا يمكن أن يلتزم بذلك ؛ إن فكره حرٌّ كالطائر في الهواء . وربما كان ظلماً واجحافاً أنني لا أنقل هنا كل ما سوّغ ذلك الاتهام وعلّله ، إما لأنني أريد أن أراعي مشاعري أنا بالذات أو مشاعر الآخرين . وحسبي أن أورد موضعاً واحداً من تلك المواضع المزعجة في المقال المتهم : «... إن النظام الأخلاقي الحي الفعال هو الله نفسه . ولسنا في حاجة إلى

إلهٍ آخر وليس في وسعنا أن ندرك إلهاً آخر . فليس هنالك ما يدعو العقل إلى أن يخرج عن ذلك النظام الكوني الأخلاقي ويتخذ من طريق استنتاج ناجم عن شيء معلل بالسبب كائناً خاصاً على أنه علّة للشيء نفسه . وتبعاً لذلك فإن العقل الأصلي لا يؤكد هذا الاستنتاج أو النتيجة ولا يعرف كائناً متميزاً خاصاً مثل هذا . إن فلسفة تسيء فهم نفسها لتصنع وحدها هذه النتيجة ..» .

وكما يفعل الناس المعاندون المتثبثون برأيهم فقد عبّر فيشته عن رأيه في «ندائه إلى الجمهور» وفي دفاعه القضائي بمزيد من الفظاظة والحدة والعنف وذلك بتعابير تجرح أعمق مشاعرنا . ونحن الذين نؤمن بإلهٍ حقيقي يتجلى لحواسنا في الامتداد اللا متناهي ولعقلنا في الفكر اللامتناهي ، نحن الذين نقدس إلهاً مرئياً في الطبيعة ونسمع صوته اللامرئي في نفوسنا نشمئز من الألفاظ الحادة التي أعلن بها فيشته عن إلهنا بأنه صورة وهمية ليس غير ، حتى إنه هزىء به . والحق أنه لأمر مريب ما إذا كان هذا سخرية أم مجرد جنون وذلك حين يجرّد فيشته ربنا من كل الملحقات أو الاضافات الحسية بحيث إنه ينكر عليه أيضاً الوجود لأن الوجود مفهوم حسي ولا يمكن أن يكون إلا حسياً . ويقول فيشته إن نظرية العلم لا تعرف وجوداً آخر إلا الوجود الحسي ، ولما أنه ليس في الامكان أن ننسب صفة الوجود إلا لأشياء التجربة وموضوعاتها فإنه ليستحيل استعمال هذا المحمول عند الاله . وعلى هذا فإن إله فيشته لا وجود له . إنه غير كائن ولا يتجلى إلا بصفته عملاً خالصاً ونظام حوادث ونظاماً منظماً أو بصفته ناموس الكون .

وهكذا ، وبمثل هذه الطريقة ، ظل المذهب المثالي يصفّي الألوهية بواسطة كل التجريدات المكنة حتى لم يبق منها بقية باقية . وكما أن القانون ساد عندكم ، أيها الفرنسيون ، عوضاً من ملك فإنه ساد الآن عندنا عوضاً من إله . ولكن أيما اكثر سخفاً قانون بلا إله أم إلهٌ ليس هو إلا قانوناً ؟

وتعدّ مثالية فيشته من أضخم الأخطاء التي اختلقها العقل الانساني في أيما وقت مضى . فهذه المثالية اكثر كفراً وإلحاداً من المادية الشديدة الفظاظة والفجاجة . وربما كان في وسعي أن أبين أن الشيء الذي يسميه المرء هنا في

فرنسا إلحاد الماديين هو شيء مازال يسرُّ النفس ، شيء فيه تديّن وورع بالقياس إلى نتائج فلسفة فيشته المثالية المتسامية .

وفي حدود معلوماتي فإن نفسي لتعاف كلتا الفلسفتين . فكلا الرأيين معارض للشعر ومضادٌّ له . فالماديون الفرنسيون نظموا أبياتاً رديئة ، مثلهم كمثل الألمان ، أتباع المثالية المتعالية .

أما مذهب فيشته فلم يكن يشكل خطراً على الدولة . وأقل من ذلك فإن هذا المذهب لا يستحق أن يُلاحَقَ ويضطهد على أنه يشكل خطراً على الدولة . ولكي يكون الاغواء بهذا المذهب الخاطيء المضلل ممكناً فقد احتاج المرء من أجل ذلك إلى فطنة نظرية لا تتوافر إلا لدى قلةٍّ قليلة من الناس . أما عامة الناس بادمغتها السميكة فلم يكن لهذا المذهب المضلل سبيل إليها . وعلى هذا كان لابد من تفنيد رأي فيشته في الإله من طريق عقلاني لا من طريق الشرطة . فالاتهام بسبب الالحاد في الفلسفة كان في ألمانيا أمراً يدعو إلى الاستغراب بحيث إن فيشته لم يعرف أبداً في البداية مرام الآخرين . وإنه لا يجافي الصواب أبداً حين يقول إن السؤال عما إذا كانت فلسفةٌ ما ملحدةً أم لا ليقعُ في نفس الفيلسوف موقعاً غريباً وعجيباً كما يقع في نفس الرياضي السؤال عما إذا كان المثلث أخضر أم أحمر .

وعلى هذا كان لذلك الاتهام اسبابه الخفية التي سرعان ما فطن إليها فيشته . ولما أنه كان أشرف وأصدق رجل في الدنيا فعلينا أن نصدق بما جاء في رسالته إلى راينهولد بخصوص تلك الأسباب الخفية . ولما كانت هذه الرسالة المؤرخة في الثاني والعشرين من آيار سنة ١٧٩٩م تصف العصر كله وتستطيع أن تصوّر ضائقة هذا الرجل وعسره فإننا نريد إذاً أن نقتطف بعضاً منها : «نهكٌ وسأمٌ يحملانني على القرار الذي أعلمتك به وذلك للاختفاء عدة سنوات . بل إنني كنت مقتنعاً ، كما كان رأيي سابقاً ، أن الواجب يتطلب هذا القرار على حين لن يستمع إليَّ أحدٌ في اثناء هذا الغليان الحالي ولن يزيد هذا الغليان الموقف إلا سوءاً على أني بعد بضع سنوات وبعد أن يكون الاستياء الأول خفّ قد أتكلّم بإصرار أعظم وتأكيد أكبر ـ أما الآنَ فإني أفكر تفكيراً آخر . فلا ينبغي أن أسكت الآن . وإن اسكت الآن فلن

يسمح لي بالكلام مرة أخرى ـ ومنذ أن ارتبطت روسيا بالنمسا ، بل قبل ذلك بكثير ، توقعت ما ثبت لي الآن من خلال الأحداث المستجدة ، ولاسيما منذ اغتيال المبعوثين الفظيع(٣٥) الذي يهلل له المرء هنا ويهتف له كلٌّ من شيللر وغوته : (هذا هو عين الصواب . يجب قتل هؤلاء الكلاب)، وهو أن الحكم المطلق سيدافع عن نفسه من الآن وصاعداً دفاع اليائس القانط وأنه سيكون حازماً على يدي باول وبيت(٣٦) وأنه سيضع خطّة أساسها اجتثاث حرية الفكر وأنَّ الألمان لن يعرقلوا على الحكم المطلق وصوله إلى هذه الهدف .

لا تظن أن بلاط فايمار اعتقد أن وجودي سيلحق الضرر بحركة الجامعة وعدد زوارها . بل إن بلاط فايمار ليعرف أن العكس هو الصحيح . كان عليه أن يبعدني بموجب الخطة العامة التي دبّرتها امارة ساكسونيا(٣٧) تدبيراً محكماً .

وفي نحو نهاية العام الماضي (١٧٩٨م!) راهن بورشر(٣٨) في لايبزيغ ، وهو أحد المطلعين على تلك الأسرار ، رهاناً لا يستهان به على أنني سأكون في نهاية هذا العام مبعداً مطروداً . ومنذ زمن طويل كسب فويكتْ(٣٩) جانب بورجزدروف ضدي أنا . وأصدر قسم العلوم بدرسدن إعلاناً يفيد بأنه لا ينبغي أن يرقّى مَنْ يكرّس نفسه للفلسفة . وإذا ما رُقّي فلا يجوز أن يتقدم إلى الأمام . حتى إن اتجاه اللاهوتي روزين موللر(٤٠) صار أمراً مريباً في مدرسة لايبزيغ الحرة . ومنذ زمن غير بعيد تم هناك إدخال كتاب لوثر في قواعد الدين المسيحي وثُبِّت المدرسون من جديد على كتب رمزية . وسوف يستمر هذا وينتشر .. وباختصار فإن الشيء المؤكد ، بل الأكثر توكيداً هو أنه في غضون بضع سنوات لن يكون هناك في ألمانيا انسان عرف في حياته بفكره الحر ولن يكون له في ألمانيا مستقرٌّ أو مأوىً إن لم يصبح للفرنسيين اليد الطولى في ألمانيا ويحققوا فيها أو في الجزء الأكبر منها تحولاً ما . ولذلك فإنه لمن المؤكد لي أكثر من أي شيء آخر أكيد هو أنني سأطرد من جديد بعد سنة أو سنتين على الأكثر ، وهذا إذا ما وجدت الآن ركناً صغيراً في مكان ما . وإنه لأمر خطير أن يمكّن المرء الآخرين من طرده في أماكن عديدة . ولنا في هذا الأمر أسوة بروسو . وهَبْني صَمَتُّ صمتاً مطلقاً وتوقفت عن كتابة أي شيء فهل سيتركني المرء وشأني عند هذا الشرط ؟ لا أعتقد ذلك . وهَبْني تمكنت من أن

آمل ذلك من البلاط ، ألن يحرّض عليّ رجال الدين الذين انقلبت عليهم عامة الناس ليرجموني ويطلبوا عندئذ إلى الحكومات بأن تبعدني كوني انساناً يثير الشغب والفوضى ؟ ولكن هل ينبغي لي أن أصمت بعد ذلك ؟ كلا ، ولعمري فإنه لا يحق لي أن أفعل ذلك . إذ آن هناك ما يدعوني إلى الاعتقاد بأنه إذا ماكان هناك شيء يمكن انقاذه من العقل الألماني سيكون إنقاذه بواسطة قولي وكلامي وبصمتي ستنهار الفلسفة قبل أوانها إنهياراً تاماً . وإن اولئك الذين لا أتوقع فيهم أن يتركوني أعيش في صمت لا أتوقع منهم أن يتركوني اتكلم .

على أنني سأقنعهم بأنه لا ضرر من فلسفتي ـ فيا عزيزي راينهولد ، من أين لك أن تعدَّ لي هؤلاء الناس أخياراً ! فكلما ازددت وضوحاً وبدوت اكثر براءة ازداد هؤلاء خبثاً وشراً وعظم جرمي الحقيقي . ولم أعتقد قط أنهم يضطهدون إلحادي المزعوم . إنهم يضطهدون فيَّ إنساناً حرَّ الفكر شرع يتكلم فكانت كلمته مسموعة مفهومة (ومن حسن حظ كانط أنه كان غامضاً ،) ويضطهدون فيَّ ديمقراطياً سيء السمعة . وكما يروعهم شبح يروعهم الاستقلال الذي تثيره فلسفتي وهذا ما يتوهمونه على نحو غامض» .

وأكرر القول إن هذه الرسالة ليست بنت الأمس ، إنما تحمل تاريخ الثاني والعشرين من أيار سنة ١٧٩٩م . فأوضاع ذلك الوقت السياسية تشابه بصورة مكدّرة محزنة أحدث الأوضاع في ألمانيا ؛ غير أن مفهوم الحرية ازدهر آنذاك في ظل العلماء والشعراء وغيرهم من الأدباء . أما اليوم وفي الوقت الحاضر فإنَّ مفهوم الحرية هذا ليظهر في وسط الجماهير النشيطة وفي ظل الصناع واصحاب الحرف اكثر مما يظهر في وسط الآخرين . وعلى حين ران نُوامُ ألماني ثقيل على الشعب في عهد الثورة الأولى وساد صمت وحشي ، إن جاز التعبير ، في كافة البلاد الجرمانية ظهر عندنا في عالم الكتابة والتأليف أعنف غليان وهيجان . فالكاتب الذي كان يعيش في عزلة شديدة في ركن ما من الأركان المهجورة في ألمانيا شارك في هذه الحركة . ومن دون أن يكون هذا الكاتب مطّلعاً على الأحداث السياسية اطلاعاً تاماً فإنه أحسَّ بأهميتها الاجتماعية احساساً ينهض على التعاطف والتأييد وعبّر عنها في مؤلفاته . هذه الظاهرة تذكرني بالأصداف البحرية الكبيرة التي نضعها زينة على

مواقدنا ـ وحتى لو كانت بعيدة من البحر بعداً كبيراً فإنها ، مع ذلك ، تبدأ بالخشخشة لحظة يبدأ المد وتتكسر الأمواج على الشطآن . ولما تفجرت الثورة هنا ، في باريس ، اليمّ البشري الكبير ، وماج الموج وعصفت الرياح ، عندها هاجت القلوب الألمانية وفارت على الجانب الآخر من نهر الراين .. لكنها كانت معزولة جداً وكانت ترزح تحت خزف معدوم الاحساس وتحت فناجين الشاي وأباريق القهوة وتماثيل صينية كانت تومىء بالرأس ايماءً آلياً كأنما عرفت موضوع الحديث . ويا للأسف ، لقد كان على أسلافنا المساكين في ألمانيا أن يكفّروا عن ذلك التعاطف مع الثورة وعن ذلك التأييد لها تكفيراً أيما تكفير . فالمالكون الأشراف والقساوسة الرهبان مارسوا عليهم أشد ضروب المكر والاحتيال خسّةً وفظاظة . فالبعض منهم هرب إلى باريس حيث تردّى في الفقر والبؤس وضاع . وأبصرت منذ زمن غير بعيد رجلاً أعمى من أبناء بلدي جاء إلى باريس منذ ذلك الحين . رأيته في القصر الملكي وكان يستدفىء بدفء الشمس بعض الشيء . وحزّ في نفسي أن أرى شحوبه ونحوله وهو يتلمس طريقه بين البيوت . وقيل لي إنه الشاعر الدانماركي العجوز هايبرغ[٤١] . كما أنني رأيت أيضاً العلّية التي مات فيها المواطن جورج فورستر[٤٢] . أما حال اصدقاء الحرية الذين لم يرحلوا عن ألمانيا فكان من الممكن أن تكون أسوأ بكثير لو لم يهزمنا نابليون والفرنسيون . ولم يخطر ببال نابليون أبداً بأن يكون هو نفسه منقذ الاديولوجيا . فلولا هو لقضي على الفلاسفة الألمان وعلى افكارهم بالمشنقة والدولاب . على ان أصدقاء الحرية الألمان الذين كانوا في تفكيرهم جمهوريين اكثر من اللازم لكي يبايعوا نابليون وكانوا أكثر تسامحاً وكرماً من أن ينضووا تحت لواء حكم أجنبي ، هؤلاء أنفسهم لفّوا أنفسهم بصمت عميق منذ ذلك الحين . كانوا يسيرون هنا وهناك محزونين محطمي القلوب مكمّمي الأفواه . وحين سقط نابليون ابتسموا . لكنها كانت ابتسامة حزينة كئيبة وصمتوا ولم يكن لهم تقريباً أي سهمٍ في الحماسة أو الحمية الوطنية التي هللت آنذاك عالياً في ألمانيا في أسمى ضروب الموافقة . لقد عرفوا الشيء الذي عرفوه[٤٣] وسكتوا . ولما كان هؤلاء الجمهوريون يعيشون عيشة بسيطة في غاية من العفة والطهارة فإنهم طعنوا عادةً في السن . وحين اندلعت ثورة تموز كان كثيرون منهم لا يزالون احياء .

ودهشنا كثيراً إذ يرفع المسنّون ذوو الاطوار الغريبة رؤوسهم فجأة ويبادروننا نحن الشباب بابتسامة ودية ويشدون على أيدينا ويقصون قصصاً مسلية على حين رأيناهم يسيرون دائماً مطأطئي الرؤوس صامتين صمتاً يقرب من البلادة والغباء . حتى إنني سمعت احدهم يغني ؛ إذ غنى لنا في المقهى نشيد المارسيليز وتعلمنا هنا اللحن والكلمات الجميلة ولم يطل بنا الوقت حتى أخذنا نغنّي ذلك بأداءٍ أحسن من أداء العجوز . إذ أن هذا المسنّ كان يضحك بين الفينة والأخرى عند أجمل مقطع كما يضحك مهرّج أو يبكي كما يبكي طفل . وإنه لشيء جميل أبداً حين يبقى مثل هؤلاء المسنين أحياء لكي يعلّموا الشباب الأغاني والأناشيد . ونحن الشباب لن ننساهم أبداً . وبعضنا سيدرب عليها ذات يوم اولئك الأحفاد الذين لم يولدوا بعد . على أن كثيرين منا سيكون قد أصابهم العفن في أثناء ذلك إما في سجن الوطن أو في علية من علالي الغربة . لنتحدث مرة أخرى عن الفلسفة ! ولقد أوضحت أعلاه كيف أن فلسفة فيشته التي تكونت من أدق التجريدات أظهرت مع هذا صلابة حديدية في نتائجها واستنتاجاتها التي ترقّت بها حتى بلغت أشد الذرى خطورة . على أننا رأينا فيها ذات صباح تحوّلاً كبيراً . وأخذت بهذا التحول تلين وتنتحب وترق وتتواضع . وماكان فيها جباراً مثالياً تسلق إلى السماء على سلم الأفكار ودس يده الجريئة في حجراتها الفارغة يتحول الآن إلى شيء مسيحي فيه انحناء ويصعّد تنهدات الحب الكثيرة . وتلك هي المرحلة الثانية(٤٤) التي مرَّ بها فيشته والتي لا تهمنا هنا في هذا المقام كثيراً . ويعاني مذهب فيشته الفلسفي كله من التعديلات التي تدعو إلى اشد ضروب الدهشة والغرابة . ولقد كتب في ذلك الحين كتاباً ترجمتموه انتم حديثاً وهو : «رسالة الانسان وقدره» . ثم إن هناك كتاباً آخر شبيهاً بهذا وهو كتاب : «الارشاد إلى حياة هانئة راضية» الذي ينتمي أيضاً إلى تلك الفترة ، وأبى فيشته العنيد والمعروف بعناده أن يعترف بهذا التحول الكبير وزعم أن فلسفته لا تزال كما كانت عليه دائماً ولم يتغير إلا التعابير وزعم أن الناس لم يفهموه أبداً . كما زعم أن فلسفة الطبيعة التي ظهرت آنذاك في المانيا وطغت على الفلسفة المثالية هي في الحقيقة بقضها وقضيضها مذهبه الفلسفي وأن تلميذه السيد يوسف شيللنغ الذي انفصل عنه ومهّد لتلك الفلسفة الجديدة لم يغير إلا في

التعابير ولم يوسع مذهبه الفلسفي القديم إلا بواسطة إضافات وزيادات كريهة بغيضة .

وهنا نتوصل إلى مرحلة جديدة من مراحل الفكر الألماني . وذكرنا اسم يوسف شيللنغ وفلسفة الطبيعة . ولمّا كان شيللنغ غير معروف في فرنسا ومصطلح فلسفة الطبيعة غير مفهوم بعامة فلا بد لي إذاً من أن أشرح أهمية كل منهما . وليس في وسعنا أن نفيهما حقهما من الشرح على هذه الصفحات . وسنخصص لهذا الموضوع كتاباً آخر فيما بعد(٤٥) . إن غايتنا هنا أن ندفع بعض الأخطاء المتغلغلة ونولي الأهمية الاجتماعية للفلسفة المذكورة شيئاً من الاهتمام ، ليس غير .

وإن ما ينبغي ذكره بادىء ذي بدء هو أن فيشته كان على شيء من الحق حين سارع إلى القول إن المذهب الفلسفي للسيد يوسف شيللنغ هو في الحقيقة مذهبه ، لكنه صيغ صياغة مغايرة وموسعة . ومثلما علم السيد يوسف شيللنغ علّم أيضاً فيشته وهو أنه لا يوجد إلا كائن واحد وهو الأنا أو المطلق . ونادى ايضاً بهوية المثالي والواقعي . وكما اوضحت فإن فيشته أراد أن ينشىء في مؤلفه «نظرية العلم» الشيء الواقعي من الشيء المثالي بواسطة تركيب ذهني . لكنَّ السيد يوسف شيللنغ عكس الشيء وقلبه ، إذ حاول أن يفسر المثالي من الواقعي . ولكي أعبّر بمزيد من الوضوح فانطلاقاً من المبدأ بأن الفكر والطبيعة هما شيء واحد فإن فيشته توصل من طريق عملية الفكر إلى عالم الظواهر وخلق الطبيعة من الفكرة وخلق الواقعي من المثالي . أما السيد شيللنغ الذي ينطلق من المبدأ نفسه فيرى عالم الظواهر يستحيل إلى افكار ، ليس غير ، وتستحيل الطبيعة في نظره إلى فكرة والواقعي الى مثالي .

وعلى هذا فإن كلا الاتجاهين ، اتجاه فيشته واتجاه السيد شيللنغ ، يتممان بعضهما ، إن صح هذا التعبير . إذ أن الفلسفة استطاعت أن تنقسم وفق ذلك المبدأ الأعلى المذكور إلى قسمين ، وسيتبين في القسم الأول كيف تظهر الطبيعة من الفكرة ، كما سيتبين في القسم الثاني كيف تنحل الطبيعة إلى افكار ، ليس غير . وعلى هذا استطاعت الفلسفة أن تنقسم إلى مثالية متعالية وفلسفة طبيعية . وكلا

هذين الاتجاهين أقر بهما السيد شيللنغ حق الاقرار ، فتقصّى فلسفة الطبيعة في كتابه «أفكار حول فلسفة الطبيعة ، على حين تقصى المثالية المتعالية في كتابه «مذهب المثالية المتعالية» .

وهذان الكتابان، اللذان ظهر أولهما في عام ١٧٩٧م والثاني في عام ١٨٠٠م لا نذكرهما هنا إلا لأن تلك الاتجاهات المتممة تظهر في عنوانيهما . إننا لا نذكرهما لأنهما ينطويان على مذهب تام بعض الشيء . إذ أن هذا ليس موجوداً في أي كتاب من كتب السيد شيللنغ . فليس عنده من المؤلفات الاساسية مايمكن عده محور فلسفته ، كما هي الحال لدى كانط أو فيشته . وإنه لظلم لو عمدنا إلى الحكم على السيد شيللنغ وفقاً لحجم كتاب أو تبعاً لصرامة الحرف . بل إن على المرء أن يقرأ كتبه بحسب ترتيبها الزمني ويتقصى فيها النشوء التدريجي لفكرته ومن ثم يمسك بفكرته الأساسية ويستند إليها . وإنه ليبدو ضرورياً أيضاً أنه ليس بالنادر أن يميز المرء عند شيللنغ أين تنتهي الفكرة ويبدأ الشعر . إذ أن السيد شيللنغ هو أحد أولئك البشر الذين وهبتهم الطبيعة ميلاً إلى الشعر اكثر مما وهبتهم الطاقة الشعرية فكانوا عاجزين عن أن يكفوا بنات الشعر ، لذا لجأوا إلى غابات الفلسفة ليقترنوا هناك بحوريات الغابة المجردات قراناً عقيماً . إن حسَّ هؤلاء الناس شعري ، على أن الأداة ، أي الكلمة ، ضعيفة . إنهم يصارعون بلا جدوى من أجل صيغة فنية يستطيعون أن ينقلوا بها افكارهم ومعلوماتهم . والشعر ، في نظر السيد شيللنغ ، قوة وضعف . وهذا ما يميزه من فيشته ، سواءً أكان هذا في صالحه نحو الأفضل أم في غير صالحه أيضاً . وما فيشته إلا فيلسوف تنحصر شوكته في الجدل كما تنحصر قوته في الاظهار والتبيين . على أن هذا هو نقطة ضعف السيد شيللنغ . فهو يعيش اكثر مايعيش في التصورات والتأملات ولا يشعر بالأمان والاطمئنان في أبعاد المنطق الباردة . ويطيب له أن يهيم في عالم المعاني بوديانه الزهرية . وتنحصر قوته الفلسفية في التركيب . على أن التركيب طاقة ذهنية تكون موجودة في اكثر الأحيان عند شعراء متوسطي الموهبة كما هي عند أفضل الفلاسفة .

ويتضح بعد هذه الاشارة الأخيرة أن السيد شيللنغ بقي وكان عليه أن يبقى في ذلك الجانب المسمى بالفلسفة المتعالية مجرد مقلد لفيشته . أما في فلسفة الطبيعة حيث كان عليه أن يتدبر أمره وسط زهو ونجوم فقد كان عليه أن يتطور ويزدهر ويتألق على نحو شديد جداً . وعلى هذا لم يسلك هو وحده هذا الاتجاه ، وانما سلكه أيضاً ، وبصورة خاصة ، الأصدقاء نظراؤه في الغرض والرأي والتفكير . ولم يكن الاندفاع الذي ظهر في أثناء ذلك إلا رد فعل شويعري تجاه فلسفة الذهن المجردة السابقة .

وكما يفعل تلامذة المدارس الذين اطلق سراحهم بعد نهار قضوه في القاعات وهم يرزحون تحت عبء الكلمات والرموز فإن تلامذة السيد شيللنغ اندفعوا إلى الطبيعة ، إلى الواقع المشمس العطر وهللوا فرحاً وتشقلبوا وضجوا كثيراً .

إن عبارة «تلامذة السيد شيللنغ» يجب ألا تؤخذ بمعناها العادي . فالسيد شيللنغ نفسه يقول إنه لم ينوِ أن ينشيء مدرسة إلا على نمط الشعراء القدامى ، مدرسة للشعراء لا يلتزم فيها أحدٌ بمذهب معين أو نمط معين ، بل يخضع الجميع فيها للعقل فيظهره كل واحد على طريقته الخاصة . وكان في وسعه أن يقول أيضاً إنه أسّس مدرسة للأنبياء حيث أخذ المتحمسون يتنبأون على هواهم وبالأسلوب الذي يريدونه .

وهذا هو الشيء الذي فعله التلامذة الذين أنعشهم ذهن المعلم وأثارهم وأخذ الأغبياء ، قاصرو العقل ، يتنبأون ، كلٌّ منهم بلغة مختلفة . ونشأ عيد عَنْصرة كبير في الفلسفة .

ونرى هنا على ذكر فلسفة الطبيعة كيف يمكن استخدام الأهم والأعظم لمجرد تنكّر في تنكر والغرض سخيف أخرق وكيف يكون في مقدور شرذمة من المحتالين الجبناء والمهرجين المكتئبين أن تفضح فكرة عظيمة وتندد بها .

غير أن الشبكة التي تعدّها مدرسة السيد شيللنغ ، مدرسة الأنبياء أو مدرسة الشعراء ، لفلسفة الطبيعة قد لا تسرّها . إذ أن فكرة فلسفة الطبيعة ليست في الحقيقة إلا فكرة سبينوزا ، وهذا يعني مذهب وحدة الوجود .

إن مذهب سبينوزا وفلسفة الطبيعة ، كما جمعهما شيللنغ في أفضل مراحله ، هما في الأصل شيء واحد . فبعد أن أعرض الألمان عن فلسفة لوك المادية وغالوا في مثالية لايبنتز واكتشفوا ايضاً عقم هذه المثالية اهتدوا أخيراً إلى سبينوزا ، ابن ديكارت الثالث . وتتم الفلسفة دورة كبيرة مرة أخرى . وفي وسع المرء القول إنها نفس الدورة التي قامت بها الفلسفة قبل ألفي سنة في اليونان . غير أن فارقاً جوهرياً يظهر للعيان لدى مقارنة الدورتين كلتيهما مقارنة أدق . فاليونان كان عندهم شكاكون جريئون كما هي الحال عندنا . ومن المؤكد أن مدرسة الفلسفة اليونانية في إليا[٤٦] انكرت واقع العالم الخارجي كما انكره عندنا انصار المدرسة المثالية المتعالية الحديثة .

وأفلاطون ، مثله كمثل شيللنغ ، وجد في عالم الظواهر عالم الفكر . على أننا سبقنا اليونان بعض الشيء وسبقنا المدارس الديكارتية أيضاً . سبقناهم بعض الشيء في أننا بدأنا دورتنا الفلسفية بامتحان مصادر المعرفة الانسانية وبنقد العقل الخالص لعمانوئيل كانط .

ولما أنني ذكرت كانط فإنَّ في إمكاني أن أضيف إلى الأفكار السابقة أن الدليل لوجود الاله ، أي الدليل الأخلاقي الذي ابقى عليه كانط قد ألغاه السيد شيللنغ بنجاح باهر واستحسان عظيم . لكنني أوضحت أن هذا الدليل لم يكن بذي قوة متميزة وأن كانط لم يبقِ عليه إلا عن طيبة قلب وحسن نية . إن إله السيد شيللنغ هو كون سبينوزا الالهي . كان هذا في عام ١٨٠١م في الجزء الثاني من «مجلة الفيزياء النظرية» . فالله هنا هو الهوية المطلقة للطبيعة والفكر ، للمادة والروح . والهوية المطلقة ليست علة الكون ، وانما هي الكون نفسه . فهي ، إذاً ، الكون الالهي ، وليس في هذا الكون تناقضات أو تقسيمات . فالهوية المطلقة هي أيضاً الكلية المطلقة .

وبعد ذلك بسنة واحدة طوّر السيد شيللنغ إلهه اكثر وأكثر ، لاسيما في مؤلفه الذي يحمل العنوان : «برونو أو حول مبدأ الأشياء الالهي أو الطبيعي»[٤٧] . ويذكرنا هذا العنوان بأنبل شهداء مبدئنا وهو جيوردانو برونو فون نولا[٤٨] . ويزعم

الايطاليون أن السيد شيللنغ أخذ عن برونو الشيخ أفضل أفكاره ويتهمونه بالسرقة . لكنهم على خطأ إذ أنه لا مكان للسرقة في الفلسفة . وأخيراً ، وفي عام ١٨٠٤م ، ظهر إله السيد شيللنغ جاهزاً في المؤلف الذي يحمل العنوان : «الفلسفة والدين» . ونجد هنا فلسفة المطلق في كمالها حيث يتم التعبير عن المطلق في ثلاث صيغ . الصيغة الأولى هي الصيغة المطلقة (Kategorisch): فالمطلق ليس بالمثالي وليس بالواقعي (لا هو بمادة ولا هو بروح) ، وإنما هو هويتهما كليهما . والصيغة الثانية هي الصيغة الشرطية (Hypothetisch): أي إذا كان الذات والموضوع موجودين فإنَّ المطلق هو الهوية الجوهرية لكليهما معاً . أما الصيغة الثالثة فهي الصيغة الفاصلة (disjunutive) وليس هنا إلا وجود واحد ، على أن هذا يمكن أن يعدَّ في الوقت نفسه أو بصورة متناوبة مثالياً في كليته أو واقعياً في كليته . فالصيغة الأولى سلبية تماماً وتفرض الصيغة الثانية شرطاً قد يكون فهمه أصعب بكثير من المشروط نفسه . أما الصيغة الثالثة فهي صيغة سبينوزية ، إذ يمكن فهم المطلق على أنه فكر أو امتداد . وعلى هذا لم يستطع السيد شيللنغ أن يسير على طريق فلسفته شوطاً أبعد من سبينوزا ، ذلك لأنه ليس في الامكان فهم المطلق إلا في هيئة هذين المحمولين : الفكر والامتداد : على أن السيد شيللنغ يترك الطريق الفلسفي ويحاول الوصول إلى معرفة المطلق نفسه من طريق نوع من الحدس الصوفي . فهو يحاول أن يراه في مركزه ، أي في كنهه حيث لا يكون شيئاً مثالياً ولا شيئاً واقعياً ، لا فكرة ولا امتداداً ، لا ذاتاً ولا موضوعاً ، لا روحاً ولا مادة وإنما .. لا أدري ولا يهمني ذلك !

وهنا تتوقف الفلسفة عند السيد شيللنغ ويبدأ الشعر أو كما أود أن أسميه أنا ، الهوس والحمق . على أنه هنا يعجب اكثر ما يعجب جماعة من الثرثارين الذين يرضيهم أن يتخلوا عن التفكير الهادىء ويقلدوا ، إن صح التعبير ، الدراويش الراقصين الذين يدورون ويدورون في دوائر ، كما يحدثنا جول دافيد[٤٩] ، إلى أن يختفي عن أنظارهم العالم الموضوعي والعالم الذاتي معاً وإلى أن يلتقيا معاً في عدم أبيض ليس بحقيقي وليس بمثالي ، ويدورون ويدورون إلى أن يروا شيئاً ليس

بمرئـي ويسمعوا شيئاً ليس بمسموع ويسمعوا الألوان ويروا الأنغام وإلى أن يتكشف لهم المطلق .

وأعتقد أن مجرى حياة السيد شيللنغ الفلسفي ينتهي بمحاولته أن يرى المطلق رؤية عقلية . ويبرز الآن مفكّر أعظم يصوغ فلسفة الطبيعة في نظام تام ويفسّر تبعاً لتركيبها عالم الظواهر كله ويتمم افكار اسلافه العظيمة بافكار أعظم ويمرّها بكل النظم وبذلك يعللها علمياً . إنه أحد تلامذة السيد شيللنغ(٥٠) ، ولكنه تلميذ استحوذ تدريجياً على سؤدد استاذه كله في عالم الفلسفة وتجاوزه مدفوعاً بحب السيطرة ثم طرده أخيراً إلى الظلمة. إنه هيجل العظيم، أعظم الفلاسفة الذين أنجبتهم ألمانيا منذ لايبنتز . وليس من شك في أنه بز كانط وفيشته . فهو صارم صرامة كانط وقوي قوة فيشته ويتمتع ، فضلاً عن ذلك ، براحة بال وسكينة تؤلف كلاً تاماً ، ولديه اتساق فكري لا نجده لدى كانط وفيشته ، ذلك لأن العقل الثوري له من السيادة عند هذين الرجلين ماليس لغيره بكثير . وإنه لمحال مقارنة هيجل بالسيد يوسف شيللنغ ؛ إذ أن هيجل كان رجلاً ذا خُلُق . ومع أنه منح مثل السيد شيللنغ الشيء الموجود والقائم في الدولة والكنيسة بعض التجويزات المريبة جداً فقد حدث هذا بالنسبة لدولة أقرت بمبدأ التقدم ، وإنْ كان هذا الاقرار نظرياً على الأقل ، وحدث هذا أيضاً بالنسبة لكنيسة اعتبرت مبدأ البحث الحر عنصراً حيوياً لها . ولم يتكتم . واعترف بكل ماكان لديه من نيات(٥١) . أما السيد شيللنغ فقد راح يتلوى كالدودة في غرف انتظار استبداد نظري وعملي وراح يزاول أعمال عامل مساعد في كهوف الجزويت حيث تبتكر قيود الفكر . ويريد في اثناء ذلك أن يدخل في روعنا أنه كان ولايزال أبداً انسان النور فهو ينكر إنكاره ويضيف إلى عار المروق جبن الكذب !

وليس لنا أن نخفي ذلك ، لا بدافع البر والاحسان ولا بدافع الذكاء نريد أن نسكت على ذلك : فالرجل الذي جهر ذات يوم بمذهب وحدة الوجود في ألمانيا على نحو جريء لا مثيل له ونادى بقدسية الطبيعة وإرجاع الحقوق الالهية للانسان بصوتٍ عالٍ لا مثيل له ، هذا الرجل ارتدّ عن مذهبه وهجر المذبح الذي كان دشنه

بنفسه وتسلل منسحباً إلى حظيرة الايمان القديمة واصبح الآن كاثوليكياً صالحاً يدعو إلى إله شخصي خارج عن الوجود «ارتكب الحماقة بأنه خلق الكون» . وعلى أية حال فليقرع اصحاب المعتقد التقليدي القويم اجراسهم ولينشروا ابتهالاتهم الدينية على اهتداء كهذا الاهتداء ـ على أن هذا لا يثبت أي شيء . إن ما يثبته هو أن المرء يميل إلى الكاثوليكية حين يتعب ويطعن في السن وحين يفقد قواه العقلية والجسدية وحين لا يكون في مقدوره أبداً أن يستمتع بشيء ويفكر . وكثيرون هم العلمانيون احرار الفكر الذين تابوا واهتدوا وهم على فراش الموت . ولكن حذار من المباهات بذلك ! فقصص الاهتداء هذه تدخل على الأكثر في علم الأمراض (الباثالوجيا) ولن تقدم إلا شاهداً رديئاً على مسألتكم . وأخيراً فإن هذه القصص لم تبرهن إلا على شيء واحد وهو أنه لم يكن في مقدوركم أن تقنعوا وتهدوا اولئك الملحدين غير الخاضعين لمعتقد كنسي طوال الوقت الذي تنقلوا فيه هنا وهناك في دنيا الله الواسعة بمشاعر سليمة وبكامل قواهم العقلية .

ويعتقد بالانشيه(٥٢) ، على حد قوله ، أن المبدعين يجب أن يموتوا حالما يتمون العمل الذي استهلوه . أي ، بالانشيه الطيب ، إن هذا لصحيح بعض الشيء . والأولى أن نقول إن صاحب العمل المبدع حين يكون العمل منجزاً يموت أو يصبح مارقاً . وعلى هذا قد نستطيع أن نخفف الحكم القاسي الذي أصدرته ألمانيا المفكرة على السيد شيللنغ . ولربما استطعنا أن نحوّل الاحتقار الشديد الذي ينوء شيللنغ تحت ثقله إلى شفقة هادئة ولن نفسّر مروقه عن مذهبه الخاص إلا نتيجة لذلك القانون الطبيعي وهو أن ذلك الذي كرّس كل قواه للتعبير عن فكرته وتنفيذها قد هوى منهك القوى إما في أحضان الموت أو في احضان اعدائه وخصومه السابقين وذلك بعد أن عبّر عن هذه الفكرة وحققها .

ولعلنا نفهم بعد تفسير كهذا التفسير ظواهر يومية بالغة الحدة تكدرنا عميق الكدر . ولعلنا نفهم بذلك السبب الذي حدا برجال لأن يتخلوا عن رأيهم وينخرطوا في معسكر الأعداء ، بعد أن ضحوا بكل شيء في سبيل هذا الرأي وناضلوا في سبيل ذلك وعانوا حتى كتب النصر لهذا الرأي ! وبعد ايضاح كهذا استطيع أن ألفت النظر أيضاً إلى أن السيد شيللنغ لم يُتّهم وحده بالمروق ، وإنما اتُّهم ايضاً كلٌّ

من فيشته وكانط . ومات فيشته قبل أوانه وقبل أن يتمكن مروقه من فلسفته أن ينجلي ويصبح محط الاهتمام العام .

ولم يلبث كانط أن حاد عن «نقد العقل الخالص» على حين كتب هو «نقد العقل العملي» . فصاحب العمل أو البادىء به يموت أو يصبح مارقاً . ولست أدري كيف أن هذه الجملة الأخيرة أثرت في نفسي تأثيراً مطوِّعاً إلى حد الكآبة بحيث لا أستطيع الآن أن أنقل بقية الحقائق المرة التي لها صلتها بالسيد شيللنغ ابن اليوم . والأولى بنا أن نقرظ شيللنغ الأسبق الذي تزهو ذكراه خالدة في حوليات الفكر الألماني ؛ إذ أن شيللنغ الأسبق يمثل ، على نحو ما يمثل كانط وفيشته ، احدى المراحل العظيمة للثورة الفلسفية التي قارنتها على هذه الصفحات بمراحل الثورة السياسية في فرنسا . وإذا ما رأى المرء في كانط الجمعية الوطنية الارهابية وفي فيشته امبراطورية نابليون فإنه يرى في شيللنغ الرجعية التي وليت ذلك واعادت كل شيء كما كان . على أنه كان قبل كل شيء إعادة وإحياء بالمعنى الخاص . فالسيد شيللنغ أعاد إلى الطبيعة حقوقها الشرعية ثانية وسعى إلى مصالحة بين العقل والطبيعة وأراد أن يوحدهما معاً من جديد في الروح الكونية الخالدة . لقد جدد فلسفة الطبيعة العظيمة ، تلك التي نجدها عند فلاسفة اليونان القدامى والتي تتوجه قبل كل شيء بفضل سقراط إلى النفس الانسانية اكثر من أي شيء آخر وتنتهي بعد ذلك في ماهو فكري معنوي . وجدّد شيللنغ فلسفة الطبيعة العظيمة التي انبثقت على نحو خفي سرّي من مذهب وحدة الوجود الألماني القديم وبشرت في عهد باراتسيلسوس بأجمل الزهور . لكن الديكارتية المستوردة ناءت عليها بكلكلها فأخمدت أنفاسها . ويؤسفنا أنه جدد أخيراً أشياء يمكن مقارنته من خلالها باعادة الملكية الفرنسية . وتلك مقارنة بالمعنى السيء . على أن العقل العام لم يحتمله عندئذ زمناً أطول فتم انزاله على نحو مزرٍ من فوق عرش الفكر . وخلع هيجل ، قهرمانه ، التاج عن رأسه ونغّص عليه عيشه . ومنذ ذلك الحين عاش شيللنغ المذعور عيشة رويهب حقير في ميونيخ[٥٣] المدينة التي يحمل اسمها طابع القساوسة وتدعى باللاتينية مدينة الرهبان . وهناك رأيته يترنح كالشبح بعينيه الكبيرتين الباهتتين ووجهه المنقبض البليد ، كان صورة للعظمة المنهارة التي تبعث

على الحزن والاسى في النفس . أما هيجل فقد توّج في برلين وضمّخ ، للأسف ، بقليل من الزيت واعتلى منذئذٍ سدّة الفلسفة الألمانية .

وتنتهي ثورتنا الفلسفية . ويكمل هيجل دائرتها الكبيرة ويغلقها . ولا نرى منذئذ إلا تطويراً لمذهب فلسفة الطبيعة وصياغة له . وتغلغل هذا المذهب ، كما ذكرت آنفاً ، في كل العلوم وانتج فيها أعظم الأشياء وأروعها على الاطلاق . وسبق أن نوهت أيضاً أنه كان لابد أن تظهر في الوقت نفسه أشياء كثيرة غير سارة . وهذه الظواهر هي في غاية من التنوع بحيث يحتاج تعدادها إلى سفر كامل . وهنا يكون الجانب المهم والغني بالألوان من تاريخ الفلسفة الألمانية . على أنني مقتنع بأنه لأكثر نفعاً وفائدة للفرنسيين ألا يعرفوا شيئاً عن هذا الجانب ؛ إذ أن التعريف بهذا الجانب يمكن أن يزيد العقول بلبلةً في فرنسا . وقد تفسد بعض مبادىء فلسفة الطبيعة إفساداً كبيراً عندكم إذا ما انفصلت عن سياقها . وبقدر ما أعرف فإنكم ، أيها الفرنسيون ما كنتم استطعتم أن تقوموا بثورة تموز أبداً لو كنتم اطلعتم قبلل ذلك بأربع سنوات على فلسفة الطبيعة الألمانية . فالقيام بهذا العمل تطلب تركيزاً للذهن والقوى وتحيزاً نبيلاً وتهوراً تياهاً ؛ وهذه أشياء لا تسمح بها إلا مدرستكم القديمة . إن اضاليل وأخطاء فلسفية استطاع المرء أن يسوغ بها على كل حال الشرعية وعقيدة الحلول الكاثوليكية كانت ستطفىء حماستكم وتشلّ جرأتكم . وعلى هذا فإني لأرى الأمر مهماً من الناحية التاريخية بأن أحد الانتقائيين التوفيقيين(٥٤) عندكم أراد أن يعلمكم آنذاك الفلسفة الألمانية لم يفهم منها أيضاً أي شيء على الاطلاق . فجهله الذي زودته به العناية الالهية كان ذا نفع وفائدة لفرنسا وللانسانية جمعاء .

وللأسف فإن فلسفة الطبيعة التي انتجت في بعض مجالات العلم ، ولاسيما في العلوم الطبيعية الأساسية ، أعظم الثمار انتجت في حقول أخرى الأعشاب الأكثر ضرراً .

وعلى حين اكتشف أوكين(٥٥) ، أنبغ مفكري ألمانيا وأحد أعظم مواطنيها ، عوالم افكاره الجديدة وألهب حماسة الشبيبة الألمانية لحقوق الانسان الاصلية ،

للحرية والمساواة ، فإن آدم موللر[٥٦] حاضر ، في الوقت نفسه ، في علف الشعوب في المربط وفق مبادىء فلسفة الطبيعة . وفي الوقت نفسه دعا السيد غوريز[٥٧] إلى نزعة العصور الوسطى المعادية للتنوير في شتى أشكاله وذلك تبعاً للرأي العلمي بأن الدولة ليست إلا شجرة ويجب أن يكون لها في تفرعها العضوي جذع وأغصان وأوراق . وهذا كله يمكن ايجاده في تسلسل مراتب النقابات في العصور الوسطى على نحو طريق كل الطرافة . وفي الوقت نفسه نادى السيد ستيفنز[٥٨] بالقانون الفلسفي الذي بمقتضاه تتميز طبقة الفلاحين من طبقة النبلاء بأن الطبيعة قضت بأن يعمل الفلاح دون أن يمتع النفس ؛ أما النبيل فيحق له أن يستمتع من دون أن يعمل . وكما يقولون لي إن غبياً من كبار ملاكي فستغاليا يدعى هاكستهاوزن[٥٩] أصدر منذ عدة أشهر كتاباً رجا فيه حكومة بروسيا الملكية بأن تراعي الموازاة المنطقية التي تثبتها الفلسفة في الهيئة العالمية كلها وأن تفرز الطبقات السياسية فرزاً يكون في غاية من الدقة والصرامة . فكما أن هناك في الطبيعة عناصر اربعة وهي النار والهواء والماء والتراب فإن هناك أيضاً في المجتمع أربعة عناصر مماثلة هي : النبلاء ورجال الدين والبورجوازيون والفلاحون .

وحين رأى المرء مثل هذه الحماقات المحزنة تنبثق من الفلسفة وتنمو وتتطور إلى أشد مواطن التطور ضرراً حين لاحظ المرء أن الشبيبة الألمانية الغارقة في تجريدات ميتافيزيقية نسيت هموم العصر واهتماماته وباتت لا تصلح للحياة العملية فكان لابد للوطنيين وأنصار الحرية من أن يشعروا بالغضب العادل على الفلسفة ، وبلغ الحال ببعضهم أنهم أدانوها كل الإدانة على أنها لهو فارغ لا غناء فيه .

لن نكون سخفاء إلى تلك الدرجة لنفند تفنيداً جاداً هؤلاء الساخطين الناقمين . فالفلسفة الألمانية قضية مهمة تخص الجنس البشري كله . وإن آخر من يأتي من الأحفاد سوف يتمكن من البت فيما إذا كنا نستحق الذم أو المدح بأننا أكملنا فلسفتنا أولاً ثم أعددنا ثورتنا ثانياً . ويخيل إلي أن شعباً منهجياً مثلنا كان عليه أن يبدأ بالاصلاح ، فلم يستطع بعدئذ إلا أن يشتغل بالفلسفة ولم يسمح له أن يتحول إلى الثورة السياسية إلا بعد تمام الفلسفة وكمالها . وإني لأجد هذا الترتيب معقولاً جداً . فالرؤوس التي استغلتها الفلسفة للتفكير والتأمل تستطيع

الثورة أن تطيح بها فيما بعد لأغراض تريدها . على أن الفلسفة ماكان في وسعها أن تستخدم أبداً الرؤوس التي اطاحت بها الثورة لو أن الثورة سبقت الفلسفة . ولكن لا تجزعوا أيها الجمهوريون الألمان ، فالثورة الالمانية ستحدث على نحو ألطف وأخف وأرق لأن نقد كانط سبقها وتقدمت عليها مثالية فيشته الترانسنيدالية (المتعالية) وفلسفة الطبيعة أيضاً . وبواسطة هذه المذاهب نمت وتطورت قوى ثورية لا تنتظر إلا ذلك اليوم الذي تستطيع فيه أن تتفجر وتملأ الدنيا بالذعر والاعجاب . وسوف يظهر اتباع كانط الذين لا يريدون أن يعرفوا شيئاً عن البر والتقوى في عالم الظواهر . ويقلبون بالسيف والفأس تربة الحياة الاوروبية بلا رأفة أو شفقة لكي يقتلعوا أيضاً آخر جذور الماضي . وسوف يظهر اتباع فيشته المسلحون على المسرح ولن يكون في الامكان اخضاعهم في تعصبهم الارادي لا بواسطة الخوف ولا بواسطة المصلحة الشخصية والنفع الذاتي ، إذ أنهم يعيشون في العقل ويقاومون المادة كالمسيحيين الأوائل الذين عجز المرء عن اخضاعهم والظفر بهم سواء بواسطة الآلام الجسدية أو بالمتع الحسية . والحق أن مثل هؤلاء المثاليين المتعالين سيكونون اكثر عناداً من المسيحيين الأوائل عند حدوث انقلاب اجتماعي ذلك لأن هؤلاء المسيحيين تحملوا العذاب الدنيوي لكي ينالوا بذلك السعادة السماوية . أما المثالي المتعالي فإنه يعد هذا العذاب وهماً خادعاً باطلاً ويستحيل بلوغه في حصن الفكر الذاتي . بل إن فلاسفة الطبيعة الذين يتدخلون تدخلاً فعالاً في ثورة ألمانية ويصبحون هم والعمل التخريبي شيئاً واحداً هم أبغض إلى النفس من كل شيء وأثقل ظلاً . فإذا ما هوت يد الكانطي بالضرب في قوة وثبات ذلك لأن فؤاده لا يتأثر بأية رهبة تقليدية ؛ وإذا ما قاوم الفيشتي كل خطر في جرأة وشجاعة لأن الخطر في نظره لا وجود له في الواقع أبداً فإن فيلسوف الطبيعة سيكون مقيتاً لا يحتمل ذلك أنه يرتبط بقوى الطبيعة الاصلية وأنه يستطيع استحضار القوى الشيطانية لمذهب وحدة الوجود الجرماني القديم والتعزيم عليها وأنه يستيقظ فيه حب القتال والمشاكسة ، ذلك الذي نجده لدى الألمان القدامى والذي لا يقاتل لكي يدمر أو ينتصر وإنما حباً بالقتال والخصام ، ليس غير .

وإن من أجمل مآثر المسيحية أنها هدّأت تلك الرغبة القتالية الوحشية الجرمانية إلى حد ما ، لكنها لم تستطع أن تقضي عليها ؛ وإن يتحطم الصليب ، تلك التميمة الملطفة المروضة ، ذات مرة ترتفع صلصلة وحشية المقاتلين القدامى من جديد إلى جانب غضبتهم الوحشية الفارغة السخيفة التي يتغنى بها الشعراء الشماليون كثيراً . فتلك التميمة صارت هشة . وسيأتي اليوم الذي تتحطم فيه هذه التميمة وتنهار انهياراً ذريعاً . ومن ثم سينهض الالهة الحجريون القدامى من تحت الأنقاض المفقودة ويفركون عن عيونهم التراب الذي مضت عليه آلاف السنين ، وينتفض أخيراً ثور[٦٠] ذو المطرقة الكبيرة ويحطم الكنائس الغوطية . فإذا ما سمعتم ، أيها الفرنسيون ، لغطاً وضوضاء وصلصلة فخذوا حذركم انتم ياأبناء الجوار ولا تتدخلوا في أمور وشؤون نحن ننجزها في ألمانيا . فقد لا يكون في وسعكم أن تتحملوا ذلك . واحذروا من أن تضرموا النار أو أن تطفئوها . فمن السهل أن يحرق اللهب أصابعكم . لا تبتسموا مستخفين بنصيحتي ، التي هي نصيحة حالم يحذركم من اتباع كانط وفيشته وفلاسفة الطبيعة . لا تسخروا من واهم يتوقع في عالم الظواهر نفس الثورة التي حدثت في عالم الفكر . فالفكرة تسبق الفعل كما يسبق البرق الرعد . فالرعد الألماني هو في الحقيقة ألماني وليس مرناً جداً ويأتي هزيمه بطيئاً بعض الشيء . لكنه آتٍ لا محالة . وإذا ما سمعتموه يدوّي على نحو لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم فاعلموا ، إذاً ، أن الرعد الألماني قد حقق هدفه أخيراً . وعند حدوث هذا الصوت ستهوي العقبان من الجو ميتة وستعض أسود الفيافي النائية في أفريقيا أذنابها وستتوارى في عرائنها الملكية . وستعرض في ألمانيا تمثيلية لا ترغب الثورة الفرنسية أن تظهر حيالها إلا على أنها انشودة رعوية بسيطة هادئة . والحق أن الجو الآن هادئ بعض الشيء . فإذا تصرف بعضهم هناك تصرفاً ينم عن حيوية ونشاط فلا تظنوا أن هؤلاء سيظهرون ذات يوم على الخشبة بمظهر الممثلين الحقيقيين . وليس في الحلبات الخالية إلا الكلاب الصغيرة التي تدور وتتنابح وتتعاضض قبل أن تحين الساعة التي يصل فيها إلى هذا المكان جموع الذين ينبغي عليهم أن يقاتلوا قتالاً عنيفاً مميتاً .

وستأتي الساعة . وكما هي الحال في مسرح مدرج ستتجمع الشعوب حول ألمانيا لتشاهد ألعاب المبارزة الكبيرة . وإني انصحكم ، أيها الفرنسيون ، بأن تلزموا الهدوء عندئذ . وإياكم أن تصفقوا مهما كانت الاسباب . وإنه لمن السهل علينا أن نسيء فهمكم . وقد ننبهكم بطريقة فظة نابعة من طبيعتنا الفظة الغليظة لتكونوا هادئين . فإذا سبق لنا أن تمكنا من أن نتغلب عليكم أحياناً ونحن في حالة من التبرم الخانع الذليل فإننا لمستطيعون ذلك اكثر واكثر إذا ازدهتنا نشوة الحرية . وإنكم انفسكم لتعرفون ما يمكن أن يفعله المرء في هذه الحالة . وأنتم لم تعودوا في مثل هذه الحالة . وعلى هذا فأنا أقول لكم الحقيقة المرة . وعليكم أن تخشوا ألمانيا المتحررة اكثر مما تخشون الحلف المقدس كله ومعه الكرواتيون والقوزاقيون . إذ أن المرء لا يطيقكم في ألمانيا . وهذا أمر يكاد يكون غير مفهوم ، لأنكم في الحقيقة لطفاء في غاية من اللطف . وانكم بذلتم قصارى جهدكم لأن تعجبوا نصف الشعب الألماني ، نصفه الأجمل والأفضل ، حين كنتم في ألمانيا . وإذا كان هذا النصف قد أحبكم أيضاً فإن النصف الآخر هو الذي لا يحمل سلاحاً ؛ وعلى هذا فإن صداقته لا تنفعكم إلا قليلاً . وإن الشيء الذي يدلي به المرء ضدكم لم استطع أن افهمه أبداً . وفي احدى المرات وفي احدى حانات مدينة غوتنغين ، صرّح شاب مختص بالأدب الألماني القديم بأن على المرء أن يثأر من الفرنسيين لكونراد الشتاوفي(٦١) الذي ضربوا عنقه في مدينة نابولي . ولاشك في أنكم نسيتم هذا منذ زمن طويل . أما نحن فلم ننسَ شيئاً .

وها أنتم ترون أننا إذا رغبنا في أن نخاصمكم فستكون عندنا الأسباب الوجيهة إلى ذلك . وعلى أية حال فأنا أنصحكم إذاً بأن تأخذوا حذركم . فقد يحدث في ألمانيا الشيء الذي يحدث فيها أبداً . فقد يتوصل ولي عهد بروسيا(٦٢) أو الدكتور فيرت(٦٣) إلى سدّة الحكم . فجهزوا انفسكم بالعدة والعتاد والزموا مواقعكم والسلاح في أيديكم . فأنا ابتغي مصلحتكم . ولقد ارتعت بعض الشيء لما سمعت منذ وقت غير بعيد أن وزيركم ينوي أن يجرد فرنسا من السلاح . ولما كنتم كلاسيكيين اتباعيين بالفطرة رغم رومانسيتكم الحالية ، فأنتم لا تعرفون الأولمب . فهناك ، وفي وسط الالهة والالهات العراة الذين يلهون ويمرحون ويشربون رحيق

الالهة ويأكلون طعامهم ستشاهدون ربة ترتدي درعاً وتعتمر الخوذة وتمسك بيدها الحربة مع أنها في لهو وطرب مثل نظيراتها من الالهات الأخريات . إنها إلهة الحكمة .

٥٥
٥٥

ملحق الهوامش

آ ـ هوامش المقدمة

١) «ريفو دي دو موند» (Revue des deux mondes): مجلة نصف شهرية تأسست في باريس عام ١٨٢٩م وفتحت أبوابها للتاريخ والسياسة والأدب والفن . وفي هذه المجلة المرموقة ذات التأثير الواسع ظهر مؤلف هايني بعنوان «حول المانيا منذ عهد لوثر» وذلك في ثلاثة أجزاء في الأعداد التالية : الأول من آذار والخامس عشر من تشرين الثاني والخامس عشر من كانون الأول ١٨٣٤م .

٢) «حول تاريخ الأدب الحديث في المانيا» : كتاب ألّفه هايني في سنة ١٨٣٣م ونشره في مقالات ظهرت في المجلة الباريسية «L'Europe litteraire» ووسعه هاينى فيما بعد ونشره بعنوان : «المدرسة الرومانسية» (١٨٣٦م) .

٣) قانون المطبوعات الأجنبية» : كانت ثورة تموز الباريسية (١٨٣٠م) التي اكرهت شارل العاشر على التخلي عن العرش زعزعت النظام السياسي في الدول الأوروبية العظمى . وامتدت الحركة الثورية إلى ألمانيا وظهرت نتائجها في احتفال هامباخ في السابع والعشرين من أيار سنة ١٨٣٢م . وعلى ذلك ، وفي تموز سنة ١٨٣٢ ، وافق مجلس النواب الألماني على قانون لا يسمح بتداول الكتب والصحف الأجنبية التي يربو حجمها على العشرين صفحة إلا بعد موافقة الحكومة المحلية .

فكان هذا حائلاً دون انتشار الأفكار الجمهورية الديمقراطية أو الأفكار الاجتماعية الطوباوية .

٤) «مخافة القيصر لامخافة الله» : إشارة إلى الحذف الهائل الذي كان الناشر يوليوس كامبي قد أقدم عليه مراعاة للرقابة الحكومية .

٥) المخطوط الأصلي الضائع : ساد الاعتقاد ، كما يبدو ، بأن المخطوط ضاع لما وقعت كارثة الحريق التي دمّرت مدينة هامبورغ في أيار سنة ١٨٤٢م . على أنه تم العثور على المخطوط الاصلي فيما بعد . وهو محفوظ الآن في دار الأرشيف (السجلات والمحفوظات) الخاص بشيللر وغوته بمدينة فايمار .

٦) موليه (Molé) هو الكونت لويس ماتيو موليه (١٧٨١ ـ ١٨٥٥م) رجل دولة فرنسي محافظ تسنّم منصب رئيس وزراء من عام (١٨٣٦ ـ ١٨٣٩م) ثم كان عضواً في الجمعية الوطنية من عام ١٨٤٨ ـ ١٨٥١م .

٧): قرود طوال الذيول : إشارة إلى مشهد «مطبخ الساحرات» في مسرحية غوته «فاوست» حيث تتم عملية إعادة فاوست إلى الشباب . ويضم المشهد أفراداً . فالقردة الأم تقعد قرب القدر الموضوعة على النار وتجمع رغوة القدر وتعمل على ألا تطفح على حين يجلس القرد الأب مع صغاره على مقربة من القردة الأم ويتدفأ .

٨) مراسيم مجلس النواب ضد «ألمانيا الفتية» : في العاشر من كانون الأول سنة ١٨٣٥ منع مجلس النواب مؤلفات الكتاب الألمان الليبراليين . ومع أن هؤلاء لم يكونوا يؤلفون مجموعة موحدة فإنهم أدرجوا تحت اسم «ألمانيا الفتية» وهؤلاء هم : هاينريش هايني ، كارل غوتسكو ، هاينريش لاوبي ، لودلف فينبارغ وتيودور موند» . واتهمت هذه الجماعة بأنها معادية للدين المسيحي وملحدة وأنها تحط من شأن «الأوضاع الاجتماعية» القائمة وتسيء إليها وتخرّب التربية والأخلاق . ومع أن هايني لم يرتبط بهؤلاء الجماعة إلا في الفترة الأولى من حياته فإنه عُدَّ واحداً منها . على حين يتجاوز هو أفرادها الآخرين في الجانب الانساني والفلسفي والفني . فهو الشاعر والكاتب الذي يتميز اسلوبه بالوضوح والطرافة والظرف الساحر . وأخيراً فإن «ألمانيا الفتية» (١٨٤٨) تكونت اسوة بايطاليا الفتية ، حركة

النضال من أجل الحرية ومناهضة النمسا بقيادة غويسبي ماتزيني (المتوفي عام ١٨٧٢م) .

٩) المقصود هنا مدرسة هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١م) .

١٠) مذهب التأليه : (Deismus) هو فلسفة الدين الثورية التي نادى بها فلاسفة عصر التنوير الفرنسي (القرن الثامن عشر) . وهذا النظام لدين العقل والطبيعة آمن بإله موجود خارج مجرى الكون بقيت صفاته غير محددة ولم يعد له تأثير في سير الأحداث في الطبيعة والمجتمع . ولقد عزز هذا تحرر التجربة الانسانية من ضيق التفكير الدوغماتي (القطعي) وأثر تأثيراً كبيراً في عالم المثقفين كله في القرن الثامن عشر . على أنه بقيت أشياء غير كاملة قائمة في معالجة الدين المسيحي وتاريخ المجتمع الانساني . ومع أن فكرة الاله افرغت من محتواها لكنها لم تدمَّر . وفي أحيان كثيرة لم ينف المرء الوحي وإنْ لم يكن قد تمَّ التسليم به . وفي بعض الأحيان احتفظ المرء بصورة خيالية لاله شخصي .

١١) أنسيلم فون كانتربري (A. V. Canterbury) (١٠٣٣ ـ ١١٠٩) راهب بينديكتي انجليزي تسنَّم منصب رئيس اساقفة كانتربري في سنة ١٠٩٣ . كما أنه فيلسوف ومؤسس اللاهوت المدرسي . وضع الدليل الوجودي (الاونطولوجي) للاله الذي يفيد بأن سمة الوجود الفعلي يجب أن تكون جزءاً من فكرة الاله كأعلى وأكمل موجود يمكن التفكير به . فلو افتقد هذا الموجود إلى الوجود الفعلي لما كان اكمل الكائنات على الاطلاق .

١٢) الجدل البرليني : المقصود هو فلسفة هيجل وتلامذته من بعده . كما أن هيجل كان قد عمل في برلين من عام ١٨١٨ وحتى وفاته في عام ١٨٣١ .

١٣) روجي المتجهم : إشارة إلى ارنولد روجي A. Ruge (١٨٠٢ ـ ١٨٨٠) الصحافي الديمقراطي الليبرالي . كان محرراً لمجلة «الكتب السنوية الهالية للعلوم والفنون الالمانية (١٨٣٨ ـ ١٨٤٣) التي كانت لسان حال الهيجليين اليساريين . وفي السنة الأولى من اصدار هذه المجلة الأدبية نشر روجي مقالاً عن هايني بعنوان : هاينريش هايني ، خصائصه وميزاته من خلال مؤلفاته» . وفي عام ١٨٤٤

اصدر «الكتب السنوية الفرنسية الألمانية» بالتعاون مع كارل ماركس . وفي نهاية كانون الأول ١٨٤٣ مهد في باريس للقاء هايني بماركس وتعارفهما .

١٤) نبوخذ نصر أشهر الملوك الكلدانيين على الاطلاق . بنى مدينة بابل وقضى على مملكة يهوذا وحكم ثلاثة وأربعين عاماً (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م) . والمقصود هنا «بسقوطه المفاجىء» ماجاء في العهد القديم في سفر دانيال حيث إن الاصحاح الرابع من السفر المذكور يطالعنا بقصة الحلم الذي رآه نبوخذ نصر وبتفسير هذا الحلم وهو أن هذا الملك المتجبر المتكبر سيفقد ملكه وسيهيم على وجهه منبوذاً وسيأكل من أعشاب البرية كالثيران وسينام في العراء . ويتحقق الحلم ، على حد الرواية . ويبقى الملك على هذه الحال إلى أن يثوب إلى رشده ويتواضع ويخشع .

١٥) فيورباخ : هو لودفيغ فيورباخ L. Feuerbach (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢م) آخر ممثلي الفلسفة الكلاسيكية الألمانية . ديمقراطي ثوري انخرط في وقت متأخر في الحزب الديمقراطي الاشتراكي . أهم مؤلفاته : جوهر المسيحية (١٨٤١) . فهذا الكتاب والالحاد الذي تخلله مهدا للانتقال إلى المذهب المادي الفلسفي المنطقي وألغيا فلسفة هيجل الدينية ومذهبها في وحدة الوجود .

١٦) داومر : هو غيورغ فريدريش داومر G. F. Daumer (١٨٠٠ ـ ١٨٧٥) كاتب ألماني وفيلسوف دين . مؤلف كتاب «مذهب العصر الجديد» (١٨٥٠) ألف في الثلاثينات من القرن التاسع عشر عدداً من الكتب المعادية للدين المسيحي . على أنه اعتنق منذ نهاية الخمسينات مذهباً كاثوليكياً مؤيداً لسيادة البابا المطلقة .

١٧) باور : هو برونو باور B. Bauer (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) كاتب صحافي من اتباع هيجل الشباب ومؤرخ دين . ألف أول الكتب العلمية المختصة بتاريخ المسيحية وذات الاتجاه المعادي للكنيسة . هاجمه ماركس وانجلز هجوماً عنيفاً في «الأسرة المقدسة» بسبب موقفه المثالي الطوباوي .

١٨) هينجستينبيرغ : هو ارنست فيلهيلم هينجستينبيرغ E. W. Hengstenberg (١٨٠٢ ـ ١٨٦٩) لاهوتي بروتستانتي في جامعة برلين . دافع على صفحات مجلته «الصحيفة الكنسية الانجيلية» التي أسسها في عام ١٨٢٧ عن مذهب البروتستانت الأرثوذكسي امام كل المؤثرات الهيجلية العقلانية . ويصنف

هايني هينجستينبيرغ الأرثوذكسي المتعصب في صفوف الهيجليين الشباب الملحدين بنية تنطوي على السخرية والمزاح .

١٩) هوية الوجود والمعرفة أو العلم : إشارة إلى سلسلة الأفكار في «ظاهريات الروح» عند هيجل حيث يبدأ الفكر بالذات وينتقل تدريجياً حتى يصل إلى الروح المطلقة أو المعرفة المطلقة التي تعني الوصول إلى الوجود نفسه . وعندها يصبح العلم هو الذات وتدرك الروح نفسها على أن لها وجودها المباشر .

٢٠) «الرومانسيرو» «Romanzero»: يقصد هايني هنا كلمة الختام لديوان قصائده «رومانسيرو (١٨٥١) . أما الاعترافات الدينية التي يدلي بها هايني في هذه الخاتمة فإنها لا تخلو من روح الدعابة الساخرة . لكنه يؤكد على أن آراءه ومعتقداته الدينية لا تزال خالصة من كل ماله علاقة بالكنيسة .

انظر : هاينريش هايني : هايني : المؤلفات الكاملة : المجلد الثالث ، ص ١٧١ ـ ١٧٧ . دار نشر كيندلر . (الناشر : هانز كاوفمان) ، ميونيخ ١٩٦٤ .

٢١) «كما أبصر شاول نوراً» : إشارة إلى قصة شاول (القديس بولس) الذي اضطهد المسيحيين في بداية الأمر وعمل على الايقاع بتلاميذ السيد المسيح وإبادة الداعين باسم المسيح . ثم ارتد أخيراً على طريق دمشق وصار يدعو في المجامع بأن يسوع هو ابن الله .. «وفيما هو منطلق وقد قرب من دمشق أبرق حوله نور من السماء/ فسقط على الأرض وسمع صوتاً يقول له شاول شاول لمَ تضطهدني/ انظر : الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، أعمال الرسل (لوقا) ، الفصل التاسع .

٢٢) الحمارة التي فتحت فاها فجأة : إشارة إلى القصة التي نقلها العهد القديم في سفر موسى الرابع في الاصحاح الثاني والعشرين ، آية ٢١ ومابعد . وتذكر الرواية أن بلعام هو رسول بَلك ، ملك مؤاب ، ليلعن بني اسرائيل . وكان قد ركب حمارة فظهر ملاك وقد جرّد سيفاً بيده . فما كان من الحمارة إلا أن تحولت عن سيرها ووبخت بلعام على قساوته . فعدل بلعام عن موقفه وبارك بني اسرائيل .

٢٣) «يهود تلك البلد .. الذين أكلوا رهباناً كبوشيين» : إشارة إلى حادثة القتل التي وقعت في مدينة حلب عام ١٨٤٠ وذهب ضحيتها راهب كبوشي كان

يقيم في المدينة منذ سنوات . وحمّل المرء اليهود تبعة ذلك لأنهم ، أي اليهود ، يستخدمون ، كما يقال ، دماً مسيحياً في طقوسهم الدينية وذلك تمشياً مع ايمان شعبي قديم . ويسخر هايني من هذه القصة ويرى أن الاتهام لم يكن آنذاك إلا ذريعة للنيل من يهود سوريا .

٢٤) «شبه انف حبيبته ببرج ...» : انظر : العهد القديم ، نشيد الانشاد لسليمان ، الفصل السابع ، البيت الرابع .

٢٥) حريق الهيكل الثاني : في عام (٦٦م) اندلعت في اقليم يهوذا ثورة عارمة على الحكم الروماني استمرت اربع سنوات . فاستلم تيطوس فلافيوس ويسبسيان الذي صار فيما بعد امبراطوراً (٣٩ ـ ٨١م) قيادة الجيوش الرومانية في فلسطين ليسحق الثورة في يهوذا . وتمكن هذا القائد من سحق الثورة ودخل اورشليم في عام ٧٠م . وأمر بإحراق الهيكل الذي كان آخر معقل للمقاومة . وكان هذا الهيكل قد بني في عهد الملك سليمان بن داود في نحو ٩٥٠ ق . م وذلك في المكان الذي كان يضمّ المعبد الذي هدمه نبوخذ نصر الذي قضى على مملكة يهوذا في عام ٥٨٦ ق . م (السبي الثاني) .

٢٦) فيلاديلفوس : هو بطليموس الثاني (٢٨٥ ـ ٢٤٦ ق.م) ملك مكدوني في مصر شجع الفن والعلوم .

٢٧) مجموعة الأمثال والحكم باللغة العبرية لمؤلفها يسوس سيراخ (نحو ١٩٠ ق.م) ترجمت إلى اليونانية في عام ١٣٢ ق.م .

***

١)«فهم ألمانيا» : يقصد هايني هنا في المقام الأول كتاب مدام دي ستال (١٧٦٦ ـ ١٨١٧) الكاتبة الفرنسية السويسرية حيث كان لكتابها «عن ألمانيا» دور الوسيط في نقل الفكر الألماني إلى فرنسا ، كما أثر عشرات السنين تأثيراً كبيراً في صورة ألمانيا لدى رجال الفكر الفرنسي . وكتابها «عن ألمانيا» ظهر في طبعة جديدة في لندن سنة ١٨١٣ بعد أن كان نابليون قد أمر بمصادرة الطبعة الأولى واعدامها في سنة ١٨١٠ . وبعد وصول هايني إلى باريس (١٨٣١) يصبح شغله الشاغل مهاجمة كتاب مدام دي ستال البعيد الأثر الواسع النفوذ ذلـك لأنها كانت قد أطرت على المدرسة الرومانسية وأشادت بها على حين لم يجد هايني في الرومانسية إلا «كومة من الديدان التي يحسن صياد روما المقدس استخدامها ليغري بها النفوس» .

٢) تعابير لغة مدرسية : إشارة إلى مصطلحات المذهب المثالي الألماني التي صيغت بصورة خاصة في مؤلفات الفيلسوف الكانطي الجديد كارل كريستيان كراوزه (١٧٨١ ـ ١٨٣٢) حيث ابتكر عبارات جديدة لحقائق فلسفية معينة .

٣) «الميتافيزيقيا أو مابعد الطبيعة» : استعملت هذه اللفظة في الأصل لكل مبحث فلسفي كان موضوعه الأساسي السؤال عن ماهية الوجود أو الواقع الفعلي . وعلى هذا النحو يصطنع هايني هذا اللفظ . ولقد ظهر هذا في أثناء تركيب مؤلفات أرسطو وتبويبها حيث تأتي فيها «الحكمة» أو «الفلسفة الأولى» ؛ أي «مابعد الطبيعيات» ، في الترتيب بعد المباحث المتعلقة بالعلوم الطبيعية .

٤) فولتير : هو فرنسوا ماري أروى المدعو فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) كان المنظم لحركة التنوير الفرنسية وأحد كتابها الفعالين . ومع أنه لم يكن فيلسوفاً بارزاً ، إلا أنه ساهم مساهمة فعالة في القضاء على التغرضات الدينية عن طريق مؤلفاته . وكان له ولرجال عصر التنوير الفرنسيين دورهم الحاسم في تقويض دعائم

التحالف القائم بين الكنيسة والحكم الاستبدادي المطلق . وفي هذا الجانب يمكن أن يعدَّ فولتير ممهداً للثورة الفرنسية .

٥) سانسون : هو شارلز هنري سانسون Charles- Henri Sanson (١٧٤٠ ـ ١٧٩٣) . منذ عام ١٧٧٨ جلّاد مدينة باريس الذي شارك في اعدام لودفيغ السادس عشر . في عام ١٧٩٣ آلت وظيفة الجلاد إلى ابنه هنري سانسون (١٧٦٧ ـ ١٨٤٠) .

٦) معجم السهام الفلسفية : إلماع إلى كتاب فولتير «المعجم الفلسفي» (١٧٦٤م) .

٧) بارونيوس : هو سيزار بارونيوس Caesar Baronius (١٥٣٨ ـ ١٦٠٧) مؤرخ كنسي كاثوليكي ومؤلف «تاريخ الكنيسة بدءاً من ميلاد السيد المسيح وحتى عام ١١٩٨) الذي ظهر مابين عام ١٥٨٨ وعام ١٥٩٣ .

٨) شروك : هو يوهان ميخائيل شروك J. M. Schrockh (١٧٣٣ ـ ١٨٠٨) مؤرخ كنسي بروتستانتي واستاذ التاريخ وفن الشعر في مدينة فينبيرغ Wittenberg. ألف كتاب «تاريخ الكنيسة المسيحية» (١٧٦٨ ـ ١٧٩٢) .

٩) مجموعة مانسي : نسبة إلى المؤرخ الكنسي الايطالي جيوفاني دومينيكو مانسي Mansi (١٦٩٢ ـ ١٧٦٩) الذي أصدر مجموعة شاملة تضم قرارات المجامع في العصور الوسطى بدءاً من عام ١٧٥٩ .

١٠) مجموعة القوانين الاسيمانية : نسبة إلى المستشرق يوسف الويس أسيماني Assemani (١٧١٠ ـ ١٧٨٢): الذي أصدر منذ عام ١٧٤٩ وإلى عام ١٧٦٦ ثلاثة عشر مجلداً تشتمل على قواعد واحكام العبادات الكاثوليكية .

١١) ساكارللي : (Saccharelli) ظهر كتابه : «تاريخ الكنيسة بحسب التسلسل الزمني» بدءاً من عام ١٧٧٠م .

١٢) السفسطة أو السفسطائية اليونانية القديمة : يصطنع هايني هذا اللفظ بالمفهوم الذي وصف به ارسطو سقوط مذهب الحكمة «السفسطائية» في فن البرهان أو الدليل الصوري الوهمي الذي يحاول أن يعكس بكثير من الفصاحة وحسن البيان فن نتائجه واستنتاجاته العقلية .

١٣) مبدأ القضايا الفردية : يشير هايني إلى مجموعة القوانين الرومانية وإلى تفسيراتها التي كان اطلع عليها في أثناء دراسته للحقوق . وهي الطريقة التي اعتمدها القانون الروماني القديم للحكم في قضايا وفق الوقائع المنطبقة عليها وحدها باعتبارها قضايا فردية ، ليس غير ، على حين تطبق احكام القانون على هذه القضية الفردية بصورة معدّلة بعيداً عن التطبيق اليقيني القطعي .

١٤) كما اختلف المرء في القسطنطينية حول اللوجوس : يرجع لفظ لوجوس إلى اليونانية ويعني : الكلمة أو الفكرة أو العقل . وترمز هذه الكلمة في الاصل إلى مبدأ الوجود كله في الفلسفة اليونانية . ثم إن المسيحية انطلقت من هذا المفهوم ، ولاسيما في مؤلفات العالم فيلون (٢٠ ق.م ـ ٥٤م) وفهمت اللوغوس على أنه وسيط بين الاله المتعالي (الترنسيندالي) وبين العالم المادي وعدّت المسيح أخيراً وكما ورد في انجيل يوحنا بأنه الكلمة التي صارت جسداً (بشراً) ، ونشأ عن ذلك عقيدة الوهية المسيح التي اختلف فيها الآباء الكنسيون منذ القرن الرابع الميلادي . فنادى أتاناسيوس بأن الله (الآب) والمسيح متساويان في الطبيعة والذات والجوهر ، أي أنهما واحد ، على حين لا يعترف اتباع آريوس إلا بوجود تشابه بينهما ، ليس غير . ولم يقف المرء عند هذا الحد ، بل إنه عاد ، فيما بعد ، ليثير الجدل حول مسألة طبيعة المسيح الالهية الناسوتية . كما تجادل المرء في أثناء ذلك فيما إذا كان ينبغي أن تسمى مريم والدة الرب أم والدة الانسان . ولقد كان هذا الجدل دافعاً إلى النزاع السياسي الكنسي بين بطريرك الاسكندرية كوريلوس (المتوفي سنة ٤٤٤م) وبين بطريرك القسطنطينية نسطور (المتوفي سنة ٤٥٠م) . وقد كان نسطور القسطنطيني قد أقر بأمومة مريم للمسيح الانسان . وعلى هذا استطاع كوريلوس الاسكندري من انزال اللعنة على نسطور القسطنطيني وحرمانه في المجمع الافسي (سنة ٤٣١م) . وتدخل في هذا النزاع كل من الامبراطورة البيزنطية اويدوفسيا (٤٠٠ ـ ٤٦٠م) زوجة اركاديوس ، امبراطور الشرق ، وايليا بولخيريا (٣٩٩ ـ ٤٥٣) . كما انه كان للخصي شولاستيكوس ، مستشار القيصر تيودسيوس الثاني ، دور مهم في ذلك أيضاً .

١٥) ولما سقطت كتائبها ..» يقتبس هايني من كتابه «صور الرحلات . بحر الشمال» (١٨٢٦) . انظر : مؤلفات هايني الكاملة ، المجلد الخامس ص ٧٩ ، دار نشر كندلر ١٩٦٤ .

١٦) قرارات ايزيدور : زعموا أن رجلاً يدعى ايزيدور ميركاتور كان قد أعدّ مجموعة القرارات والمراسيم البابوية المزيفة . ومع أن هذه القرارات كانت غير صحيحة فقد اعترف بها البابوات وأقروها على أنها أساس قانوني . واحدى نتائج هذه القرارات المخولة إلى ايزيدور هو النزاع حول سلطة البابا الدنيوية أو مايسمى بالنزاع حول تقليد المناصب أو الوظائف الدينية لرجال الكنيسة ، هذا النزاع الذي حسم بين القياصرة الألمان والبابوات وهو أنه ليس للحاكم السياسي (القيصر) الحق في أن يعين الاساقفة أو يقلد أحداً من رجال الدين وظيفة دينية . وكان ذلك في المجمع الديني الذي انعقد سنة ١٠٧٥م برئاسة البابا جريجوري السابع .

١٧) المانوية والغنوصية : مذهب الغنوصية (Gnosis) أي العرفان وهو المذهب الذي رمى إلى تعميق الايمان بواسطة المعرفة وأراد أن يجعل الدين يتحول إلى فلسفة . ولقد ظهر هذا المذهب في القرن الثاني على أثر امتزاج اديان الشرق القديم بالفلسفة اليونانية . ولقد فهم اتباع المذهب العرفاني طبيعة الكون وجوهره بأنها ثنوية أو إثنينية صارمة لالوهية خالصة نقية خيرة ولمادة موصومة بأوصاف الشر . فالعالم المادي لم يخلقه الاله نفسه وإنما صانع مبدع يفهمه اتباع هذا المذهب على أنه فيض الالوهية الخيرة في ذاتها . وبظهور المسيح يبدأ خلاص الانسانية ونجاتها ، كما يعتقد اتباع المذهب الغنوصي . كما أن المسيح يعدُّ ثنوية ذات مظهر انساني بشري (طبيعة انسانية) ودهر آلوهي وسيط بين الله والكون . وهذا يعني أن للمسيح طبيعتين : انسانية والوهية . وطالب الغنوصيون بتقشف صارم لكي يضمنوا خلاص الروح من ثنوية الخير والشر . ويعد كيرنثوس (١٠٠م) أول الغنوصيين .

أما المانوية فتنسب إلى ماني (القرن الثالث) مؤسس الدين الفارسي . ولقد تبنت المانوية بعض العناصر الغنوصية الأمر الذي جعل الثنوية تظهر على أنها تضاد بين العنصرين الأساسيين عنصر النور وعنصر الظلمة . على أن المهم في هذا

كله هو الأثر الذي أحدثته هذه الفكرة في اوغسطين وحركة النحل والمذاهب في العصور الوسطى .

١٨) الوجود الأولي القبلي لمبدأ الخير : رأى الغنوصيون في الاله كائناً موجوداً منذ الأزل .

١٩) «وعلى هذه الأرض أود أن أؤسس السعادة» : هنا يظهر هايني بأنه تبنى افكاراً تتعلق بالاشتراكية الطوباوية كما كان تعلمها هو في وسط تلامذة سان سيمون .

٢٠) قصة عندليب مدينة بازل : إن المصدر الذي اعتمده هايني في نقل هذه القصة هو كتاب لودفيغ فرديناند فون دوبينيك حول : «معتقدات العصور الوسطى الخرافية وقصص ابطالها . وكان جان باول ، الشاعر الألماني الرومانسي (١٧٦٣ ـ ١٨٢٥) قد نشره في عام ١٨١٥ .

٢١) عهد المجمع : هو مجمع مدينة بازل (Basel) (١٤٣١ ـ ١٤٤٩م) الذي كان حاسماً بالنسبة لحركة الاصلاح في الكنيسة الكاثوليكية .

٢٢) توما الاكويني : (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) فيلسوف مدرسي ولاهوتي . حاول أن يربط فلسفة ارسطو بالتعاليم المسيحية . وأثر مذهبه تأثيراً كبيراً في علم اللاهوت الكاثوليكي .

٢٣) بونافينتورا : هو يوهانيس فيدانسا المسمى بونافينتورا (١٢٢١ ـ ١٢٧٤م) فيلسوف مدرسي متصوف ومعلم كنسي . رئيس عام رهبنة الفرنسيسكان . عارض النزعات المادية في مؤلفات ارسطو . وهو من الفلاسفة الذين يذهبون إلى أن الخلق من عدم والله ليس في زمان وليس هناك زمان قبل العالم .

٢٤) أي ، فينوس ، ياحسنائي الجميلة : اقتباس من الأغنية القديمة عن طانهويزر Tannhauser (نحو ١٢٠٥ ـ ١٢٧٠) الذي تقترن حياته المليئة بالمغامرات بحكاية جبل فينوس الاسطورية .

٢٥) تبديل الايمان الشعبي القديم : الحق أن موضوع اضفاء الروح الشيطانية على الهة العصر الوثني القديم من طريق المسيحية موضوع شغل هايني

مرة أخرى فعالجه معالجة مسهبة في أحد مؤلفاته بعنوان : «الآلهة في المهجر» (١٨٥٤م) .

٢٦) الروح الفرنسي المتسم بالصفاء والبشاشة : هنا ينتقل هايني بأفكاره الى ملاحم الشمال الفرنسي وأساطيره وقصص أبطاله التي تتسم بعامة بالسمة الواقعية .

٢٧) انواع منوعة من الأرواح العنصرية : كتب هايني مقالاً طويلاً حول «الأرواح العنصرية في الايمان الشعبي» (١٨٣٧م) .

٢٨) من كورن ويلز وبلاد العرب : إشارة إلى أسطورة فرسان الدائرة المستديرة والملك آرتوس التي منشؤها ويلز . كما أن الصليبيين كانوا قد عادوا إلى فرنسا حاملين معهم موضوعات مشرقية من بلاد المشرق العربي .

٢٩) ميلوزين : هي جنّية البحر الجميلة في الاسطورة الفرنسية القديمة أما مورجانا فهي أخت الملك آرتوس التي تحكم في آفالون ، جزيرة الحوريات أو الجنيات الساحرات .

٣٠) موسيقا سبتية برليوزية خالصة : إن في هذا إلماعاً إلى التأثيرات الصوتية الحديثة في موسيقا هكتور بيرليوز (Hector Berlioz) (١٨٠٣ ـ ١٨٦٩) الذي كثيراً ما كتب مؤلفاته الموسيقية ليشغل عدداً كبيراً جداً من العازفين والسبتية نسبة إلى الطائفة المسيحية التي تعيّد يوم السبت .

٣١) كتاب «علم الجن والشياطين» : كان هايني قد اطلع في كتاب دوبينيك عن «المعتقدات الشعبية وأساطير الأبطال في العصور الوسطى» على موجز من كتاب «الشياطين والأرواح» للعلامة نيكولاي ريميجي Remigii (١٥٥٤ ـ ١٦٠٠) دوق اللورين الذي نشر الكتاب في عام ١٥٩٨ .

٣٢) انتروبوديموس : هو الكتاب الذي ألفه الكاتب والمؤرخ يوهانيس بريتوريوس (١٦٣٠ ـ ١٦٨٠) الذي اهتم في الغالب بالخرافات والمعتقدات الشعبية وبموضوعات ذات صلة بالتراث الشعبي . وكتابه هذا هو وصف جديد للعالم الذي يضمّ ناساً عجيبين من كل الأصناف والألوان (١٦٦٦) .

٣٣) القصة القصيرة التالية : المرجع هو أيضاً دوبينيك الذي أخذ القصة عن خطب المائدة لمارتين لوثر .

٣٤) الموضع من كتاب اخبار قديم : إشارة إلى كتاب يوهانيس تريتهايمز : «تاريخ ديرهيرشاو» .

٣٥) اندرسون : هو كاتب الحكايات الدانمركي هانز كريستيان اندرسون (١٨٠٥ ـ ١٨٧٥) الذي حلَّ في عام ١٨٣٣ في باريس حيث تعرف إلى هايني .

٣٦) ليو العاشر : اعتلى الكرسي البابوي من عام ١٥١٣ـ وحتى عام ١٥٢١ . شجع الفنون والعلوم واصدر صكوك الغفران التي حاول بها أن يجمع المال لانجاز بناء كنيسة القديس بطرس . رفع القضية الكنسية على لوثر . وأصدر قراراً بحرمانه . لكن لوثر احرق القرار علناً في العاشر من كانون الأول سنة ١٥٢٠ .

٣٧) تيتسل : هو يوهان تيتسل J. Tetzel (نحو ١٤٦٥ ـ ١٥١٩) راهب دومينيكاني قاد حملة بيع الصكوك لكي يتمكن رئيس الأساقفة ألبريشت فون ماينز من تسديد ديونه عند الفوجر (Fugger) .

٣٨) ليو العاشر الفلورنسي اللطيف .. صديق رافائيل : هو نفسه البابا ليو (حاشية رقم ٣٦) وهو ابن الأمير الفلورنسي لورنسو دي ميدتشي . وكان الشاعر انجيلو بوليسيانو (١٤٥٤ ـ ١٤٩٤) صديقاً لاسرة ميدتشي التي شجعت الحركة الفنية في عصر النهضة الايطالي . وكان ليو العاشر قد عيَّن رافائيل عام ١٥١٥ مشرفاً أعلى على أعمال بناء كنيسة القديس بطرس .

٣٩) احدى بنات الهوى المصريات : هنا يطعن هايني على البابا ليو ويجد في تدابيره لبناء الكنيسة مغمزاً إذ يستشهد بقصة ذكرها هيرودوت في الكتاب الثاني الفصل ١٣٤ .

٤٠) الروحية والحسية : Spiritualismus und Sensualismus الروحية أو مذهب الروحية هو نزعة مثالية تنظر إلى الروح أو العقل على أنه واقع حقيقي . وبذلك ترى طبيعة الوجود وجوهره في الشيء الذي هو روحي أو عقلي . وفي إمكان هذه النزعة أن تكون ثنائية الطبع أو ازدواجية الطبع . فهي لا تعترف بالعقل أو الروح

فحسب ، بل بالمادة أيضاً وأحقية العلوم التي تبحث في المادة . لا بل إنها طبقت الاستدلالات الخاصة بالفيزياء والرياضيات في ميدان المجادلات الفلسفية كما هي الحال لدى ديكارت . غير أنه في إمكانها أن تكون ذات طابع يتصف بالواحدية (Monismus) كما هي الحال لدى لايبنتز مثلاً . وهذا يعني أنها تنظر إلى المادة عند الضرورة القصوى على أنها وهم يحجب الوقائع العقلية (بركلي مثلاً !) الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى نكران الوجود الفعلي للعالم الخارجي .

أما الحسية فهو مذهب ابستمولوجي يبحث في المعرفة ويرمي إلى أن يستمد كل معرفة انسانية من الانطباعات الحسية أو من الأحاسيس . ويرى أن الأفكار ليست فطرية نابعة من الغريزة (لوك ، كوندياك) . هذا الوضع التجريبي الذي يرى أن الحقائق العقلية تنبع من التجربة كان له سهم موفور في تدمير عقلانية جامدة الأمر الذي أفسح المجال لنمو المادية الفلسفية وتطورها وانتشارها . إن مبادلة النقيض بين المذهب المثالي والمادي التي يقوم بها هايني لصالح النقيض بين المذهب الروحي والمذهب الحسي تثبت نفسها على أنها محاولة لانصاف تطور اتجاهات فلسفية حديثة إنصافاً تاريخياً . على أن هذه المحاولة تصطدم بقصور حدود المسائل الرئيسية للمادية والمثالية بحيث تذهب عبثاً .

٤١) بوسويه : هو جاك بينيه بوسويه Jacques- Bénigne Bossuet (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤) مؤرخ ولاهوتي كاثوليكي . تناول في كتابه «تاريخ تغيرات الكنيسة البروتستانتية محتوى البروتستانتية الفكري .

٤٢) ملكة نافارا : هي مارغريت فون أنجوليم (١٤٩٢ ـ ١٥٤٩) . صارت ملكة نافارا عام ١٥٢٧ وذلك بعد زواجها من ملك نافارا هنري دالبير . ألفت مجموعة من القصص (٧٢ قصة) غنية بالمضامين الفكرية الحضارية . واتخذت بوكاتشيو الايطالي (١٣١٣ـ١٣٧٥) قدوة لها في مجموعته القصصية «ديكاميرون» . ظهرت مجموعتها القصصية بعد وفاتها بسنوات ، أي في عام ١٥٥٨ .

٤٣) «طرطوف» أو المنافق : هي ملهاة ألفها موليير (١٦٢٢ ـ ١٦٧٣) عام ١٦٦٤ . ولكنها لم تبصر النور إلا في عام ١٦٦٩ إذ أنه اضطر الى تنقيحها

وتعديلها ثلاث مرات لكي يرضي الرقابة الملكية . ذلك لأن المسرحية كانت تحفل بافكار الاحتجاج والثورة . ويظهر طرطوف في المسرحية في هيئة رجل متدين . فهو يحاول أن يتجمل بسلوك المتدين مع أن علامات التدين لا تناسب وجهه ولا يمكن أن تناسبه ذلك لأن طبيعته تناقض مظهره . وهذا هو الشيء المضحك . والموضع الذي يستشهد به هايني هو في المشهد الخامس من الفصل الخامس .

٤٤) الينسينيه : Jansenismus هي حركة أو بدعة تنسب إلى كورنيليوس يانسن (١٥٨٣ ـ ١٦٣٨) أحد علماء اللاهوت الهولنديين ولقد توجهت هذه الحركة في بادىء الأمر ضد محاولة جعل الدين دنيوياً علمانياً داخل الكنيسة الكاثوليكية . وكان لاتباع هذه الحركة رأيهم الخاص في النعمة أو الرحمة والقدر حيث إن كورنيليوس يانسن عرض لذلك في كتابه «اوغسطين» الذي صدر عام ١٦٤٠ .
ولقد حاولت البابوية أن تضطهد هذه الفئة المنشقة . وفي أثناء ذلك اتسمت هذه الحركة بسمات سياسية وذلك من خلال محاكم العدل التي اكثر اتباع هذه الحركة من بنائها لكي يحدوا من نفوذ الحكم الاستبدادي المطلق ومن انتشار هذا النفوذ .

٤٥) الجزويت أو اليسوعية : يشير هايني إلى مناقشة الجزويت لمسألة الأخلاق بصورة خاصة . وبناء على هذه المناقشة يختار المرء من بين شرّين اثنين أخفَّ هذين الشرين . وإلى جانب اختيار اتباع الينسينية للنعمة التي يرسمها القدر يكون لمثل هذه الاعتبارات قربها الأكبر من الحياة الدنيا .

٤٦) المنهجيون : (Methodisten) هم اتباع الحركة الاصلاحية التقوية داخل البروتستانتية الانجليزية . وقد انفصلت هذه الحركة عن الكنيسة الانجليكانية وصار لها نفوذها في القارة . قاد هذه الحركة في اوكسفورد تشارلز وجون ويزلي (١٧٢٩م) .

٤٧) يان فان لايدن : Jan van Leiden يوهان فان لايدن هو في الحقيقة يوهان بوكلزون Bockelson أو يان بويكلزون Beukelszoon (١٥٠٩ ـ ١٥٣٦) هو زعيم الحركة التي نادت بتجديد العماد أو المعمودية بالنسبة للبالغين وانكرت ايضاً قيمة التعميد بالنسبة للأطفال . ظهرت في اثناء فترة الاصلاح الديني . في عام

١٥٣٤/١٥٣٥ حاولت أن تؤسس في مدينة مونستر بالمانيا نظاماً شيوعياً مغرقاً في الوهم والغرابة ينادي بتعدد الزوجات . وفي عام ١٥٣٥ تم اقتحام مدينة مونستر واعملت الكاثوليكية السيف في ارقاب اتباع هذه الحركة وحوّلت المدينة إلى حمامات من الدم .

٤٨) الصالة الملكية بمدينة فورمز (Worms): يصف هايني ماجرى من أمور في أول مجمع امبراطوري في مدينة فورمز حيث تم لقاء لوثر بالامبراطور الشاب كارل الخامس عام ١٥٢١ . وحين مثل لوثر أمام الامبراطور والأمراء الألمان لم يتراجع عن آرائه التي نادى بها من قبل الأمر الذي جعل الامبراطور يصدر مرسوماً يجعل من لوثر خارجاً على القانون . أما ممثل البابا فقد كان الدبلوماسي والانساني هيرونيموس إلياندر H. Aleander (١٤٨٠ ـ ١٥٤٦) الذي كان له سهم موفور في إدانة لوثر وحرمانه من حماية الكنيسة والقانون .

٤٩) لوثر : لم يكن هايني الرجل الوحيد الذي قدّر مارتين لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) في مطلع القرن التاسع عشر حق التقدير . فلقد نظرت الأوساط الفكرية الألمانية الليبرالية والبروتستانتية إلى حركة الاصلاح الديني على أنها حدث ثوري وأن لوثر هو الممثل لهذه الثورة . وعلى هذا ظهرت مسرحيات لوثرية من مثل مسرحية زاخرياس فيرنر (١٧٦٦ ـ ١٨٢٣) بعنوان : مارتين لوثر أو تقديس القوة» . كما أقيمت انصاب تذكارية تمثل لوثر . وتطالعنا صورة لوثر في تاريخ الأدب ، قديمه وحديثه ، مشرقة ناصعة . حتى إن مؤرخاً أدبياً من مثل غيرفينوس (١٨٠٥ ـ ١٨٧١) مؤلف «تاريخ الأدب القومي للألمان» تمنى أن ينجب التاريخ شخصية كشخصية لوثر لكي ترتب الأوضاع السياسية في المانيا ترتيباً جيداً .

٥٠) يونغ شتيلنغ : هو يوهان هاينريش يونغ شتيلنغ J. H. Jung- Stilling (١٧٤٠ ـ ١٨١٧) أحد مشاهير اطباء العيون في عصره . كان قد نشر في عام ١٨٠٧ «نظرية علم الأرواح والأشباح ، كما نشر في عام ١٨٠٩ «دفاع» يقرّ فيه بالتدين الصوفي ويعلن اعتقاده به .

٥١) ايراسموس : هو ايراسموس فون روتردام (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦) أهم ممثلي الحركة الانسانية في اوربا . انتقد بعنف مظاهر الانحطاط في الكنيسة الكاثوليكية .

٥٢) ميلانكتون : هو فيليب ميلانكتون Philipp Melanchthan (١٤٩٧ ـ ١٥٦٠) لاهوتي وإنساني ورفيق لوثر في الكفاح . جاهد لكي يوفق بين الحركة الانسانية والحركة اللوثرية .

٥٣) بونيفاس : هو لقب المبشر الانجلو سكسوني فينفريد Winfried (نحو ٦٧٥ ـ ٧٥٤) والمسمى «رسول الالمان» . عمل منظماً كنسياً في مقاطعة تورينغين ثم في هيسين وفريزلاند وكان على اتصال وثيق بالفاتيكان ونجح في أن يضع زمام الكنيسة الالمانية في يد البابا .

٥٤) بوسكو : هو بارتولوميو بوسكو B.Bosco (١٧٩٣ ـ ١٨٦٣) مشعوذ شهير . اصبح منذ عام ١٨١٤ محط الاهتمام في عدد كبير من الدول الأوروبية .

٥٥) «السان سيمونية التي كانت أحدث مذهب» : السان سيمونية نسبة إلى الفيلسوف الاجتماعي كلود هنري دو روفروا الملقب بالكونت دو سان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) الذي نادى بالاصلاح اقتصادي واجتماعي واصبح أهم ممثل لما يسمى بالاشتراكية الخيالية (الاوطوبية) التي كانت ترمي إلى تخفيف الفوارق الطبقية التي ادركها سان سيمون بالاضافة إلى التوزيع الظالم للملكية وذلك عن طريق استخدام رأس المال واستثماره بروح من المسؤولية . ولقد نادى السان سيمونيون «بمذهب جديد» أو «دين جديد» . وشكلوا ضرباً من الطائفة الدينية . وفي اثناء ذلك كان للفكرة المستقاة من الاوطوبيا الصوفية الملحدة التي وضعها يواخيم فون فيوري (نحو ١٢٠٠م) دور بأنه سيأتي بعد العهدين ، القديم والجديد ، اللذين استجاب لهما العصران ، عصر ماقبل المسيحية والمسيحية ، انجيل ثالث وعصر ثالث ملائم هو عصر المحبة ، والعقل الحر» . وسيأتي مستقبل لا أسياد فيه ولا ملكيات ، بل سيأتي دين مسيحي جديد تسوده المحبة الأخوية والايثار والأعمال الخيرية . وكان هايني على صلة وثيقة بالسان سيمونية في بداية الثلاثينات من القرن التاسع عشر .

٥٦) بيير اولاند : Père Olinde هو المصرفي الفرنسي بنجامين اولاند رودريك (١٧٩٤ ـ ١٨٥١) الذي كان أوفى اتباع السان سيمونية . إذ سخر رودريك ثروته التي اكتسبها من طريق المضاربة في سبيل الدعاية لافكار السان سيمونية ونشرها .

٥٧) قاعة تيبو : هو المكان الذي كان السان سيمونيون يلتقون فيه .

٥٨) الرواقيون القدامى : اشارة الى المدرسة الرواقية القديمة التي أنشأها زينون في نحو ٣٠٠ ق.م وكانت تنظر إلى المعرفة الاخلاقية والشجاعة والتبصر والعدالة على أنها فضائل رئيسة .

٥٩) حتى الغزو الفرنسي : الظاهر أن هايني يريد أن يشير إلى احتلال الجيوش النابليونية لاجزاء كبيرة من المانيا في العقد الأول من القرن التاسع عشر .

٦٠) مركيز فون براندينبورغ : المقصود هنا هو فريدريش الثاني البروسي (١٧٤٠ ـ ١٧٨٦) الذي اقتصر تسامحه على مسائل دينية . ولعل هايني يفكر بالخطوة التي اقدم عليها فريدريش الثاني الكبير حين استدعى الفيلسوف العقلاني المطرود كريستيان فولف (١٦٧٩ ـ ١٧٥٤) من جديد إلى جامعة هاللي وذلك إثر اعتلائه العرش عام ١٧٤٠م .

٦١) حامي حريتنا الفكرية البروتستانتية : المقصود هنا هو فريدريش فيلهلم الثالث البروسي (١٧٩٧ ـ ١٨٤٠) الذي مارس سياسة رجعية بعد سقوط نابليون ١٨١٥م .

٦٢) آل روتشيلد : هي أسرة المصرفيين اليهود التي كانت تقيم في مدينة فرانكفورت على نهر الماين . وكان لمصرفها المركزي فروعه القوية النفوذ في كل من لندن وباريس وفيينا ونابولي وكان يديرها ابناء المؤسس لهذا المصرف .

٦٣) هوفمان : هو فريدريش لودفيغ هوفمان (١٧٩٠ ـ ١٨٧١) محام وكاتب صحفي في مدينة هامبورغ . من عام ١٨٢٢ وإلى عام ١٨٤٨ كان المسؤول عن رقابة المطبوعات وغيرها في المدينة .

٦٤) الشباب المتحمس لمصالح الحرية : يشير هايني إلى الحركة التحررية بين عام ١٨١٣ و ١٨٣٢ ففي عام ١٨١٧ حدث احتفال الطلاب الالمان في فارتبورغ

وفي عام ١٨٣٢ حدث احتفال هولباخ . ودافع الطلبة في اثناء ذلك عن حركة التحرر الالمانية وأيدوا في الوقت نفسه الأفكار والمبادىء التي تربط الشعوب إلى بعضها البعض وحملوا معهم العلم الذي ضم الألوان الثلاثة : الأسود والأحمر والذهبي إلى جانب علم بولنده المغلوبة على أمرها والتي حاولت أن تتحرر من حكم روسيا القيصرية لتعيد بناء بولنده الكبرى فقامت الثورة فيها ؛ لكنها قمعت وتم اعلان بولنده اقليماً تابعاً لروسيا القيصرية الأمر الذي دفع الكثير من البولنديين الى الهجرة إلى باريس . وكان من بين هؤلاء المهاجرين الموسيقي الشهير شوبان .

٦٥) الفولكاتا (Vulgata): هي أقدم ترجمة لاتينية للكتاب المقدس ، العهد القديم والعهد الجديد . أما الترجمة السبعينية (Septuaginta) فهي اقدم ترجمة يونانية للعهد القديم .

٦٦) رويشلين : هو الانساني يوهان رويشلين (١٤٥٥ ـ ١٥٢٢) ابدى رأيه في مسألة حرق المؤلفات اليهودية فنادى بضرورة صيانتها مما جعله يدخل في نزاع وخصومة مع دومينيكان مدينة كولونيا . ولقد كان رويشلين خير من يعرف العبرية . وقد كان نشر في عام ١٥٠٦ كتابه في قواعد اللغة العبرية الذي يعدّ من أمهات الكتب .

٦٧) هوغشتريتين : هو ياغوب فان هوغشتريتين J. V. Hoogstraeten (نحو ١٤٦٠ ـ ١٥٢٧) دومينيكاني متعصب . منذ عام ١٥٠٨ أوكلت إليه مهام قاضي البابوية للبت في قضايا الهرطقة في مدينة كولونيا وماينزوترير .

٦٨) هوتين .. في رسائله عن اعداء التنوير : أولريش فون هوتين Ulrich von Hutten (١٤٨٨ ـ ١٥٢٣) توجّه القيصر ماكسيميليان شاعراً . زج نفسه في النزاع الذي كان قائماً بين رويشلين ودومينيكان كولونيا (حاشية ٦٦) برسائله التي ألفها هو وعلماء انسانيون آخرون وذلك في الفترة الواقعة بين ١٥١٥ ـ ١٥١٧ . وهذه الرسائل هي هجاء رائع في المتعصبين الكولونيين .

٦٩) اقتباس من رسالة وجهها لونز إلى العلامة رويشلين في الرابع عشر من كانون الأول ١٥١٨ .

٧٠) اللغة التي يتكلمها الناس في ساكسونيا الحالية : خلافاً لعرض هايني وروايته فإن لغة لوثر اتكأت في الأصل على اللهجة الألمانية المايسنية (نسبة إلى مدينة مايسن في مقاطعة ساكسونيا!) على نحو ماكانت تكتب هذه اللغة في الدواوين بخاصة . وبفضل لوثر سادت اللهجة الألمانية المايسنية قرنين من الزمن . حتى إن الباحث اللغوي والمعجمي يوهان كريستوف آديلونغ J. CH. Adelung (١٧٣٢ ـ ١٨٠٦) اثنى على اللهجة الساكسونية . ولاسيما لهجة مايسن ، ويمنحها الاولوية على اللهجات الأخرى . وبذلك حسب حساباً لمكانة لايبزيغ الرئيسية في الحياة الثقافية .

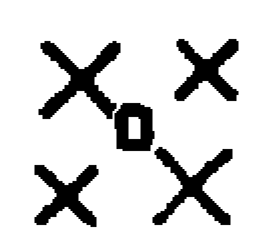
٧١) خطيب الجبل : كان المحامي الفرنسي جورج جاك دانتون (١٧٥٩ ـ ١٧٩٤) الخطيب المفوّه والجهوري الصوت في حزب الجبل الثوري في الجمعية الوطنية إبّان الثورة الفرنسية . وحزب الجبل هو الاسم الذي أطلق على اليعاقبة لجلوسهم في أماكن كانت واقعة موقعاً عالياً في قاعة اجتماعات الجمعية الوطنية .

٧٢) تم مدينة آيس ليبين (Eisleben): مدينة آيس ليبين هي المكان الذي ولد فيه لوثر . ولقد وصف لوثر نفسه بهذا الوصف . والتَّم طائر مائي شبيه بالاوز لكنه اطول منه عنقاً ويعرف ايضاً بالاوز العراقي .

٧٣) نشيد المرسليز للاصلاح الديني : يقارن هايني ترتيلة لوثر الدينية «إلهنا قلعة حصينة» بالنشيد الذي ألفه ولحنه روجيه دوليل عام ١٧٩٢ والذي ترنم به المتطوعون المرسيليون حين انتقلوا الى باريس متوجهين إلى جبهة القتال . والمارسيليز هو النشيد الوطني الفرنسي .

٧٤) هانز ساكس : Hans Sachs هو الاسكافي والشاعر الذي احتضنته مدينة نوريتبيرغ (١٤٩٤ ـ ١٥٧٦) . ولقد ناصر لوثر بقصيدة عنوانها : «عندليب فيتينبرغ» (١٥٢٣) . ويحكم هايني على هانز ساكس بشيء من الظلم والاجحاف كما يخطىء في هذه الحال في تقدير مطلب الرومانسية .

٧٥) محاكاة مضحكة للتمثيليات الدينية القديمة : كان الجمهور يشارك في عرض التمثيليات الدينية في العصور الوسطى مشاركة كبيرة مما مهد لنشوء مسرح غير المختصين . ويعيب هايني على هانز ساكس أنه حول هذه التمثيليات إلى ماهو مضحك حيث إنها كانت ، فيما مضى ، نقطة تجمع لقوى الطبقات في المدينة .



١) باكو : هو باكون فون فيرولم Baco von Verulam (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) رجل دولة انجليزي وفيلسوف ومن علماء الطبيعة . عزز الفلسفة التجريبية ؛ ومع هذا فهو لا يعد مؤسساً لعلم جديد ؛ بل إنه أدخل طريقة جديدة لمعالجة مسائل تتعلق بعلم الطبيعة وتذليلها . وهنالك مَنْ ينظر إليه على أنه الاب الفعلي الأول للمادية الانجليزية ولكل علم تجريبي حديث .

٢) ديكارت : تشكل فلسفة رينيه ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) بداية لعصر التنوير والفلسفة الحديثة ذلك أنها قاطعت الموروث العلمي المنقول . والشيء الذي مهد للتحرر الذاتي والمعرفة الذاتية للانسان الفرد والمجتمع الانساني على سواء هو الشك الذي تم التغلب عليه في بادئ الأمر في العبارة المشهورة : «أنا أفكر ، إذاً فأنا موجود» . فهذه الفلسفة التي نشأت في بداية عصر الصناعة والتصنيع أثّرت في العلم التطبيقي الصاعد من طريق سيادتها على الطبيعة ، هذه السيادة المتوخاة بواسطة الاستدلال الرياضي . فالمذهب العقلي الذي ينهض على استخدام مطلق للعقل يتم البرهان عليه في كتاب «مقالة الطريقة» (١٦٠٧) . على أن نقطة انطلاق الفلسفة الديكارتية تتجسد في نظر هايني في انسلاخ هذه الفلسفة عن التطبيق وابتعادها عنه . لكنها نشأت وهي على صلة وثيقة جداً بعالم التجربة الانساني . والمعروف أن ديكارت وضع مخططاً لمذهبه الفلسفي حين كان يخدم في ألمانيا برتبة ضابط مدفعية . ولقد أجبره تعصب الكنيسة على أن يرحل عن فرنسا ويذهب إلى هولندا حيث لم يلق ايضاً القبول بصورة دائمة .

٣) لم تكن فرنسا قط تربة للفلسفة : إن معايب هذه الصورة المرسومة لفرنسا واضحة للعيان . ثم إن هايني يتحمس لماضي ألمانيا الثوري النظري . وهو هنا ، كما يبدو ، خاضع بعض الشيء للرأي المعارض لمدام دي ستال بخصوص التضاد بين ألمانيا وفرنسا .

٤) «أنا أفكر ، إذا أنا موجود» : هذه العبارة الرئيسة هي أولى نتائج حساب ديكارت مع علوم عصره والسلطات . فإذا شك المرء بكل شيء فلن يستطيع أن يشك

بأن المرء يشك ؛ إذا فالمرء موجود . وعلى هذا فإن المصدر الأول لعلم حقيقي هو وعي الانسان الذي يرمي إلى إقامة علاقة بالوجود على أسس ثابتة مضمونة .

٥) الاذن بالتفكير : وصل الجدل حول الفلسفة بأنها خادم علم اللاهوت إلى ذروته في القرن الثالث عشر . وساد بعد ذلك كل حوار أو نقاش أو عرض .

٦) ثلاثة حاصل ضرب واحد بواحد : إلماع إلى الاعتقاد باقانيم الله الثلاثة . ولقد كانت هذه العقيدة مسألة مخاصمة ومجادلة بين القسطنطينية وروما . وفي القرن الثالث عشر طرحت هذه المسألة في جامعات اوربا على بساط البحث والنقاش . وفي القرن السادس عشر تحولت الحركة المعادية للثالوث الاقدس إلى حركة كنسية ذات مطلب اجتماعي واضح .

٧) معارضة فلسفية : كانت هنالك محاولات رامية لجعل الدين يتشرب بالفلسفة وظهرت هذه المحاولات في وضوح وبصورة خاصة لدى توما الاكويني الذي أعلن أن الفلسفة الوثنية لا تتناقض في جوهرها مع اركان العقيدة المسيحية . فالعقل والايمان من هبات الله وهما بالضرورة متوافقان

٨) ضد فلسفة ديكارت : الحق أن فلسفة ديكارت منعت في ايطاليا سنة ١٦٤٣ وفي هولندا سنة ١١٥٦ وفي فرنسا سنة ١٦٧١ . وفي أثناء حكم اليعاقبة قررت الجمعية الوطنية الفرنسية اعادة الاعتبار للفيلسوف ديكارت وذلك بدفن رفاته في مدفن العظماء (البانتيون) . على أن هذا القرار لم ينفذ بسبب التطورات السياسية التي جدت آنذاك في فرنسا وطوي بسقوط اليعاقبة في سنة ١٧٩٤ .

٩) لوح أملس : إشارة إلى ما يذهب إليه الفيلسوف الانجليزي جون لوك بأن العقل يكون عند الولادة صحيفة بيضاء .

١٠) مشاهير اتباع الينسينية : المقصود هنا ، في المقام الأول ، انطوان ارنولد (١٦١٢ ـ ١٦٩٤) الذي اتخذ الديكارتية أساساً لفلسفته في علم الأخلاق .

١١) مذهب وحدة الوجود (Pantheismus): يرى هذا المذهب الديني الفلسفي أن الله والوجود شيء واحد . وكان لهذه الفكرة ، فكرة وحدة الله والوجود ، دور تقدمي في تاريخ الفكر المتأثر بسبينوزا ، ذلك لأن هذه الفكرة دمرت التصور القائل بإله شخصي .

١٢) الزئبق : إشارة إلى الزئبق الذي كان يستعمل آنذاك دواءً في معالجة الأمراض الجنسية .

١٣) جون لوك : (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) يعد رائداً عظيماً للحريات السياسية والاقتصادية والدينية ومناضلاً في سبيلها . في مقالته «عن الفهم الانساني» (١٦٩٠) ينبذ الرأي القائل إن الافكار فطرية وليدة مع الانسان ويعلل نشوء معرفتنا من طريق تجاربنا الحسية . أما مؤلفه بعنوان «محاولات في الفهم الانساني» فقد كتبه في عام ١٧٠٤؛ لكنه لم يطبع إلا في عام ١٧٦٥ .

١٤) كوندياك : هو الفيلسوف الفرنسي إيتان بونو دي كوندياك Etienne-Bonnot de Condillac (١٧١٥ ـ ١٧٨٠) التلميذ المباشر للفيلسوف الانجليزي جون لوك ومترجمه إلى الفرنسية . وجّه مذهب لوك الحسي ضد ميتافيزيقا القرن السابع عشر .

١٥) الفيتوس : هو كلود ادريان الفيتوس Claude- Adrien Helvétius (١٧١٥ ـ ١٧٧١) من المتنورين الفرنسيين .

١٦) هولباخ : هو باول هاينريش ديتريش بارون فون هولباخ (١٧٢٣ ـ ١٧٨٩) فيلسوف عصر التنوير . علم مذهب الالحاد المنسق في صورة نظام ومذهب المادية . وفي كتابه «نظام الطبيعة» يرى أنه لا يوجد إلا تنوع الذرات المادية . أما الشيء الروحي أو الالهي فلا يمكن أن يكون موجوداً . وبذلك فإن كل حادثة تجري وفق قوانين فيزيائية ، أي ميكانيكية سببية ، تحدد كل شيء .

١٧) لاميتري : هو جوليان اوفري دي لاميتري Julien Offray de Lamettrie (١٧٠٩ ـ ١٧٥١) طبيب فرنسي وفيلسوف . حاول في كتابه «الانسان آلة» (١٧٤٨) أن يصوغ من الميكانيك الديكارتي قوانين الأثر والمعلول للحياة الفكرية فخضع لمادية ميكانيكية .

١٨) ماديون من اتباع مذهب التأليه : هنا يدرك هايني بحق سمة حاسمة من سمات حركة التنوير الفرنسية . فالله في مذهب التأليه ، أي فلسفة الدين عند المتنورين الفرنسيين ، موجود خارج مجرى الكون . وينظر مذهب التأليه إلى الله نظرته إلى صانع الساعات الذي يتتبع سير العمل الذي صنعه بنفسه . وبهذا يبتعد

المرء من الاله . ثم إنه لا توضع حدود لمشاركة العقل الانساني في ايضاح الحالات الخاضعة للقوانين الطبيعية وتفسيرها . هذا وإن عصر التنوير بعامه ليرى في معرفة علائق الطبيعة وترابطاتها سبلاً عجيبة للتدين والتقوى لكي يدنو المرء من سر الاله . ولقد استدل المرء من كل قانون طبيعي جديد ومن كل نظام جد اكتشافه على وجود صانع الكون العظيم وعلى حكمته ، أي على الله الذي رتب كل شيء ترتيباً رائعاً ونظمه تنظيماً أي تنظيم .

١٩) اتباع بينثيم : نسبة الى الانجليزي جيريمي بينيثيم Jeremy Bentham (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) الذي مثل فللاسفة المنفعة . وحين يصفه هايني بأنه واعظ مساعد للمنفعة فإن هذا لسخرية تتفق والرأي الذي ابداه ماركس في رأس المال حيث يقول : «لو كانت لدي جرأة صديقي هاينريش هايني لسميت السيد جيريمياس (بينتشم !) عبقري الغباء البورجوازي» .

٢٠) لايبنتز : هو غوتفريد فيلهلم لايبنتز Gottfried W. Leibniz (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) حاول أن يتخطى الاثينية الديكاترية وأن يوفق بين مذاهب مختلفة ويتوصل بذلك إلى تناسق فكري . فالوجود في نظره هو أفضل من كل العوالم الممكنة ، فإذا ما وقعت شرور ورزايا فإن هذا لا يتناقض مع العدل الالهي أو التبرئة الالهية .

٢١) مذهب المونّاد : هو المذهب الذي وضعه لايبنتز وهو أن كل عنصر من عناصر الواقع الفعلي هو موناد أو وحدة أو شيء لا يتجزأ ولا يقبل التجزئية . فانطلاقاً من الفكرة بأن كل جوهر لا يحس المرء بوجوده إلا من خلال حركته فإن لايبنتز يجعل الموناد ، وحدة الطبيعة المادية والروحية ، حاملاً للقوة . ومن ناحية أخرى فإن الكون يتكون من عدد غير محدود من مثل هذه المونادات (الوحدات) . وهذه المونادات تتدرج في مرات حتى تصل إلى أعلى الوحدات وهي «الله» الذي قدّر توافقها واتساقها في اثناء خلق المونادات الادنى منزلة والتابعة له . وبهذا فإن كل وحدة (موناد) مرآة للكون . وإن فكرة التأثير المتبادل والتطور لتظهر واضحة للعيان في فلسفة لايبنتز . ثم إن الفيلسوف المثالي شيللنغ تشبع بهذا المذهب وادخله في فلسفته) «مذهب الفلسفة المتعالية» (١٨٠٠) .

٢٢) نيوتن : هو اسحق نيوتن (١٦٤٣) - ١٧٢٧) رياضي انجليزي وفيزيائي . اكتشف قانون الجاذبية وتجادل مع لايبنتز حول الأولوية في اكتشاف حساب التفاضل والتكامل .

٢٣) العدل الالهي (Theodizee): ظهر هذا الكتاب في عام ١٧١٠ بعنوان «محاولة تبرئة الهية في خير الاله وحرية الانسان وأصل الشر» . ولقد حاول لايبنتز في هذا الكتاب أن يوفق بين الايمان بالعدل الالهي وشرور الدنيا . فيرى أن العالم القائم هو افضل العوالم . هذا التفاؤل كان موضع جدل عنيف عند مفكري عصر التنوير الفرنسي . إذ أن فولتير سخر من هذا الضرب من التفاؤل في روايته «كانديد أو التفاؤل» (١٧٥٩) .

٢٤) نقطة التعادل (Indifferenzpunkt): هي النقطة التي يسود عندها توازن القوى والتعادل بين الجذب والدفع . ولقد رأى شيللنغ تعادل الطبيعة والعقل ، الذات والموضوع على أنه تغلب على كل التناقضات وتذليل له . وفي هذا التذليل تظهر هوية الواقعي والمثالي . ويعلم هيجل في فلسفة الهوية بأن الهوية هي هوية الوجود والعقل التي تنبثق منها العبارة المشهورة التي يشير اليها هايني وهي : إن ماهو حقيقة واقعية هو عقلي ، وماهو عقلي هو حقيقة واقعية» (أسس فلسفة الحق).

٢٥) أشد الانظمة اختلافاً : كانت فلسفة لايبنتز التفاؤلية تطمح إلى تعايش مختلف المذاهب والمعتقدات . كما أنها كانت تتوخى امكانية إقامة سلام داخلي وخارجي وسلام عالمي عام . وفضلاً عن ذلك سعى لايبنتز على الصعيد السياسي ايضاً إلى مصالحة بين الكاثوليكية والبروتستانتية .

٢٦) أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) : أعظم ممثلي المثالي الموضوعي تأثيراً ومبدع مذهب الأفكار . فكائنات العالم المحسوس تستمد واقعها الفعلي من عالم الأفكار ، أي من العالم المدرك . لكنها ليست إلا محاكاة ناقصة للأفكار الالهية المطلقة . فالكائنات الأرضية تساهم في اشكال الوجود الاصلية للأفكار من طريق الحدس (الرؤية الداخلية) ، وهذا بدوره هو عملية إدراك مجدد تتطلب بأن تكون بعض الأفكار موجودة فينا مسبقاً وقبل كل شيء ، الأمر الذي يمكّن من معرفة

الأفكار الالهية الاصلية من جديد . فكل ماهو موجود ، في رأي افلاطون ، له أساسه في الفكر . وعلى هذا صارت فلسفته منطلقاً لكثير من الآراء والمذاهب المثالية والنظرية .

٢٧) ارسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م): أهم تلامذة أفلاطون ومربي الاسكندر الكبير . سعى لتنسيق العلوم كلها (ماعدا الرياضيات) واستمد من الملاحظة الدقيقة لعالم الكائنات مبادىء تفسير جديدة لنشوء الكون والخليقة ـ وبهذا فإنه وقع في شيء من التناقض مع مذهب الافكار الافلاطوني . والحق أن ارسطو ادخل مفهومي الشكل والمادة (الامكانية والواقع) إلى الفلسفة وافترض أن الانتقال من الممكن إلى الواقع يتم بواسطة الحركة . ويذهب ارسطو إلى أن ثمة مبدأ يفعل فعله في كل الأشياء وهو مبدأ الغائية . وإن تمسك كثير من الفلاسفة بهذا المبدأ أعاق تطور الفكر التاريخي الحديث طويلاً .

٢٨) الطالن (Talent): هو وحدة نقد قديمة كان اليونانيون يتداولونها .

٢٩) المسرحيات المأساوية التي شرّحها : إشارة إلى كتاب ارسطو «فن الشعر» .

٣٠) التقويون : التقوية هي التيار البروتستانتي الذي ظهر في ألمانيا في نهاية القرن السابع عشر وجاهد في سبيل جعل الدين روحانياً . كما جاهد في سبيل الممارسة العملية للتقوى والورع مما جعل التقوية تحمل ملامح صوفية . ولقد تم احياء هذا الاتجاه الصوفي في مذهب لوثر على يد كل من فيليب ياكوب سبينير Spener (١٦٣٥ ـ ١٧٠٥) واوغست هيرمان فرانكي Francue (١٦٦٣ ـ ١٧٢٧) . وفي بادىء الأمر تآزرت التقوية مع حركة التنوير ضدّ الارثوذكسية . وهاجمت في جامعة هاللي كريستيان توماسيوس (١٦٥٥ ـ ١٧٢٨)، رائد حركة التنوير ، والفيلسوف البروتستانتي العقلي كريستيان فولف (١٦٧٩ ـ ١٧٥٤) .

٣١) سبينوزا : هو بينيديكت سبينوزا . وفي الأصل باروخ دي سبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) ينحدر من اسرة يهودية برتغالية استوطنت في امستردام (هولندا) . وضع الأساس لنقد الانجيل نقداً تاريخياً فلسفياً . وعزز بذلك انعتاق العلوم من اللاهوت . ووضع مذهباً منطقياً لوحدة الوجود لا يعرف إلهاً شخصياً ولا

خلوداً فردياً . ولكنه يعرف جوهراً واحداً يرادف الطبيعة ويرادف الاله ويساويهما (= الطبيعة = الاله) . ويظهر هذا الجوهر في صفات وخصائص كثيرة لا حصر لها ولا حدود لها . ومنذ منتصف القرن الثامن عشر يصبح لسبينوزا دور مهم في حياة المانيا الفكرية .

ومع أن المعرفة على صعيد العلوم الطبيعة كانت محدودة آنذاك فإن فلسفته تسعى لتفسر الكون انطلاقاً من ذاتها .

٣٢) عيب كبير : يذم هايني «المنهج الهندسي» الذي يتصف به بناء مؤلفات سبينوزا ، كما يتصف به مذهبه بعامة .

٣٣) روح الانبياء العبريين : الحق ان هذه المسألة شائكة كانت موضع جدل كثير . حتى إن هيردر ، المفكر الالماني الشهير ، تصدى للمحاولات الرامية الى وصم سبينوزا بأنه صوفي من متصوفة اليهودية . «فالمقالة السياسية اللاهوتية» بخاصة تبرهن على الطريقة المستقلة التي يتناول بها سبينوزا العناصر الدينية من التعاليم اليهودية .

٣٤) الحرم : إشارة إلى الحرم الذي صدر في عام ١٦٥٦م بحق سبينوزا البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً وذلك بسبب «تعاليمه المضللة الرهيبة» .

٣٥) ميمون : هو سلمان (سالومون) ميمون (١٧٥٣ ـ ١٨٠٠) فيلسوف يهودي . وفلسفته استمرار لمذهب كانط النقدي ولاسيما في كتابه «محاولة منطق جديد» (١٧٩٤). ظهر كتابه «تاريخ حياة» سنة ١٧٩٢ ـ ١٧٩٣ .

٣٦) حراس مذهب التأليه السويسريون : يقارن هايني اليهود بالحراس السويسريين المرتزقة الذين كانوا يتعينون حراساً للبيوت المالكة في كل انحاء اوربا (الفاتيكان وفرنسا .. مثلاً) .

٣٧) فان ايندي : هو فان دين اندي Van den Ende (١٦٠٠ ـ ١٦٧٤) طبيب مثقف ثقافة انسانية ومن اصحاب الفكر الحر الذين لم يخضعوا لسلطة كنسية . علم سبينوزا اللغات القديمة وكان أباً للفتاة التي احبها سبينوزا .

٣٨) المقالة السياسية اللاهوتية : ظهرت هذه المقالة سنة ١٦٧٧ وهي السنة التي توفي فيها سبينوزا . ولقد برهن فيها «كيف يكون المجتمع في ظل الملكية أو

الارستقراطية وكيف ينبغي أن يكون منظماً حتى لا يقع في ايدي حاكم غاشم وحتى لا ينتهك السلام ولا حرية المواطن» .

٣٩) علم الأخلاق» : أهم مؤلفات سبينوزا . ظهر أيضاً في عام ١٦٧٧ .

٤٠) ليس هنالك إلا جوهر واحد : يرى سبينوزا أن هنالك جوهراً غير متناه يحمل صفات متغيرة متجددة فيجعله مساوياً للاله أو للطبيعة . اما العقل الانساني ، كما يرى سبينوزا ، فلا يعرف إلا صفتين اثنتين من صفات هذا الجوهر وهما : التفكير والامتداد .

٤١) صفة الالحاد : تعود تهمة الالحاد الموجهة إلى سبينوزا واتباعه الى صراع اتباعه مع المدرسيين والارثوذكس . كما أن بيير بايل Pierr Bayle (١٦٤٧ - ١٧٠٥) احد مفكري عصر التنوير الفرنسي وكريستيان فولف الالماني رفضا سبينوزا . واتهمه آخرون بالالحاد موضحين بأن الفلسفة والدين لا يتفقان . ولقد وصف فيورباخ الوجه المزدوج لمذهب وحدة الوجود عند سبينوزا بما يلي : إن مذهب وحدة الوجود هو مذهب الالحاد اللاهوتي أو المذهب المادي اللاهوتي . إنه انكار علم اللاهوت ، في رأي علم اللاهوت نفسه ، ذلك لأنه يجعل المادة التي هي انكار الاله ونفيه محمولاً للكائن الالهي وصفة له» . وعلى هذا فإن فلسفة سبينوزا لا تخلو من نزعة مادية في واقعها . ويرجع تفسير هايني إلى أنه هو نفسه اعتنق مذهب وحدة الوجود . لكنه لم يدِنْ بمذهب الالحاد . وعلى هذا فهو يفسر مذهب سبينوزا تفسيراً مثالياً .

٤٢) مدام دي ديفان : هي المركيزة دي ديفان Deffand (١٦٩٧ - ١٧٨٠) كان لها منتدى أدبي فلسفي جعلها على اتصال بمشاهير الكتاب والمفكرين . وكان فولتير قد وجه إليها الرسالة بتاريخ ٣ نيسان ١٧٦٩ .

٤٣) فلسفة الهوية : يشير هايني هنا إلى مذهب شيللنغ في الهوية . وفي هذا المذهب يعد كل من الطبيعة والروح مظهرين لأول كائن موجود . «فالروح والطبيعة هما في الأصل شيء واحد . والمطلق ، أساس الطبيعة والروح ، هو الواقعي والمثالي» .

٤٤) شيللنغ : هو فريدريش يوسف شيللنغ F. J. Schelling (١٧٧٥ ـ ١٨٥٤) ممثل الفلسفة المثالية الألمانية . في الثالثة والعشرين صار استاذاً للفلسفة في جامعة يينا Jena وتوصل ، بالاستناد الى كانط ، إلى فلسفة الهوية . فالتحول السلبي في تفكير شيللنغ الذي وقف في بادىء الأمر على فلسفة الطبيعة وقوفاً جيداً وحاول أن يتمم فلسفة فيشته بمشروع مذهب فلسفة الطبيعة طرأ في نحو ١٨٠٦ وذلك لما أوضح شيللنغ أن الدين والعقيدة الرسمية والحياة في الدولة هي النقطة التي يدور حولها كل شيء .

٤٥) الفترة التي كان فيها لايزال فيسوفاً : يرسم هايني طريق شيللنغ بدءاً مما كتبه في فلسفة الطبيعة (١٧٩٧ ـ ١٧٩٩) ومروراً بتفسير الفلسفة بأنها تاريخ متصل للوعي الذاتي في كتابه «مذهب الفلسفة المثالية» (١٨٠٠) ثم انتهاءً بعرضه وشرحه لمذهب الهوية (١٨٠١ ـ ١٨٠٣) . وفي كتابه «عرض مذهبي» (١٨٠١) يقترب شيللنغ أيضاً من منهج سبينوزا في معالجة المادة هندسياً .

٤٦) روسو : هو جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٧) . كاتب وفيلسوف من فلاسفة حركة التنوير الفرنسية . كان لمؤلفاته تأثير كبير في سياسي الثورة الفرنسية . حافظ على ايمان بالله رقيق حساس مفعم بالمشاعر أثر بدوره في الأدب الإلماني . وبالتخلي عن دين سماوي فإن مذهب التأليه هذا ليحتفظ مع ذلك بسمة شخصية . وما يقوله هايني في تلامذة روسو ينطبق ، في المقام الأول ، على فولتير واتباعه الذين نادوا بفلسفة دين عقلية منطقية فعالة .

٤٧) حملت به حملاً روحياً : رفعت قصة الحمل بلا دنس إلى مرتبة العقيدة سنة ١٨٥٤ .

٤٨) الخدم اليهود : يقصد هايني سلطة القيصر والأعمال المالية التي كان يزاولها اليهود القائمون في خدمة القيصر .

٤٩) ... لاضطهاد الشعوب : كثيراً ما صاغت حركة التنوير الفرنسية مثل هذه الأفكار والأحكام ولاسيما منذ أن صارت مؤلفات الراهب الفرنسي المتطرف جان ميسلييه Jean Meslier (١٦٤٧ ـ ١٧٢٣) معروفة في الأوساط العامة .

٥٠) «إنهم يدخلون في صفوفنا ..» يشير هايني هنا إلى الراهب الفرنسي الثائر المتمرد هوغ فيليس روبيرت دي لامينيه H. F.« R Lamennais (١٧٨٢ ـ ١٨٥٤) وإلى كتابه «كلمات مؤمن» . دعا لامينيه إلى ضرب من «الاشتراكية المسيحية» . اما كتابه «كلمات مؤمن» فقد ترجمه لودفيغ بورني إلى الألمانية .

٥١) مارات : هو جان بول مارات Jean- paul Marat ((١٧٤٤ ـ ١٧٩٣) عالم طبيعي وسياسي ثوري إبّان الثورة الفرنسية وعضو الجمعية الوطنية الفرنسية ورئيس تحرير مجلة «صديق الشعب» .

٥٢) روبسبيير : هو مكسيميليان دي روبسبيير Maximilien de Robespierre(١٧٥٨ ـ ١٧٩٤) رجل قانون والناطق النزيه باسم الثورة الفرنسية وممثل اليسار الديمقراطي الذي حاول أن يحقق مطلبه بمساعدة حكومة مركزية (تتمثل في لجنة الأمن والرفاهة والرعاية الاجتماعية) .

٥٣) سان جوست : هو لويس انطوان دي سانت جوست Loisis- Antoine de Saint- Just (١٧٦٧ ـ ١٧٩٤) سياسي ورجل قانون وصحافي بارز في حزب اليعاقبة الثوري . وهو المدعيّ المرهوب الجانب والتابع المطلق لروبسبيير الذي جاهد في سبيل نقاء الثورة ونظافتها .

٥٤) اللامتسرولون : اسم تميزت به الجماهير العريضة في الثورة الفرنسية ذلك لأنهم كانوا يرتدون سراويل طويلة خلافاً لابناء الطبقات العالية والارستقراطيين الذين كانوا يرتدون سراويل قصيرة حتى الركبة . ولقد مثلت هذه الجماهير العنصر الثوري في الثورة الوطنية الفرنسية والحت على المضي قدماً بها .

٥٥) احد حمقى شكسبير : المقصود هنا هو المالك الاقطاعي النبيل طوبياس في مسرحية شكسبير «كما تشاؤون» . الفصل الثاني . المشهد الثالث .

٥٦) مذهب التأليه هو .. مذهب العبيد: هنا ينكر هايني على مذهب التأليه الملامح الثورية حيث إن هذا المذهب كان قد فقد في المانيا حدته الثورية بسبب

فلسفة فولف العقلية وآل إلى التحزب للأوضاع الاستبدادية المطلقة التي لا تتعارض مع مشيئة الله .

٥٧) ياكوبي : هو فريدريش هاينريش ياكوبي Friedrich Heinrich Jacobi (١٧٤٣ ـ ١٨١٩) كاتب وفيلسوف ألماني . تبادل الرسائل مع غوته وهيردر حول الفلسفة وشكا من اعتراف ليسنغ بمذهب سبينوزا . وكان ليسنغ قد جاهربايمانه بهذا المذهب في حديث له عن «بروميتيوس» لدى غوته . ومنذ أن صدر كتاب ياكوبي «حول مذهب سبينوزا ، في رسائل إلى السيد موسى ميندلسون» (١٧٨٥) أخذت المواقف المتعددة لحركة التنوير الألماني تظهر في وضوح .

٥٨) صف الموسوعيين : يشير هايني إلى المواقف التأليهية التي مثلتها مجموعة الفلاسفة الفرنسيين التقدميين في الموسوعة الفرنسية (١٧٥١ ـ ١٧٨٠) على أن هذه المواقف لم تكن تصل دائماً إلى معارضة أو عداء لسبينوزا . فهؤلاء الموسوعيون يعارضون ، في المقام الأول ، جمود المذاهب الفكرية الميتافيزيقية .

٥٩) فولف : هو كريستيان فرايهير فون فولف Christian Freiherr von Wolff (١٦٧٩ ـ ١٧٥٤) فيلسوف ورياضي الماني . شغل كرسي الاستاذية في جامعة هاللي Halle بناء على كتاب توصية من الفيلسوف لايبنتز . على أنه أبعد في سنة ١٧٢٣ عن البلاد وذلك حين اتهمه فلاسفة الجامعة التقويون بانكار الاله والالحاد . وفي سنة ١٧٤٠ اعتلى فريدريش الثاني العرش فاستدعاه مرة أخرى (انظر حاشية رقم ٦٠ من السفر الأول) . وإن الشيء الذي أثار الاستنكار هو مذهبه في الحتمية وطريقته الوصفية الرياضية التي رتب بها العلوم كلها ونسقها وجعلها تصاب بالجمود . ورفض أن يعرف شيئاً عن عملية الفكر الحر لدى الانجليز أو عن مذهب التأليه المنتشر لدى الفرنسيين أو المذهب المادي ومذهب الريبية . كما أنه أفسح مكاناً للدين في فلسفته .

٦٠) تاولر : هو يوهانيس تاولر Johannes Tauler (١٣٠٠ ـ ١٣٦١) واعظ شعبي وممثل للاتجاه الرجعي الذي انتشر على أيدي الدومينيكان وكشف عن عناصر كبيرة مستمدة من الافلاطونية الحديثة واشتمل على سمات مذهب وحدة الوجود .

أما المعلم الكبير للتيارات الصوفية في منطقة الراين التي تطورت إلى معارضة ثورية فقد كان أسقف الابرشية ايكارت Eckkart (١٢٦٠ ـ ١٣٢٧) الذي نهل لوثر من كتاباته وكتابات اتباعه . كما أثرت لغة هذه الكتابات في لغة الكتابة الألمانية الحديثة .

٦١) باراتسيلسوس : هو فيليب آوريولس تيوفراستوس فون هوهينهايم والمدعو بومباستوس (١٤٩٣ ـ ١٥٤١) طبيب مشهور وأحد علماء الطبيعة وممهد للطب الحديث في أوربا . يرى أن موضوع كل فلسفة هو الطبيعة التي يجب مراقبتها والتأمل فيها . ويدخل باراتسيلسوس على التصوف الافلاطوني الحديث ، التصوف المنصب على الله والطبيعة ، سمة تجريبية . والظاهر أن هايني اطلع اطلاعاً جيداً على الأفكار التي طورها باراتسيلسوس بخصوص «الكائنات الأولية» .

٦٢) بوهمي : هو ياكوب بوهمي Jakob Bohme (١٥٧٥ ـ ١٦٢٤) اسكافي من مدينة غورليتس وفيلسوف متصوف حاول أن يذلل مسألة الخير والشر والنور والظلمة .

٦٣) سان مارتين : هو لويس كلود مركيز دي سان مارتين (١٧٤٣ ـ ١٨٠٣) فيلسوف فرنسي وكاتب . ترجم مؤلفات بوهمي إلى الفرنسية (١٨٠٠) . أما الترجمة الانجليزية فقد عني بها كل من جون ايليستون وجون سبرو (١٦٤٤ ـ ١٦٦٢) .

٦٤) كارل الأول : أو شارل الأول وهو ملك انكلترا (١٦٠٠ ـ ١٦٤٩) الذي دفعه وزراؤه الى اتباع سياسة استبدادية تنهض على فرض الضرائب والقروض الاجبارية والخلافات والمنازعات مما جعل الثوار وعلى رأسهم كروموبل يسوقون الملك إلى الموت امام قصره هوايتهول سنة ١٦٤٦ .

٦٥) سبينر : هو فيليب ياكوب سبينر Philipp Jakob Spener (١٦٣٥ ـ ١٧٠٥) آزر الحركة التقوية في المذهب اللوثري اثرت كتبه تاثيراً قوياً في نبلاء شمال المانيا واللاهوتيين البروتستانت .

٦٦) سكوتوس اريجينا : هو يوهانيس سكوتوس اريجينا : Jobanues Scotus Eringena (٨١٠ ـ ٨٧٧) راهب وفيلسوف ايرلندي ومدير مدرسة رهبانية .ترجم إلى اللاتينية المؤلفات المسماة بالمؤلفات الاريوباجية . وليس ديونيسوس آريوباجيتا إلا الاسم المستعار لمؤلف كتابات صوفية بمفهوم الافلاطونية الحديثة التي دعت إلى التفاني الديني لله والاتحاد به وكانت ذات ملامح مشربة بمذهب وحدة الوجود . أما فلسفة اريجينا الطبيعية التي تخللتها افكار كونية (كوسمولوجية) يونانية فقد رفضت فيما بعد لكونها فلسفة ملحدة . كما أن اريجينا حرم من مجمع بلنسية سنة ٨٥٥ .

٦٧) فرانكي: هو اوغست هيرمان فرانكي August Hermann Francke (١٦٦٣ ـ ١٧٢٧) لاهوتي بروتستانتي . حاضر في الكتاب المقدس بروح تقوية . واضطر إلى الرحيل عن لايبزيغ سنة ١٦٨٩ . وصار قساً في مدينة ارفورت Erfort ثم استاذاً في كلية العلوم الدينية في جامعة هاللي سنة ١٦٩٨ . أسس عدة معاهد للرعاية الاجتماعية . منها مدرسة للفقراء وملجأ لليتامى .

٦٨) اثارة الفضيحة : إشارة إلى اتهام «الصحيفة الكنسية الانجيلية» (١٨٣٠) للفقيهين اللاهوتيين البروتستانتيين غيسينيوس وفيغشايدر بناء على ملحق محاضرات يمس العقيدة الانجيلية البروتستانتية .

٦٩) بانجلوس Panglos: في رواية فولتير «كانديد أو التفاؤل» يمثل بانجلوس نظرية أفضل العوالم على وجه الأرض .

٧٠) بروميتويس : تروي الاسطورة اليونانية أن بروميتويس سرق النار من الالهة واعطاها لبني البشر . وعلى هذا أمر زيوس بأن يكبل بروميتويس بالاغلال ويصلب على صخرة في القوقاز حيث سلط عليه نسراً لينهش كبده . وكلما نمت كبده من جديد عاد النسر لينهشها مرة أخرى . وظل على هذه الحال إلى أن حرره هرقل من عذابه . وفي مسرحية اسخيلوس (٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق.م) «بروميتويس مقيداً» نجد أن القوة هي شخص صامت (أصمّ) .

٧١) إرجاع الشباب إلى الملك ايزون : تروي الاسطورة اليونانية أن ميديا كانت ابنة ملك وكانت عليمة بفنون السحر وقد أعانت يازون ، قائد بحارة السفينة

آرغو ، على الحصول على مسْك الضأن الذهبي الخارق للعادة والواهب القوة . كما أنها أعادت الشباب إلى حميّها إيزون بواسطة شتى ضروب السحر المريبة .

٧٢) سيملر : هو يوهان سالومو سيلمر : Johœnn Salomo Semler (١٧٢٥ ـ ١٧٩١) استاذ علم اللاهوت في جامعة هاللي . ضمن للعلم حرية معينة من الحركة والتنقل من طريق تمييزه بين اللاهوت والدين . وأوضح ان اكبر قسم من الكتاب المقدس يتخذ الدين الطبيعي موضوعاً له ، هذا الدين المعروف لدى الانسان منذ بدء الخليقة . وهو ، بذلك ، يضع اساساً لمذهب عقلي لاهوتي أو للاهوت تاريخي نقدي .

٧٣) تيللر : هو فيلهلم ابراهام تيللر Wilhelm Abraham Teller (١٧٣٤ ـ ١٨٠٤) أحد لاهوتي عصر التنوير في مدينة برلين . حاول أن يوفق بين «اليهودية والمسيحية أمام محراب الانسانية» .

٧٤) بارت : هو كارل فريدريش بارت Karl Friedrich Bahrdt (١٧٤١ ـ ١٧٩٢) أحد لاهوتي عصر التنوير البروتستانت . زاول اعماله في جامعتي ارفورت وهاللي . عرف بحياته المضطربة القلقة التي انتهت بأن صار صاحب مطعم . كان بارت واحداً من اتباع المذهب العقلي الذين نقدوا الوحي وهاجموه .

٧٥) المادية المتوّجة : استدعى فريدريش الثاني ملك بروسيا والملقب بالكبير (١٧٤٠ ـ ١٧٨٦) الفيلسوف المادي الفرنسي المضطهد لاميتري وآخرين إلى برلين . وكان فريدريش خاضعاً لتأثير المفكرين الفرنسيين فولتير الذي اطلق عليه اسم «سليمان الشمال» ودالمبير . وبعد حروب فريدريش الدائمة (١٧٤٠ ـ ١٧٦٣) تضاءل اهتمام حركة التنوير الفرنسي بهذا الحاكم المستبد . وتقدير هايني يكشف بحق عن الضعف الثقافي الحضاري في ظل الحكم الاستبدادي البروسي الذي لم يولِ الحياة الفكرية الالمانية إلا النزر اليسير من الاهتمام مع أن هذا الحكم الاستبدادي المطلق كان مفتوناً بحضارة البلاط الفرنسي المشرقة على أنها مثل يقتدى به .

٧٦) معركة روسباخ : إشارة إلى المعركة التي دارت رحاها سنة ١٧٥٧ بين جيش فريدريش الثاني والجيوش الفرنسية بالاضافة الى الجيش الامبراطوري

النمساوي . وكان النصر حليفاً للجيش البروسي .

٧٧) جيليرت : هو كريستيان فوريشتيغوط جيليرت : Christian Furchtegott Gellert (١٧١٥ ـ ١٧٦٩) اشتهر بحكاياته على لسان الحيوان . وفي سنة ١٧٤٥ باشر عمله في جامعة لايبزيغ استاذاً لعلم الأخلاق والشعر والبلاغة . ويشير هايني الى الحديث الذي جرى في سنة ١٧٦٠ بين جيليرت وفريدريش الثاني الذي سأله عما إذا كان مقلّداً للشاعر الفرنسي لافونتين (١٦٢١ ـ ١٦٩٥) حيث إنَّ هذا يبين بوضوح كافٍ تحفظ فريدريش الثاني حيال الاصالة الشعرية لشاعر ألماني .

٧٨) نيكولاي : هو كريستوف فريدريش نيكولاي Christoph Friedrich Nicolai (١٧٣٣ ـ ١٨١١) صاحب مكتبة وكاتب . اشتهر باصداره صحائف «المكتبة الالمانية العمومية» (١٧٦٥ ـ ١٨٠٦) وساهم بهذا العرض الشامل للأدب في اعلاء شأن حركة تنوير لاهوتية . وصار ، فيما بعد ، معارضاً للحركة الأدبية المسماة بحركة الغليان والفوران التي انبثقت من حركة التنوير . ثم إن انقسام حركة التنوير الالمانية ليجد في نيكولاي مثالاً معبراً . ويعالج نيكولاي في «رحلة عبر ألمانيا» عدداً من الفلاسفة المتشبثين برأيهم الذين ارتقوا سلم الشهرة بعد كانط . وفي «القصيدة الهجائية» يتعرض غوته وشيللر لنيكولاي بازدراء شديد .

٧٩) هجاء في رواية «فيرتر» : في سنة ١٧٧٥ ظهر كتاب «مسرات فيرتر الشاب . آلام فيرتر الرجل وافراحه . حديث في البداية والنهاية» . وأثار هذا الكتاب حواراً شديداً حول مسألة فيرتر . ويستشهد هايني برسالة ليسنغ إلى صديقه ايشينبورغ Eschenburg تاريخ ٢٦/ ١٠/ ١٧٧٤ .

٨٠) «المكتبة الالمانية العمومية» : هي نوع من الرسائل الأدبية ، ولكن على نحو موسع ، من مثل «الرسائل التي تتعلق بأحدث ما جدّ من أدب ، برلين ١٧٥٩» وهي رسائل كان نيكولاي قد أصدر قسماً منها بالتعاون مع الناقد والكاتب المسرحي ليسنغ .

٨١) «ضد الميل المتكوّن للاغاني الشعبية» : كان نيكولاي نفسه قد أصدر تقويماً بالأغاني الشعبية تعمّد به محاكاة تهكمية ساخرة موجهة إلى مجموعة الاغاني الشعبية التي أصدرها الأديب والمفكر الالماني هيردر .

٨٢) أوديسيوس أوعوبيس : هو ملك ايتاكا الاسطوري الذي أخذ يضرب في الأرض بعد حرب طروادة على غير هدى زمناً طويلاً . ولقد صوره هوميروس في ملحمته الأوديسة . أما الموضع الذي يقصده هايني فهو موجود في النشيد الثاني عشر من «الأوديسة» .

٨٣) الوسط المناسب : شعار لسياسة لويس فيليب التي تتلوى بمفهوم البورجوازية الكبيرة بين المحافظين والتحرريين الليبراليين . وهنا يرسم هايني في خطوط عريضة مايسمى «بالفلسفة الشعبية المبسطة» الألمانية التي عززت مذاهب اخلاقية عامة من دون مطاليب كبرى في عمق فلسفي وتفوق أدبي . ومن ممثلي هذا الاتجاه البارزين كان موسى ميندلسون .

٨٤) الاخلاقيون الانجليز : يقصد هايني الصحف الاسبوعية الاخلاقية التي ظهرت في مطلع القرن الثامن عشر في انجلترا وتوخت تحسين الأوضاع الاجتماعية عن طريق التربية لعمل أخلاقي وعن طريق تعليم عام .

٨٥) محبو الانسانية : اكتسبت هذه العبارة أهميتها في المقام الأول من خلال مؤلفات الاسقف الفرنسي فينيلون Fénelon (١٦٥١ ـ ١٧١٥) حيث كان لها تأثير كبير في تيارات التصوف الديني والمذهب التقوي في المانيا . ولما كان مذهب المحبة الانسانية Philanthropismus نتيجة لما قامت به مدرسة كريتسيان فولف من ربط بين تأملات انسانية نابعة من محبة البشر وبين افكار روسو في التربية فقد طالب به بوسيدوف (١٧٢٤ ـ ١٧٩٠) في التعليم .

٨٦) ميندلسون : هو موسى ميندلسون Moses Mendelssohn (١٧٢٩ ـ ١٧٨٦) فيلسوف الماني . كان صديقاً لكل من ليسنغ ونيكولاي . وتبادل الرسائل مع كانط ودعا إلى حركة تنوير دينية . وعلى هذا سماه معاصروه «اليهودي الموزِّع لدى كتيبة المتطوعين اللاهوتيين» . اما اسم سقراط فقد لحق به تبعاً لشخص سقراط الذي يحاجج في خلود الروح ويتمتع بسمات شخصية في حواره «فيدون أو حول خلود الروح» (١٧٦٧) .

٨٧) سولتسر : هو يوهان جيورج سولتسر Johann Georg Sulzer (١٧٢٠ ـ ١٧٧٩) بقي زمناً طويلاً مرجعاً في الأمور الجمالية في عصر التنوير . وفي كتابه

«النظرية العامة للفنون الجميلة» (١٧٧١ ـ ١٧٧٤) استيقن بأن الذوق نتيجة ضرورية للمعرفة والاطلاع وأن للفن وظائف تربوية أيضاً .

٨٨) أبْت : هو توماس أبت Thomas Abbt (١٧٣٨ ـ ١٧٦٦) فيلسوف واستاذ حكمة الوجود في جامعة فرنكفورت على نحو الأودر . عمل بعد استقالة ليسنغ في مجلة «الرسائل المتعلقة بما جدّ من أدب» .

٨٩) موريتس : هو كارل فيليب موريتس Karl Philipp Moritz (١٧٥٧ ـ ١٧٩٣) عمل في ميدان علم النفس التجريبي وأسس «مجلة علم النفس» . روايته «انطون رايزر» (١٧٨٥ ـ ١٧٩٠) التي هي سيرة ذاتية ، تنشأ من جو تقوي وتسعى لأن تتناول الاعراف والتقاليد الاجتماعية بالتحليل النفسي .

٩٠) جارفي : هو كريستيان جارفي Christian Garve (١٧٤٢ ـ ١٧٩٨) عالم لغوي وكاتب . اشتهر بترجمة مقالات انجليزية في علم الجمال والأخلاق بمفهوم عصر التنوير وألف كتباً أخرى من مثل : «حول طبع الفلاحين» (١٧٨٦) «وحول ربط الأخلاق بالسياسة» (١٧٨٨) .

٩١) انجل : هو يوهان ياكوب انجل Johann Jakob Engel (١٧٤١ ـ ١٨٠٢) عالم لغوي وفيلسوف وكاتب مسرحي . في سنة ١٧٧٥ بدأ يصدر مجلة «الفيلسوف المتنور من اجل العالم» . ولما كانت فلسفة الأخلاق لدى المتنورين تتميز بالحيرة والتردد وعدم الوضوح فقد حاول أن يفيد من المذاهب الاخلاقية العامة في تثقيف الشعب وتعليمه وإرشاده .

٩٢) بيستر : هو يوهان اريش بيستر Johannenich Biester (١٧٤٩ ـ ١٨١٦) أسس هو وآخرون «مجلة برلين الشهرية» ثم انفرد باصدارها منذ عام ١٧٩١ . كما أن الفيلسوف كانط كان أحد أهم العاملين في هذه المجلة . وكان بيستر صديقاً حميماً لنيكولاي .

٩٣) اطاح بالتلمود : كان ميندلسون (حاشية رقم ٨٦) يرى أن الحقائق الأزلية كلها يتضمنها الدين اليهودي . وفي كتابه «حوار فيدون» يجعل الاسرائيلي الحكيم ينطق بما يلي : «إنك واعظ مسيحي وأنا يهودي . فأيّ ضرر من ذلك ؟ فإذا اعدنا للشاة ولدودة الحرير ما كانتا قد زودتانا به فإن كلانا إنسان» . وفي مقالته

«القدس أو حول السلطة الدينية واليهودية» (١٧٨٣) يطالب مندلسون لدين آبائه بالرضى والقبول والثناء . وكان هامان (١٧٣٠ ـ ١٧٨٨) قد هاجم في احدى مقالاته استعلاء اليهودية وتكبرها الذي تدعيه .

٩٤) دافع عنه ميندلسون : من خلال تبادل الرسائل مع ياكوبي (حاشية رقم ٥٧) حول نزعة ليسنغ السبينوزية وجد مندلسون نفسه مدفوعاً إلى أن يتهم ليسنغ بأنه من أنصار مذهب وحدة وجود معدّل .

٩٥) كلوتس : هو كريستيان ادولف كلوتس Christian Adolf Klotz (١٧٣٨ ـ ١٧٧١) استاذ اللغات القديمة في جامعة هاللي Halle. هاجمه ليسنغ في «رسائل ذات مضمون قديم» (١٧٦٨ ـ ١٧٦٩) .

٩٦) بوفون : هو جورج لويس كونت دي بوفون Georgesp Louis Lecleuc, Conte de Buffon (١٧٠٧ ـ ١٧٨٨) من علماء الطبيعة المشهورين في حركة التنوير . ألقى محاضرة مهمة حول الأسلوب عند قبوله عضواً في الاكاديمية الفرنسية في آب ١٧٥٣ . والعبارة السائرة التي يستشهد بها هايني هنا مأخوذة من المحاضرة الآنفة الذكر ويسوقها هنا بالمفهوم الافلاطوبني «الطبع كالاسلوب» أو كما يذهب سينيكا الروماني الى أن الاسلوب «مرآة الروح» .

٩٧) تماثيل الكارتيد : (Karyatide) هي تماثيل امرأة تقوم مقام الأعمدة في المبنى .

٩٨) كما لقي ليسنغ : في سنة ١٧٦٠ قبل ليسنغ أن يكون سكرتير حاكم سيليزيا العام في مدينة بريسلا والأمر الذي جعله يخالط الضباط ويعيش بين ظهرانيهم . ولما كانت جميع انواع اللعب (بما فيه لعب الميسر) منتشرة في هذه الأوساط فقد عمَّ القيل والقال بأن ليسنغ كان يعيش ايضاً حياة خليعة في الحانات ويشارك الضباط لعب الميسر .

٩٩) تحضرنا هنا كما تحضر هايني عبارة ليسنغ «عصر ثالث» في مقالته «تربية الجنس البشري» في الفقرة (٨٩) .

١٠٠) عندما كان يقفز إلى المسرح : في السادس من ايلول ١٧٧٨ كتب ليسنغ إلى إليزا رايماروس : «عليَّ أن أحاول ما إذا كان المرء سيتركني أخطب واتكلم وأعظ من فوق المنبر القديم ومن على خشبة المسرح أو على الأقل ما إذا يريد

أن يتركني وشأني دونما إزعاج» . وبهذا المفهوم واصلت مسرحية «ناتان الحكيم» (١٧٧٩) الحوار مع التعصب بعامة والتعصب للعقيدة بصورة خاصة .

١٠١) الشرذمة السوداء : المقصود هنا اللاهوتيون الارثوذكس .

١٠٢) يا للسذاجة المقدسة !» نداء اطلقه يان هوس Jan Hus (١٣٦٩ ـ ١٤١٥) في اثناء حرقه في مدينة كونستانس في المانيا . وذلك لمّا أتت امرأة عجوز بعود حطب ورمته إلى كومة الحطب .

١٠٣) الماسونيون : يعد القرن الثامن عشر عصر ازدهار الحركة الماسونية التي انبثقت من اتحاد الجمّارين الانجليز العاملين في بناء كنيسة بانظمة وقوانين وعادات (Bauhutte) ثم تحولت إلى جمعية قوامها رجال يفكرون تفكيراً يخدم روح المواطن العالمي . واوجد هؤلاء الرجال صيغاً رمزية خاصة بهم ، كما أنهم مجدوا إلى حد ما نوعاً من الاباحية الفكرية المعتدلة .

١٠٤) الواحد والعشرون من كانون الثاني هو يوم مذهب التأليه : إشارة إلى اليوم الذي أعدم فيه الملك لودفيغ السادس عشر ١٧٩٣ ويرى هايني أن الارتداد أو النكوص عن مذهب التأليه يتم من طريق التغلب النظري على الوضع التأليهي للفلسفة الشعبية . هذا التغلب الذي بدأ بملاحظات ياكوبي عن لايبنتز وسبينوزا .

د ـ هوامش السفر الثالث :

١) فونتنيل : هو برنارد لابوفير دي فونتينيل Bernard Le Bovier de Fontenelle (١٦٥٧ ـ ١٧٥٧) السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم الفرنسية . قدّم في كتابه «تاريخ نبوءة» حجج عصر التنوير ضد التقاليد والنقول الدينية وطوّر فن الصحافة التنويرية .

٢) «نقد العقل الخالص» : المقصود هنا نقد علم اللاهوت العقلي في فصل «المثل الاعلى للعقل الخالص» .

٣) اضاع رأسه قبل أن تقطعوه : إشارة إلى لودفيغ السادس عشر الذي أطيح به عن العرش سنة ١٧٩٢ .

٤) الرجل المحدود الافق من شارع سانت أونور : يشير هايني إلى أحوال روبسبيير المعيشية وظروفه في بيت شعبي يعمل اصحابه في حرفة النجارة في شارع سانت اونور . وكان روبسبيير سخّر تقديس «الكائن الاعظم» وعبادته للتغلب على علم اخلاق الديانة المسيحية الذي قلل التاريخ من شأنه . وكان على هذا التقديس أن يكون نداء العدالة والفضيلة .

٥) شوتس : هو كريستيان غوتفريد شوتس christian gottfried schutz (١٧٤٧ ـ ١٨٣٢) أحد محرري مجلة الأدب العامة التي تأسست في مدينة يينا سنة ١٧٨٥ وكانت تمالىء كانط .

٦) شولتس : هو يوهانيس شولتس Johannes Schultz (١٧٣٩ ـ ١٨٠٥) واعظ مدينة كونيكزبيرغ . قدّم في سنة ١٧٨٤ شروحاً مطولة لكتاب كانط «نقد العقل الخالص» ثم نشر تحقيقاً لهذا الكتاب (١٧٨٩ ـ ١٧٩٢) أراد أن يثبت فيه على أن النظام الجديد للدين ليس خطراً .

٧) راينهولد : هو كارل ليونارد راينهولد Kerl Leonhard Reinhold (١٧٥٨ ـ ١٨٢٣) استاذ في جامعة يينا منذ عام ١٧٨٧ . افاض في الحديث عن فلسفة كانط وحقق لها الاعتراف والتقدير العالميين ، ولاسيما في يينا . بقي يزاول عمله

التدريسي في بينا مدة سبع سنوات احرز فيها نجاحاً كبيراً .

٨) «التاريخ العام للطبيعة ..» هو أهم بحوث كانط في مرحلة الابداع المبكرة (١٧٥٥) . فنظرية نشوء الكون المطروحة هنا في هذا البحث والتي أكملها لابلاس ، الفلكي الفرنسي ، (١٧٤٩ ـ ١٨٢٧) فيما بعد ، لاتزال مثار الاهتمام إلى يومنا هذا . وينقد كانط في هذه الرسالة آراء نيوتن في تركيب النظام الحالي للمجموعة الشمسية ويذهب إلى أن هذا النظام تكوّن في البدء بفعل دوران سديم أصلي لا بفعل القوانين الآلية .

٩) «ملاحظات حول الشعور بالجمال» : ظهر هذا البحث في عام ١٧٦٤ ويبين الاسلوب الرائع الذكي المتألق والمفعم بالحيوية لرجل تأثر بروسو وشيفتسبري وبيرك وآخرين . وتناول العلاقات بين الفضيلة وعلم الجمال .

١٠) «أحلام واهم ..»: ظهر هذا البحث بعنوان : «احلام واهم مفسّرة في ضوء احلام الميتافيزيقيا» في سنة ١٧٦٦ ويعرض لآراء الفيلسوف الروحي الاشراقي السويدي سويدينبورغ Swedenborg (١٦٨٨ ـ ١٧٧٢) . وهذا البحث هو اهجوّة ذكية في الميتافيزيقا (علم مابعد الطبيعة) ومفهومي الشيء الأولي (a priori) والشيء المتأخر اللاحق (a postaiori) .

١١) نقد العقل الخالص» : ظهر في سنة ١٧٨٣ . كما ظهر في طبعة ثانية معدلة في سنة ١٧٨٧ . وأوضح كانط في مقدمة الطبعة الأولى قصده من نقد العقل الخالص : «... إني لا أفهم من ذلك نقد الكتب والمذاهب والانسان وانما نقد ملكة العقل بصورة مطلقة استناداً إلى كل معرفة يمكن أن يطمح إليها النقد بصرف النظر عن كل خبرة ، وبالتالي الفصل في امكانية أو عدم امكانية فلسفة ميتافيزيقية بعامة وتحديد مصادر هذه الفلسفة وحجمها وحدودها على سواء ، وكل شيء وفقاً لمبدأ ما .

١٢) «نقد ملكة الحكم» : ظهر في سنة ١٧٩٠ وكان من المفروض أن يحمل العنوان «نقد الذوق» .

١٣) الصيغة الرياضية في الفلسفة : تمَّ تخطّي صيغة الاستدلال الرياضية في الفلسفة بواسطة حركة التنوير الفرنسية في النصف الأول من القرن الثامن عشر وفي مقدمة الطبعة الثانية لكتاب «نقد العقل الخالص» عرّف كانط الفلسفة الألمانية بهذا الوضع .

١٤) فيثاغورس: عالم طبيعة وفيلسوف يوناني . عاش في القرن السادس قبل الميلاد وأراد أن يدرك علة الوجود (والكائنات كلها) في شيء فكري واحد هو العدد .

١٥) أفلاطون في الفصل السابع من «الجمهورية» : إن الحوار الذي يقدمـه افلاطون هنا هو الحوار الذي يدور بين سقراط وجلاوكون حول مسألة التمييز بين الظواهر والأشياء الفكرية . وكان لهذا تأثيره الخارق في مختلف نظريات المعرفة في المذاهب الفلسفية المثالية .

١٦) كوبيرنيك : هو نيكولاوس كوبيرنيك : Nikolaus Kopernikus (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) العالم الفلكي البولوني الذي أسس نظاماً كونياً يتعلق بالشمس على أنها مركز للكون فأبطل بذلك النظام البطليموسي الذي كان يعد الأرض مركزاً للكون يعود إليه كل شيء ويقاس منه كل شيء .

١٧) عبارة دانتي : إشارة إلى ما كتبه الشاعر الايطالي دانتي اليجيري (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) في بداية الجحيم من ملحمته الخالدة «الكوميديا الالهية» ، النشيد الثالث ، وهو : «تخلوا ، أيها الداخلون ، عن كل أمل» .

١٨) الدليل الوجودي والكوني والطبيعي اللاهوتي : الحق أن الدليل الوجودي هو أقوى ادلة كانط على وجود الله . ويستدل الدليل الكوني من وجود الكون على علّة هذا الكون ، على حين يستدل الدليل الطبيعي اللاهوتي من نظام هذا الكون وجماله وتناسقه على خالق لابد أن يكون حدد هذا التنظيم الغائي الهادف الحكيم .

١٩) اوغسطين : هو اوريليوس اوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠) أب كنسي مشهور الف مقالات فلسفية . من بينها البحث الذي يعالج مسألة «الارادة الحرة»

لدى الانسان وامكانية اتحاده بما سبق من معرفة الهية . من مؤلفاته ايضاً «اعترافات» و «مدينة الله» .

٢٠) لامبي Lampe هو خادم كانط .

٢١) وهذا ما يقوله العقل العملي : يشير هايني إلى «نقد العقل العملي» الذي ظهر في سنة ١٧٨٨ . الجزء الأول ، القسم الثاني ، الفقرة الثانية : «وجود الله كمسلّمة من مسلمات العقل العملي الخالص» .

٢٢) شيللر : هو فريدريش شيللر Friedrich Schiller (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥) شاعر المثالية التي آمنت بالتقدم السارّ نحو تحقيق كرامة الانسان وحريته وجماله . وهو أحد اتباع كانط الاشداء . وفي رسالة وجهها إلى غوته بتاريخ ٢٨/١٠/١٧٩٤ أقرّ باعتناقه مذهب كانط . كما أنه بعث رسالة إلى كورنر بتاريخ ١٨/٢/١٧٩٣ ورسم فيها خطة علم جمال انطلاقاً من كتاب كانط «نقد قوة الحكم» . ولقد حاول علم الجمال هذا أن يبتعد من جهة عن شكلية جمالية . ومن جهة أخرى أراد أن يلغي تناقضات الوجود المدركة بوضوح مؤثر ويحتفظ بها في مقاييس ومعايير فنية ملزمة . والحق أن استقلالاً ما لعلم الجمال قد شقّ طريقه بذلك فشجع التجارب الأدبية الشكلية في القرن التاسع عشر .

٢٣) تيرز : هو آدولف تيرز Adolphe Thiers (١٧٩٧ ـ ١٨٧٧) رجل دولة ليبيرالي ومؤرخ . ألف تاريخ الثورة (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) في عشرة مجلدات .

٢٤) مينيه : هو فرانسوا أوغست ماري مينيه François- Ayguste- Marie Mignet (١٧٩٦ ـ ١٨٤٤) مؤرخ ليبرالي . كتب أيضاً تاريخ الثورة في مجلدين (١٨٢٤) .

٢٥) الفكرة والخُلق شيء واحد : إشارة إلى عبارة فيشته : «إن الشيء الذي يختاره المرء للفلسفة هو وقفٌ على ما يكون المرء بالنسبة للانسان» .

٢٦) أولى مقالاته : المقصود هنا مقالة فيشته «محاولة في نقد التجربة» التي ظهرت في سنة ١٧٩٢ باسم مستعار لدى ناشر مؤلفات كانط .

٢٧) لم يفهمه قط : كان قد تمّ استدعاء فيشته إلى جامعة يينا في سنة ١٧٩٤ لكي يحلّ محلّ راينهولد الذي توجه إلى مدينة كيلْ حيث شهد تحولات فلسفية متعددة جعلته يكون على طرفي نقيض من كانط وفيشته .

٢٨) كانط لا يفهم نفسه : اوضح كانط في آب ١٧٩٩ علناً أن نظرية العلم لفيشته هي نظام فاشل غير صائب ولا يمكنه هو أن يكون مرجعاً له . وذهب إلى أن ما من شيء ينبغي أن يخشاه نقد العقل اكثر من اصحابه البلهاء المحتالين . وعلى هذا نعت فيشته كانط «بثلاثة أرباع الرأس» الذي لم يعد يفهم فلسفته الخاصة به .

٢٩) التأثير في الشبيبة : كان فيشته قد ألف قبل قيامه بالتدريس في جامعة بيينا بعض المقالات التي تتناول أفكار الثورة الفرنسية . وفي مدينة يينا نفسها حاول أن يصلح المنظمة الطلابية والقى في برلين خطبه المشهورة الموجهة الى الأمة الالمانية والتي طالب فيها بتربية معدّله من اساسها .

٣٠) اتهم بسبب الالحاد: رفعت الدعوى بناء على منشور غفل من الاسم : «رسالة أب إلى ابنه الدارس بخصوص الحاد فيشته وفوربيرغ (١٧٩٨) . وفوربيرغ هذا هو فريدريش كارل فوربيرغ Forbérg (١٧٧٠ ـ ١٨٤٨) الذي شغل منصب معاون مدير في مدينة سالفيلد Saalfeld ، بعد أن كان شغل سابقاً منصب وكيل كلية الآداب والعلوم الانسانية في يينا .

٣١) كتاب شديد اللهجة : كان الكتاب موجهاً إلى فون فويكت Von Voigt وزير الدولة في فايمار ويحمل تاريخ ١٧٩٩/٣/٢٢ .

٣٢) النيبيلونكين Nibelungenlied أو نشيد النيبيلونكين الذي يعد قمة ما انجزته العصور الوسطى من ملاحم شعرية في البطولة . ومؤلف هذه الملحمة مجهول . ويعود نظمها إلى بداية القرن الثالث عشر وتتألف من ثلاثة أقسام تشتمل على نحو ٢٤٠٠ مقطع شعري .

والنيبيلونكين هم في الأصل جماعة الأقزام في الاسطورة الألمانية . اما سيغفريد فهو بطل هذه الاسطورة الذي هزم الأقزام وغنم منهم كنزاً عظيماً بعد أن قتل التنين ، حارسه ، واستحم بدمه حتى لا تؤثر فيه الحراب . وتروى الاسطورة

أن سيغفريد حاز أيضاً على القبعة السحرية التي تهب صاحبها قوة تضاهي قوة عشرة رجال اشداء ، كما أنها تخفيه عن عيون الآخرين .

على أن الملحمة تتناول في القسم الأول مجرى الأحداث حتى مقتل سيغفريد ، وفي القسم الثاني تتناول الأحداث حتى سقوط آل بورجند . أما القسم الثالث فيصف مصير زوجة سيغفريد في الفقرة الفاصلة بين زواجها من سيغفريد وزواجها الثاني من ملك الهون .

٣٣) إشـارة إلى لودفيغ بورني Ludwig Borne (١٧٨٦ ـ ١٨٣٧) الصحافي والكاتب السياسي الذي سخّر قلمه للحرية ومناهضة الرجعية . بعد ثورة تموز ١٨٣٠ هاجر إلى باريس حيث امضى بقية حياته . هاجم غوته وجرّحه بأنه «أصغر انسان ورجل جبان محدود الأفق من سكان المدن الصغيرة وخادم الأمراء» . وهو ، بهذا ، يدور في فلك الفئة التي رفضت الحركة الكلاسيكية الألمانية ونعتتها بأنها حركة غير سياسية .

٣٤) جوبيتر فيدياس : فيدياس Phidiès (نحو ٥٠٠ ـ ٤٣٨ ق.م) نحات يوناني والمشرف على بناء الاكروبوليس في أثينا . ابدع تمثال زيوس (جوبيتر) الأولمبي الذي عُدَّ أفضل وأشهر ما أبدعه النحات فيدياس . على أن هذا التمثال لم يصل إلينا .

٣٥) اغتيال المبعوثين : في مؤتمر راشتاد Rastatt (١٧٩٧ ـ ١٧٩٩) كان ينبغي أن تنحلَّ مسألة التعويض للأمراء الألمان الذين منحت أراضيهم الواقعة شمال الراين لفرنسا في مؤتمر الصلح الذي انعقد في كامبو فورميو (١٧٩٧) . وفي الثامن والعشرين من نيسان سنة ١٧٩٩ تم اغتيال المبعوثين الفرنسيين المسافرين .

٣٦) باول وبيت : إشارة إلى قيصر روسيا باول الأول (١٧٥٤ ـ ١٨٠١) ورئيس وزراء انجلترا ويليام بيت (١٧٥٩ ـ ١٨٠٦) والموعز بالحروب الائتلافية ضد فرنسا الثورية والمحرك لها .

٣٧) الخطة العامة التي دبرتها امارة ساكسونيا : بناء على المنشور المذكور الغفل من الاسم فإن امارة ساكسونيا كانت صادرت المقال الذي كتبه فيشته للمجلة

الفلسفية لما فيه من الحاد شديد وطالبت بانزال العقوبة بالمؤلف في مدينة فايمار .

٣٨) بورشر : هو يوهان فريدريش بورشر Johann Friedrich Burscher (١٧٣٢ ـ ١٨٠٥) كاهن واستاذ اللاهوت في لايبزيغ وبينا .

٣٩) فويكت : هو كريستيان غوتلب فون فويكت Christian Gottlob von Voigt (١٧٤٣ ـ ١٨١٩) عضو في مجلس الشورى في فايمار الذي وجّه اليه فيشته كتاباً مليئاً بالتهديدات المبطنة ضد الأكاديمية وضد هيردر .

٤٠) تنوير روزين موللر : إشارة إلى الاتجاه التنويري الذي سلكه استاذ اللاهوت في لايبزغ يوهان جيورج روزين موللر Johann Georg Rosenmuller (١٧٣٦) ـ ١٨١٥) الذي رمى إلى تحسين التعليم في لايبزغ وسعى إلى تشجيع الفقراء وشد ازرهم .

٤١) هايبرغ : هو الكاتب الدانمركي بيتر اندرياس هايبرغ Peter Andereas Heiberg (١٧٥٨ ـ ١٨٤١) الذي أبعد من الدانمرك بسبب تفكيره التقدمي . عمل من سنة ١٨٠٠ وإلى سنة ١٨١٧ موظفاً في الحكومة الفرنسية ومات مكفوف البصر في باريس سنة ١٨٤١ .

٤٢) جيورج فورستر : Georg Forster الذي مات في باريس في العاشر من كانون الثاني سنة ١٧٩٤ .

٤٣) لقد عرفوا الشيء الذي عرفوه : لقد أدرك هايني مسألة حركة التحرر الالمانية ضد نابليون ادراكاً واضحاً وفهم ايضاً ان ما شهدته المانيا من منجزات وطنية معينة مدين لنابليون .

٤٤) تلك هي المرحلة الثانية : في اثناء اقامة فيشته في برلين كان على تماس مع شلاير ماخر وتيك وشليغل . وهنا بدأت المرحلة الثانية لفلسفة فيشته التي توخت التوسط بين الاله والانسان من طريق المحبة الخالصة . وكان انجيل القديس يوحنا قد الهمه مشاعر صوفية طبعت هذه المرحلة بطابع مميز .

٤٥) كتاب آخر : على أن هايني لم يحقق هذا الغرض فيما بعد .

٤٦) مدرسة الفلسفة اليونانية في اليا : كانت هذه المدرسة قد اتخذت مدينة اليا في ايطاليا الوسطى مقراً لها في نحو ٥٠٠ ق.م. ولقد علمت هذه المدرسة وحدة

الوجود وثباته وعدم امكانية تبدله . فاشكال الكون وصوره المتنوعة ليست في نظر هذه المدرسة إلا مظهراً خداعاً .

٤٧) «... برونو أو حول مبدأ الأشياء ...» ينقل شيللنغ في هذا الحوار الذي يظهر فيه فيشته في شخص لوقيان فلسفته في الهوية في صيغة شعرية .

٤٨) برونو : هو جيوردانو برونو Giordano Bruno (١٤٥٨ ـ ١٦٠٠) دومينيكاني ومعلم فلسفة الطبيعة . دافع عن النظام الكوني الكوبيرنيكي . وحكم عليه بالموت حرقاً من أجل ذلك .

٤٩) جول دافيد : الأرجح أن هايني يقصد الموسيقي فيلسيان دافيد Félicien David (١٨١٠ ـ ١٨٧٦) الذي كان من أتباع السان سيمونية وعاش في الشرق سنة ١٨٣٣ ـ ١٨٣٤) .

٥٠) احد تلامذة السيد شيللنغ : تمت القطيعة نهائياً مع شيللنغ بصدور كتاب هيجل «ظاهريات الروح» (١٨٠٧) وبالحملة التي شنها في المقدمة على «التفلسف العبقري» .

٥١) واعترف بكل ماعنده من نيات : كان هذا على الأخص في كتابه : «أصول فلسفة الحق» (١٨٢١) الذي نشره بعد أن شغل منصب استاذاً لفلسفة في جامعة برلين خلفاً للفيلسوف فيشته .

٥٢) بالانشيه: هو بيير سيمون بالانشيه Pierre- Simon Ballanche (١٧٧٦ ـ ١٨٤٧) كاتب فرنسي وفيلسوف . ربط تصورات مسيحية صوفية بعناصر اشتراكية مثالية .

٥٣) ميونيخ : اشارة إلى الفترة التي امضاها شيللنغ في جامعة ميونيخ استاذاً للفلسفة بدءاً من سنة ١٨٢٧ وإلى سنة ١٨٤٢ .

٥٤) احد الانتقائيين التوفيقيين : المقصود هنا الفيلسوف الفرنسي فيكتور كوزان Victor Cousin (١٧٩٢ ـ ١٨٦٢) الذي اشتهر بكتابه «الحق والخير والجمال» .

٥٥) اوكين : هو لورانس اوكين Lorenz Oken (١٧٧٩ ـ ١٨٥١) استاذ العلوم الطبيعية في يينا وميونيخ . وانطلاقاً من افكار شيللنغ واستمراراً لها علّم

فلسفة طبيعة راعت تطور الكائنات العضوية .

٥٦) موللر : هو آدم هاينريش موللر Adam Heinrich Muller (١٧٧٩ ـ ١٨٢٩) كاتب صحافي رجعي وممثل علم الاقتصاد والدولة الرومانسي . عارض وناهض المطامح والمساعي التحررية للطبقة الوسطى .

٥٧) غوريز : هو يوسف فون غوريز Joseph von gorres (١٧٧٦ ـ ١٨٤٨) كاتب صحافي ومدرس في ميونيخ ، آزر في البداية الحروب التحررية ، لكنه توصل فيما بعد إلى نظرات كاثوليكية محافظة . تأثر بشيللنغ والحركة الرومانسية .

٥٨) ستيفنز : هو هنريك ستيفنز Henrik Steffens (١٧٧٣ ـ ١٨٤٥) عالم جيولوجيا . حاول أن يفيد من افكار شيللنغ في مقالاته حول «التاريخ الطبيعي الباطني للأرض» (١٨٠١) . طرح تاريخ تطور الطبيعة وتاريخ تطور الفردية الانسانية .

٥٩) هاكستهاوزن : كان الأخوان هاكستهاوزن قد نبغا بكتاباتهما عن الدستور الزراعي . على أن هايني هنا يقصد هنا فيرنر موريتس فون هاكستهاوزن Werner Moritz von Haxthausen (١٧٨٠ ـ ١٨٤٢) الذي لفت الانظار إليه بمقالته عن «أسس دستورنا» (١٨٣٣)

٦٠) ثور : Thor هو اسم شمالي لاله الرعد الجرماني دونار .

٦١) كونراد الشتاوفي : هو كونراد دوق سوابيا (١٢٥٢ ـ ١٢٦٨) حفيد فريدريش الثاني فون هوهينشتاوفين ملك صقلية . وبعد موقعة تاليا كوزو سنة ١٢٦٨ بين الجيش الفرنسي بقيادة كارل الانجوي وجيش كونراد الصقلي أمر الأمير الفرنسي كارل الانجوي بقتل كونراد الشتاوفي واعتلى عرش المملكة الصقلية .

٦٢) ولي عهد بروسيا : هو فريدريش فيلهلم الرابع (١٨٤٠ ـ ١٨٦١) .

٦٣) فيرت : هو جيورج أوغست فيرت Johann Georg August Wirth (١٧٩٨ ـ ١٨٤٨) المتحدث باسم الليبراليين التحررين الألمان بعد ثورة تموز ١٨٣٠.

الفهــرس

هـذا الكتـاب

الشاعر الألماني الكبير هايني يحاول هنا تقديم تاريخ موجز للفلسفة بأسلوب شعبيّ ، يفهمه القارىء البسيط .

كما يقدم هايني نظرته للدور الألماني في تاريخ الفكر الحديث ، ويتناول ديكارت ، لوك ، سبينوزا ، لايبنتز ، فولف ، فيتشه ، شيللنغ .. مركزاً على الاصلاح الديني والثورة الفلسفية التي مهد لها كانط . ويعالج هايني الفلسفة الألمانية في علاقتها بالتقليد الديني ، مؤكداً على أن ظواهر التاريخ الاجتماعية والسياسية ، والظواهر الفكرية ، شيء موحد . وعلى هذا ، فإن فهم الفلسفة لايمكن أن تكون انطلاقاً منها فحسب ، بل انطلاقاً من علائق سياسية أيضاً . فتاريخ الفلسفة مثله كمثل تاريخ الدين ، وهو أبداً عنصر التاريخ السياسي .



دار الحوار للنشر والتوزيع - سورية - اللاذقية

ص.ب ١٠١٨ - هاتف ٢٢٣٣٩